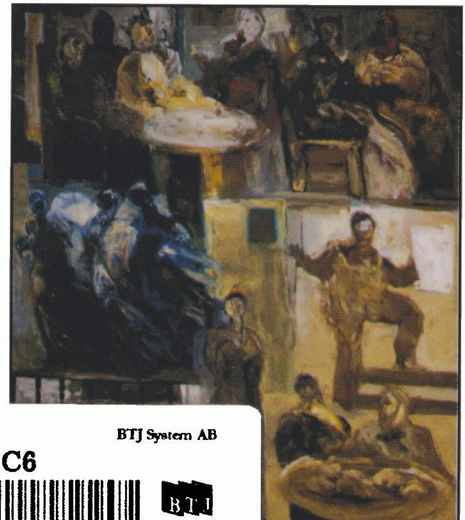
عزيز نسين

سرنامة

«وقائع احتفال رسمي»

رواية



الترجمة عن التركية: عبد القادر عبد اللي

سرنامة

* عزيز نسين
* سرنامة
* ترجمة: عبد القادر عبداللي

* الطبعة الأولى 1999
* الناشـــــــر : ورد للطباعـــة والنشـــر والتوزيـــع
سوريـــة ـ دمشق ☎ 3321053
* الاستشارة الأدبية : حيدر حيدر
* الإشـــراف الفني : د. مجد حيدر
* لوحـــــة الغلاف : د. أحمد معلّا
* الإخـــراج الفني : دار الحصاد للطباعة والنشر والتوزيع
* التـــــوزيـــع : دار ورد ☎ 3321053

عزيز نسين

سرنامة

«وقائع احتفال رسمي»

رواية

ترجمة عبد القادر عبداللي

سرنامة (وقائع احتفال رسمي) تحكي هذه (السرنامة) قصة الحلاق خيري عدو الشرف والعرض، وإعدامه في ساحة (السلطان أحمد).

مقدمة

ـ تفضَّل وقّع!

ـ على ماذا؟

ـ على قانون هيئة الأمم المتحدة.

دع الفأفأة..

هيا وقّع!

ـ هاهي طغرائي:

السلطان (بلموط)

ـ وقّع هذا أيضاً!

ـ ماهذا أيضاً؟

ـ الإعلان العالمي لحقوق الإنسان

وأنت عضو في المجلس الأوروبي،

وأعلناك ديمقراطياً..

وقّع يا أهبل!

ـ هاهي طغرائي:

السلطان (بلموط)

الحجر في الأرض، والغيم في السماء.
انسَ!
ـ وقّع هنا أيضاً!
ـ ماهذه؟
ـ الوثيقة الختامية لمؤتمر هلسنكي.
ـ وااااخ!
أين قرعنا الطبل، وأين سُمع الصوت؟
أحرقتنا يا ديمقراطية..
(يصفق)
استدعوه بسرعة،
نادوا مؤرّخ الديوان
ـ قلنا ها نحن
ناديتنا فأتينا
أوامر وفرمانات في كل ظرف، وكل وضع.
ولي نعمتنا،
السلطان ابن السلطان،
سافل ومنحط
أطاااال الله بعمر سيّدنا
السلطان بلموط خان!
وللدعاء الذي لن يتحقق
آميـــ... يـــــ... يــ... ن
نقولها نحن:
سيبدأ، يبدأ، يبدأ

يبدأ درس التاريخ هذا، حيث ينتهي.
العامة بعشرة قروش
والجندي بمائة بارة،
ليأتِ واحد فهمان،
الفهمان ببلاش!
ممنوع الدخول إلى الخيمة
لمن هم دون الثمانية عشرة
لأن فيها ديمقراطية
وهي في أدنى درجات العيب..
هيا إنها ستبدأ
تبدأ الديمقراطية..
يا سيدات، يا سادة!
في الداخل
عجيبة الدنيا الثامنة..
تعالوا، ادخلوا، وشاهدوا..
خذوا درساً، واعتبروا..

مدخل

لأن أسلافنا في هذا العالم يحملون على عاتقهم دَيناً إنسانياً هو أن يحكوا ويكتبوا عما رأوه، وسمعوه، وتعلموه، وعرفوه، وشاهدوه لمن سيأتي بعدهم، وهؤلاء لمن بعدهم... بينما كنت وحدي في أحد بيوت زقاق (صونار) في حي (أوران) التابع لناحية (كمر) في منطقة (البرهانية)، ولكي أسدد ديني الإنساني، وفي الساعة الثالثة من بعد منتصف الليلة التي تربط 13 شباط بالرابع عشر منه عام 1973 ، وبينما كان سواد الليل يتحول إلى زرقة النهار، بدأت كتابة هذه السرنامة. أتمنى أن أنهي عملي في أقصر وقت ممكن لكي أكتب أكثر... أكثر عن الزوجة والخليلة، الصديق والرفيق، وحتى العدو أيضاً متحدثين عن يومنا.

سأعمل من خلال هذه السرنامة على عرض كيفية شنق عدو الشرف والعرض المدعو خيري الحلاق في ساحة السلطان أحمد، والفرح اللامحدود للمتفرجين القائلين أثناء تنفيذ الإعدام: «لك الشكر ياالله، أحققت الحق، وأنقصت سافلاً من بيننا، ونحن نجونا، وابتعدنا عن الدور»، وقول القائمين على العدل، والإداريين، والنائب العام الجمهوري الذي يقف بجوار القائمين على العدل والإداريين، وقائد الجندرمة الواقف بجوار النائب العام الجمهوري، والإمام الواقف بجانب قائد الجندرمة: «هذه هي نهاية عديم الشرف»، وعلى عرض عدم تواني الجلاد علي الغجري الواقف بجانب الإمام بتقديم

التضحية في سبيل إعطاء درس وعبرة للناس، والحديث عن الجهود الجبارة التي بذلها انطلاقاً من حب عمله العظيم لإيفاء عملية الشنق حقها، وتقديم مراسم الشنق هذه، واحتفالات المتفرجين بكل تفاصيلها، لكي يستطيع من فاتته هذه المراسم من أبناء شعبنا استعادتها كأنها حية أمام عينيه، ومعرفة كيف حق الحق، وإراحة ضميره النظيف.

ثمة بيت شعر قاله (نفتي):

هنالك طحال ورئة وأمعاء وكلية ومخ   ولكن لاتنس أن الضمير لايساوي شيئاً

معلومكم أن السرنامة تطلق على كتاب يحكي تفصيلاً عن الاحتفالات الفنية والمراسم الملونة، والحفلات الضخمة، والعروض الخارقة التي تقام في مناسبات الأفراح مثل الزواج، والعرس، والختان، ويشارك فيها الناس، وتستمر عدة أيام في عهد العثمانيين. أي أن السرنامة هي باختصار: كتاب الفرح. ويُفهم بسهولة أيضاً أن هذه الأفراح ليست أفراح الذين لم يستطيعوا دفع (المأكل) لأهل العروس، فخطفوها، ولهذا زُجوا في السجن، بل هي أفراح السلاطين، وأولياء العهد.

في عصر الجمهورية هنالك احتفالات من العظمة والفخفخة بحيث تغدو احتفالات العصر العثماني لاشيء بجانبها، وتستمر أربعين يوماً، وأربعين ليلة.. وهنالك افتتاحيات يقدم فيها الويسكي والمشروبات، ومراسم لم يُسمع بمثلها، واحتفالات لم يُر نظير لها، وخطوبات بلغت الذروة في التباهي، وأعراس فيها من المتع ما يضاهي عروض (حسين يايقرة)، وألف احتفال واحتفال، ولكن مع الأسف لم يكتب حتى اليوم سرنامة جمهورية. هذا يعني أن كتابة سرنامة في عصر الجمهورية من نصيب العبد الفقير لله.. ويالسعادتي!

معروف أن لكل إنسان غداً، وأمساً، وطرفاً، واتجاهاً، وإذا

كان ليس ثمة إنسان دون طرف واتجاه، فقد عملنا عند كتابة هذه السرنامة مابوسعنا لكي لانميل إلى طرف، ولو أننا لسنا محايدين، ولكننا عملنا لنكون موضوعيين، وبذلنا جهداً كبيراً، وأبدينا عناية فائقة لكي لانحيد عن الصواب. مثلاً في سرنامتنا إذا وضعنا اسم خيري الحلاق مكان (علي البركجي) فهذا التغيير لايمس جوهر الحدث الاحتفالي هذا. كان آخر مجرم شنق في ساحة السلطان أحمد أمام أعين الجميع هو علي البركجي، لكنني سأحكي عن خيري الحلاق الذي شنق قبله على أنه آخر من شُنق. أجريت بعض التعديلات في التواريخ، فنقلت القبل إلى مابعد، والمابعد إلى ماقبل، وعملت هذا التغيير الطفيف لكي تظهر المقولة التي أردت تقديمها في هذا الكتاب بشكل أفضل، وآمل أن يغفر لي قرائي هذه التعديلات.

أثناء كتابة هذه السرنامة التي تعتبر وثيقة ذات قيمة كبيرة، وهامة جداً في تاريخنا الثقافي، لم ننحرف عن الصحيح قيد شعرة لكي تكون درس عبرة للأجيال القادمة.

أحد أهداف العقوبات العدلية أن يرى شخص ما مجرماً يُنزل فيه العقاب فيقول فرحاً: «الحمد لله، لقد نجوت» ويترسخ هذا في أذهان الناس، والجانب الآخر هو أن يرى الناس المجرم وقد عوقب، فيأخذوا درساً وعبرة. لهذا السبب تنفذ عقوبات الإعدام في ساحة كبيرة يستطيع قسم كبير من الناس مشاهدتها، مثلاً في ساحة مضمار سباق الخيل بالنسبة للبيزنطيين في اسطنبول، أو في ساحة الخيل التي تسمى الآن ساحة السلطان أحمد بالنسبة للعثمانيين.

شَنْقُ خيري الحلاق موضوع سرنامتنا هذه، هو آخر عملية شنق تنفذ في ساحة واسعة، وعلى مرأى من العيون. بعد ذلك صدر تعميم وزارة العدل الذي يحمل الرقم 18 ، وتاريخ 18 كانون الثاني 1951 ، وجاء فيه: «اتخاذ إجراءات قطعية تمنع حضور الأشخاص غير المبينين بموجب القانون عملية تنفيذ عقوبة الموت، وتشييع الجنازة فوراً دون عرضها على أحد بعد التنفيذ مهما كانت

الأسباب، أو المقاصد» وبالتالي تم التراجع عن تنفيذ حكم الإعدام على مرأى من الجميع لأخذ العبرة، والشعور بالراحة، ومنذ ذلك التاريخ تنفذ أحكام الإعدام في ساحات السجون دون احتفالات. لهذا السبب فإن هذه السرنامة التي تحكي عن آخر احتفالات الشنق، وأكبرها، تحمل أهمية تاريخية بجانب من جوانبها.

كانت الاحتفالات تستمر في عهود السلاطين أياماً، ويراها المشاهدون. أما الاحتفال المذكور في عهد الجمهورية فقد استمر أربعة أيام بلياليها، وبشكل منتظم، أمام الجمهور. في اليوم الأول لهذا الاحتفال تلفق حجة لخيري الحلاق بعد أن صدرت الموافقة على إعدامه، وأخذ الحكم صورة قطعية، لنقله من سجن (باب الباشا) في (اسكي دار) إلى سجن (سلطان أحمد). في اليوم الثاني تختلق تهمة تافهة ليوضع خيري الحلاق في زنزانة منفردة وحيداً، كي لايعلم، كما لايعلم بقية المحكومين بخبر تنفيذ الإعدام. تعد الإجراءات الأخيرة لاحتفال الشنق في يوم الفرجة، ويُجهّز الموظفون، وتؤمن الأدوات اللازمة للشنق، ويُنظّم مكان تنفيذ حكم الإعدام، ويُستدعى موظفو إجراءات الشنق، ويعلن على الجماهير، التي ستبلغ مبلغ الراحة الوجدانية وتأخذ درساً وعبرة، مكان الشنق، وزمانه بوساطة الصحف، أو الإعلانات. وفي اليوم الرابع ترى الجماهير خيري الحلاق معلقاً في المشنقة وسط احتفالات غير عادية بدأت قبل يوم، فتأخذ درساً وعبرة من جهة، وتقول لنفسها: «أوخ نجوت» وتأخذ نفساً عميقاً وهي تشعر بالفرح من جهة أخرى.

إذا كان الوضع على هذا النحو، فهو هكذا، وجرى كذا وكذا... ونبدأ الحديث قائلين لكم ياسادتي سنعلم حضراتكم بكل ماجرى...

يروي هذا الفصل سبب جلب خيري الحلاق إلى السجن

KMH

قبيل المغرب، جُلب المتهمون الذين أصدرت المحكمة قرار حبسهم، والمحبوسون الذين جلبوا من السجن لمحاكمتهم مقيدي الأيدي، كل واحد منهم مخفور باثنين من الجندرمة إلى قبو بناء العدلية المسمى «تحت الباب» وزُجوا هناك. ذلك القبو المدعو تحت الباب لايدخله ضوء النهار، ولايملؤه هواء جديد، ولانافذة له. بعض نزلائه يجلسون القرفصاء مسندين ظهورهم إلى الجدار القذر، وآخرون يريحون أنفسهم مثل الإوز بأن يقفوا على قدم ويرفعوا أخرى مبادلين بين القدمين، كأنهم أسماك في صندوق ينتظرون موعد نقلهم إلى السجن. امتزج دخان السجائر مع دخان الحشيش المدعو هناك «الفتاة الشقراء» مع رائحة الرطوبة المعتقة، مع بخار أنفاس متفسخي الأحشاء، لتلتف الرائحة حول المصباح الذي ينوس متدلياً من السقف، مثل قطعة قماش لونها بزرقة العفن متجهة نحو السقف لتتكاثف هناك. ذاك اليوم عيد بالنسبة لمتعاطيّ الهيروويين. لأن الذين لديهم محاكمات جُلبوا صباحاً من السجن، وفي أثناء انتظارهم بين اثنين من الجندرمة أمام باب المحكمة، أو في الممرات، دسّ لهم أصدقاؤهم الحميميون القادمون لرؤيتهم، صرّة أو اثنتين من الهيروويين، ومن ثم وضعوها في جيوبهم. والآن جلسوا على ركبهم وذبلوا بفعل الهيروويين، وسلطنوا إلى حد أن نار سجائرهم وصلت إلى مابين أصابعهم المصفرة، وبدأت تحرقها

وهم يتناومون ورؤوسهم تسقط على صدورهم، ثم يرفعونها لتسقط من جديد. كانوا مفتوحي العيون، حدقاتهم ضائعة، وتحوّل البياض إلى صفرة بلون البلغم.

فُتح الباب. فك الجندرمة قيد معصمي شاب ودفعوه من ظهره إلى الداخل، أغلقوا الباب، وأقفلوه من الخارج. وبالشكل الذي يطلق فيه المتأنقون صفيراً للفتيات العابرات في الشارع، صفّر الذين لم يفقدوا أنفسهم بعد تحت تأثير الهيروييين، أو الأفيون، أو الحشيشة، جماعياً عندما رأوا الشاب. لكز أحد القوّادين حتى على أمه، جاره بكوعه، وقال:

- ابني... طلعت شمس كامل الكردي... انظر إلى هذا الفرخ... إنه دافئ... بشرفي دافئ...

ثم جمع رؤوس أصابع يده اليمنى الخمسة، وقبلها بصوت مفتعل.

- بالسلامة يا صديقي..

- بالسلامة ياشاب..

- بالسلامة ياأمي..

- بالسلامة ياصديقي..

- بالسلامة يابني...

رد الشاب على كل منهم بخجل وضيق قائلاً: «تسلموا».

- بأي عَمْلة وقعت يا أمي..

احمر جلد خديه التفاحيي اللون، والمشمشيّ الزغب، وهو شاب في الحادية والعشرين من عمره، لكن فتوته تبديه أصغر مما هو عليه، كان وجهه مبقّعاً، وقال هامساً:

- أنا خيري الحلاق.

بقوله: «أنا خيري الحلاق» عَبَّر عن جريمته التي خجل من الإفصاح عنها. فخلال التحقيق معه في مديرية الأمن، كتب الصحافيون عن قضيته مُحَّلينها، ومزينينها، ونافخينها. لم يبق من لايعرف القضية، وخاصة في السجن.

بعد عبارة خيري الحلاق المهموسة، طافت بين الذين يملؤون تحت الباب تمتمات، ومبادلةٌ في الحديث حول أمور ما، وبدت عليهم الدهشة. هل هذا الشاب اليافع ارتكب تلك الجريمة التي تقشعرُ لها الأبدان؟! أمر مدهش!

إن القضية التي بطلها خيري الحلاق هي باختصار: خيري حلاقٌ في منطقة ساحلية. اعتدى على عرض ابن أحد جيرانه البالغ من العمر ست سنوات، ثم خنقه، ودفن جثته.

دعونا من خيري الحلاق الذي في قبو العدلية، المسمى تحت الباب، ولنأت إلى سافل السافلين، المسعور، المدعو كامل الكردي. من هو كامل الكردي؟ لنحكِ لكم عنه:

كامل الكردي ذو وجه داكن، وعينان سوداوان، وحدقتان دائمتا الحركة مثل الصراصير القاسية القشرة، واللماعة. نظراته تبث الخوف في نفس الإنسان، لم يعرف الضحك، أو يتعلمه. مارآه أحدٌ ضاحكاً قط. قضى معظم حياته في السجون. والأيام التي قضاها خارج السجون عاشها مع عاهرات، وأولاد سقطوا في طريق الانحراف في غرف تسمى غرف العازبين في أحياء (طوبهانة)، (زبيا)، (طهطا قلعة)، (كمرآلطي)، (غلاطة)، وهو لايستحي، يعيش يومه، ويجبي الأتاوة من بيوت الدعارة. وحش في شكل إنسان، يعمل مقدماً نفسه نموذجاً لإثبات أن هنالك نمط إنسان مجرم بالولادة، هذا الأمر الذي قال عنه لومبروز قبل زمن طويل إنه غير علمي. ما ذهب إلى العسكرية، ومادفَعَ في حياته قرشاً واحداً ضريبة، وما عمل في حياته ولو مدة ساعة في عمل

عادي، وما بذل جهداً في عمل ما. يردد هذين الشطرين كثيراً، معتقداً أنهما شعر:

ستة بستة، ستة وثلاثون مأوانا (تحت السور) مساجين

هو ليس آغا السجن كله، لكنه أحد الآغوات الثلاثة الذين قسّموا السجن إلى ثلاث مناطق استغلال. يجبي نسبة من لعب القمار في مهاجع القسم الثاني، ولايستطيع أحد غيره بيع الحشيشة، والأفيون، والهيروويين في مهاجع القسم الذي يتربع على عرش آغويته. هنالك صبي على طرف فرشاته الأربع المطبقة فوق بعضها بعضاً في المهجع، وعلى الطرف الثاني صبي آخر. إنهما صبيان شربا من سبعين طاساً، عبرا من دائرة نار الدنيا، وعندما يأمر كامل الكردي أمراً، أو يقول شيئاً لايجعلانه يكرره. يحملان مسدسه، وسيخه، والحلق الذي يدخل في الأصابع وله مسننات حادة، وسكينه، وسوطه المدعو عصب الفيل ويخفونها له ليتمرسا جيداً في الأساليب التي تمر معه، ويكتسبا مهارة، فيصبحا مستقبلاً آغوين في السجن مثل كامل الكردي. ويمكن لكم أن تدركوا أي بلاء سافل لامثيل له في الدنيا هذا المدعو كامل الكردي إذا حكينا عن نهايته بعد شهر من إطلاق سراحه بعد عفو عام. لقد وجدت جثته في غرفة فندق في حي الفاتح، متفسخة تفوح منها رائحة قذرة. وفي نهاية التحقيق، وجد أن صبيين منحرفين خنقاه في إحدى الليالي.

يقول المثل: «جرّة الماء تُكسر على طريق النبع».

لنعد إلى خيري الحلاق. عند المساء، جُمع الموقوفون، والمحكومون، وكُبلوا جميعاً بالقيود من معاصمهم. وحُشيت بهم سيارة السجن المصبوغة باللون الأحمر، وجلبوا إلى السجن، وأُدخلوه. استقبل رئيس الحرس والحراس المناوبون القادمين الجدد. استعرض رئيس الحرس وجوههم واحداً واحداً. وأطال النظر إلى خيري الحلاق، ولأن سنوات العمل الطويلة جعلته خبيراً بالناس، قال لسجان مناوب:

ـ لاتضعوا هذا الولد في مهجع الحَجْر.. خذوه إلى مهجع الصبية.

مع أن القادمين الجدد يوضعون في مهجع الحجر مدة خمسة عشر يوماً.

اندس إلى جانب رئيس الحرس المحكوم العجوز الذي ملأ عين مدير السجن بسبب مراءاته، ونقله أخبار الآخرين، فكافأه بالسماح له بمساعدة السجانين، وهمس في أذنه:

ـ أرجوك ياسيدي، لاتضعوه في مهجع الصبية. أنتم لاتجهلون ذاك المكان، إنه أسوأ بألف مرة. ماحدث قبل أيام لذلك الشاب...

كانوا قد أدخلوا إلى مهجع الصبية شاباً وسيماً لقضاء محكومية قصيرة مدتها خمسة عشر يوماً، معتقدين أنهم يحمونه، لكي لايعتدي عليه أحد في المهاجع الأخرى. هنالك في هذا المهجع مجرمون تتراوح أعمارهم مابين أحد عشر عاماً، وثمانية عشر، إضافة إلى من فاحت رائحتهم بقوة من المنحرفين جنسياً من كل الأعمار بعد أن تخلى عنهم آغوات السجن. أولاد الحرام الصرف هؤلاء الذين هم في مهجع الصبيان يتوقون لنقل السفالة التي وصلوا إليها بألف ضعف إلى غيرهم، وتمريغهم بها. لهذا فهم أسوأ ألف مرة من كامل الكردي. يعتقد هؤلاء أن خجلهم يتناقص بالنسبة التي ينشرون فيها عاداتهم السيئة في أوساط الآخرين.

عندما زُجّ ذلك الشاب في مهجع الصبية، وسُحب الباب الحديدي وراءه، وأُقفل بالجنزير، ودون أن يشعر أفراخ الوحوش، أولئك المدعوون صبية والمالئو المهجع، بأية ضرورة لمقدمات أو بدايات من أي نوع، هاجموه كما هاجم آلاف الأقزام (أوليفر) وصعدوا فوقه، ومزقوا بنطاله وسرواله الداخلي ونزعوهما عنه، ودون أن يفهم الشاب ماتعرض إليه، أُسقط على الأرض، وانكب خمسة من الأولاد عليه، وبعد أن نفضه الخمسة، ورموه، انكب عليه هذه المرة

خمسة عشر أو عشرون واحداً منهم. في النهاية فقد الشاب قواه، ولم يعد يستطيع التنفس، ولم يقو على فتح عينيه حتى اليوم الرابع لإلقائه في المهجع. عندما فتحهما رأى أمامه رئيس الحرس، فحكى له ماجرى.

عندما ذكّر المحكوم العجوز رئيس الحرس بهذه الحادثة، قال:

ـ ضعوه هذه الليلة في مهجع الحجر، وراقبوه جيداً، غداً نفكر فيما سنفعل..

فُتش المسجونون القدامى الذين ذهبوا صباحاً إلى المحكمة، وعادوا في المساء. أما الهيروويين الذي دسه له أصدقاؤهم أكياساً صغيرة مطاطية أو نايلونية، فقد ابتلعوه وبعد أن عبروا بسهولة من المعاينة الشديدة التي أُخضعوا لها عند الباب، هرعوا إلى مهاجعهم، وشربوا مسهلاً لإخراج أكياس ونفاخات الهيروويين في دورات المياه حيث بيع قسم منها، وشمَّ آخر.

بعد عبور الموقوفين الجدد من التفتيش، أُدخلوا إلى المكان الرطب والمشبع بالبخار المدعو حماماً، وخرجوا أكثر قذارة ووسخاً. بعد ذلك ارتدوا ثيابهم وهم يشعرون بالقرف من رائحة البخار والحروق، ومن جعلكة الثياب نتيجة تمريرها من جهاز التعقيم الذي يقتل الميكروبات حسب زعمهم، ثم أُدخلوا إلى صالة الحلاقة حيث كان حلاقو السجن يقصون شعر الموقوفين من جذوره. لكن الحلاق الذي كان يقص لخيري الحلاق شعره الخرنوبي، قال:

ـ أنت منا. الحلاق لايبوء بحلاق..

ولم يَجُزْ بقص الشعر، فتركه طويلاً قليلاً.

لم يفهم خيري الحلاق المقصود من عبارة: «أنت منا» التي قيلت بلهجة نسائية. وعندما ذهب لينام تلك الليلة في مهجع الحجر،

هُرع ذلك المحكوم العجوز المرائي إلى كامل الكردي، آغا القسم الثاني، لتقديم الخدمة له، وحكى له عن خيري الحلاق كأنه يحكي عن عاهرة سيؤجرها له بالليلة، قال له:

ـ يالطيف ياآغا، يالطيف.. الدنيا مارأت فرخاً بهذه الحلاوة، وماشهد مثله عصر من العصور.. جلد مثل المهلبية، وعقد من فضة.. لاأحد يعرف من أين أتى.. إنه ليس من هذه الأرض، إنه ملاك هبط من السماء..

كلام كامل الكردي في السجن مسموع. ولكي تسير أمور السجن بانتظام، ولايتمرّد السجناء، ويتسرّبوا إلى الخارج يُلبّى له كل مايطلب. أرسل إلى رئيس الحرس خبراً بشكل مناسب: «انتبهوا.. كامل الكردي أفضل من يحمي الشاب الفتي لكي لايصيبه مكروه. احذروا أن يقع للشاب الفرخ مكروه».

وهكذا نُقل خيري الحلاق إلى مهجع كامل الكردي مع أربعة معتقلين، صباح الليلة التي قضاها في مهجع الحجر. أما المعتقلون الأربعة الآخرون فقد بقوا في مهجع الحجر خمسة عشر يوماً، مكملين زمن الحجر.

استخدم كامل الكردي كل أساليب التخويف التي يستخدمها من أجل إخافة الداخلين الجدد إلى السجن، وجعلهم فيما بعد ينفذون كل مايطلب منهم. أساليب الإخافة هذه ليست من اختراع الوحش الإنساني الشكل المدعو كامل الكردي، بل هي أساليب معروفة منذ نشوء الخليقة ووجود السجون.

كان هنالك في نهاية المهجع مكان لإعداد الشاي. وبجانبه إلى اليمين أربع فرشات صوفية بعضها فوق بعض، وفوقها فرشت سجادة، وفوق السجادة فراء، وخلفه على الجدار علّقت سجادة حريرية. هذا هو المكان الخاص لكامل الكردي. عندما لايكون كامل الكردي نائماً، ولاماشياً في الممر، ولايلعب القمار أو يلعّبه، يجلس هناك ويستقبل ضيوفه.

عندما وصل المعتقلون الخمسة المجلوبون من مهجع الحجر، كان كامل الكردي يتربّع في مكانه الخاص هذا الشبيه بعرش السلطان، ويسبّح بسبحة ضخمة الخرزات محدثاً صوتاً بتصادمها. كان تحت كوعيه، وخلفه، مخدات ناعمة مغطاة ببساط. كل هذا الديكور والأمتعة تُري كامل الكردي ضخماً وعظيماً، وهو في الحقيقة ليس هكذا.

ولكي يدخل المعتقلون الجدد المنتظرون عند الباب، أصدر كامل الكردي أمره لخادم المهجع قائلاً: «ليدخلووووا»، ولو كان السلطان سليمان من سيصدر هذا الأمر لما استطاع أن يقول «ليدخلووووا» على نحو أعظم من هذا. اليأس الذي منحه جو السجن للمعتقلين الجدد، جعلهم يرتجفون مع صراخ كامل الكردي المشابه للرعد. دخلوا بخطوة إلى الأمام، وأخرى إلى خلف. كان خيري الحلاق في المؤخرة.

كان كامل الكردي، كي يبدو مُهاباً، لا يتحدث مباشرة إلى المعتقلين الجدد، بل يوجه مايريد قوله إلى خادم المهجع:

ـ وسّعوا لهم مكاناً ليجلسوا..

قال خادم المهجع للقادمين الجدد:

ـ اجلسوا هنا!.. وأشار إلى المكان.

اندس الخمسة، كل واحد لصيق بالآخر، للوصول إلى المكان المشار إليه.

كامل الكردي، حسب رؤية خيري الحلاق، عبارة عن شاربين وعينين. ينطلق الشاربان من فتحتي الأنف نحو الجانبين، ثم ينتصبان بعد ذلك نحو بروز عظم الوجنة ليسيطرا تماماً على وجهه، فلا يبدو من الوجه سوى شاربين وعينين فقط. الشاربان يبرقان من الشمع، مصبوغان بشحار البندق الزيتي، أسودان فاحمان ورأساهما مدببان كالسهم. كأنهما سهمان يشيران: «الاتجاه من

هنا» إلى عيني كامل الكردي، وهذا يجعل الناظر إلى وجهه يضطر للنظر إلى عينيه. كأنهما ليستا عينين، بل هما صرصاران قاسيا القشرة لمّاعان بتأثير أشعة الشمس الصيفية اندسا إلى حفرتي العينين، وسكنا هناك. إنهما ظهرا صرصارين يتلامعان.. لايتوقف الصرصاران الأسودان القاسيا القشرة، الساكنان في حفرتي العينين ثانية واحدة، وهما يتحركان دون توقف.

شبّه خيري الحلاق كامل الكردي، الذي رأى فيه شاربين وعينين فقط، بشخص آخر. بمن شبهه؟ هاااا.. نعم.. شبهه بذاك الرجل الذي يتمنى موته، وتعليقه على المشنقة بحبل مزيّت، وسلقه في مرجل قطران، وجرّه بذيول أربعين بغلاً، وسلخ جلده، وتنتيف لحمه نتفاً نتفاً، وصنع ضرف من جلده وملئِه بالتبن.. مع أنه ليس لذاك الرجل شاربان كشاربي كامل الكردي، ليس لذاك شارب أو شعر، وليس أسمر مثل كامل الكردي، بل هو أشقر. عيناه ليستا بسواد ظهر الصرصار كعيني كامل الكردي، بل هما زرقاوان مثل خرز الحسد. رغم هذا شبههما خيري الحلاق بعضهما ببعض. ماهي سمات الشبه تلك؟ لايعرف، ولكنه يجد بينهما شبهاً قوياً لايعرفه. لعلها.. لعلها.. نعم لعلها النظرات. ليس في عيني أحدهما الزرقاوين الباردتين كالخرز، والسوداوين الزيتيتين أدنى نظرة شفقة. عينا كليهما تشتعلان بغدرٍ كاوٍ.

أرعد كامل الكردي بصوته منادياً محضّر الشاي، وبلهجة استهانة بالقادمين الجدد قال:

ـ اغلِ شاياً لهؤلاء!

كان عامل الشاي قد أعده منذ زمن. ملأ الكؤوس الشبيهة بخصر الفتاة شاياً خميراً، ووضع الأقداح على صينية ذات علّاقة. اختطف أحد الصبية القائمين على الخدمة الصينية، وقدم في البداية الشاي لكامل الكردي، ثم وزّعه على القادمين الجدد.

وجّه كامل الكردي لأول مرة نظرة إلى القادمين الجدد، وقال:

ـ بالسلامة ياشباب!

ومن النظرة الأولى عرف خيري الحلاق الذي مُدح له كثيراً جداً، وأدرك أنه فرخ يستحق المديح. لقد ملأ عينيه، ودخل قلبه.

همس القادمون الجدد:

ـ سلمت!

حتى صوت كامل الكردي يبث الخوف. لايخرج صوته كما يخرج صوت الإنسان العادي، كأن الحبال الصوتية في حنجرته شُدّت إلى أقصى حدّ لها، لهذا فهو يتكلم مصدراً صوتاً كشخير كلب مسعور. الصوت المنبعث من فمه عبارة عن شخير حيوان ذي مخالب سينقض على وجه الشخص الذي أمامه.

عند مرور صبي الخدمة أمام كامل الكردي متوجهاً لتقديم الشاي لأحد القادمين الجدد، سمع صوت (طاق) يشبه صوت نزول حزام على جلدٍ عارٍ. لقد صَفَعَ كاملُ الكردي صبي الخدمة على خده فجأة عند مروره أمامه، فطارت الصينية ذات العلّاقة إلى جهة، وكؤوس الشاي إلى جهة أخرى. أما الصبي فقد طار في الهواء مثل كرة بتأثير الصفعة، وتشقلب مرتين، واصطدم بالجدار، ثم سقط على الأرض. لابد أن صوت الصفعة سُمع من الحديقة.

كادت ركبتا خيري الحلاق تنحلّان من صوت الصفعة.

خيّم صمت على المهجع من النوع الذي يُسمع فيه صوت البعوضة كما يقال. كامل الكردي يطقطق بسبحته بشكل منتظم، وكأن شيئاً لم يكن، وهذا ما يضاعف الصمت.

لم يفهم الأشخاص الخمسة القادمون حديثاً إلى المهجع سبب غضب كامل الكردي من الصبي الذي وزّع الشاي، وصفعه. هل هو

رجل لايُعرف سبب غضبه، ومتى يغضب، أم أنه يغضب بلا سبب، أم أن ذلك الصبي قد لامس قدمه؟ مهما يكن تكلّم كامل الكردي، وفُهم سبب غضبه.

ـ ممنوع السعال أثناء المرور أمامنا يا كلب!

إذن ليس من فراغ نفض الجميع ياقاتهم، وقالوا: «الله يرحمنا من كامل الكردي» فحين دخل القادمون الجدد باب السجن في قسم (تحت الباب)، وعند الحلاق، وفي الحمام، والحجر، وفي كل مكان، ردّدوا «اللهم احمِنا.. يجب الابتعاد عنه.. يالطيف، يجب تنفيذ مايطلب.. يالطيف لفّْ حول الحرش، ولاتلفّْ حول كلب..».

القادمون الجدد لايعرفون أن ماقيل، وأن سطوة كامل الكردي التي تدور على الألسن وصفع الصبي، وكل ماجرى، هو عبارة عن تمثيلية حُضّرت مسبقاً. كل هذا حُضّر مسبقاً لإخافة القادمين الجدد، وبثِّ اليأس في نفوسهم. الصبي المصفوع محترف من صبيان الصفع.. مهمة صبيان الصفع، لكي يصدر عن الصفعة صوت قوي، هي إمالة خدهم بشكل مناسب لكف كامل التي ستصفعهم، ثم قفزهم في الهواء متشقلبين مرة أو اثنتين حسب مهارتهم بعد الصفعة، ثم صدم أنفسهم بالجدار المقابل وتدحرجهم. من يراهم تنتفخ شفتاه، ويقول: «الله، الله.. ماهذه الصفعة السلطانية؟ هواؤها يقلب الرجل» ويدهشون. صبيان الصفعات مدمنو هيروويين. فهم يندفعون بكل طاقاتهم لنيل صفعة، إذ سيأخذون بالمقابل صرّة هيروويين من كامل الكردي بعد اصطدامهم بالجدار وسقوطهم إذ سيكونون قد استحقوها، فيتعاطونه، ويسلطنون، ويعيشون حياتهم.

انخطف لون خيري الحلاق، وصار بلون الرماد من الرعب.

قفز صبي الصفعة ناهضاً، ومثّل دور الباكي، ثم مسح دموعه بطرف جاكيته القذر وتناول الصينية ذات العلاّقة عن الأرض، وبدأ

بجمع كؤوس الشاي الفارغة. ذهب في البداية لأخذ كأس أحد المحكومين القدامى. هذا المحكوم من رجال كامل الكردي. أخرج هذا المحكوم قطعة مئة ليرة ووضعها على الصينية بين كؤوس الشاي كما هو مقرر مسبقاً. عندما أعطاه النقود قال صبي الصفعة، ولم يزل أثر الصفعة على خده:

ـ تسلم ياآغا..

وقف أمام المحكوم المجاور له. عندما وضع الثاني على الصينية خمس ليرات مع كأسه، احتدّ صبي الصفعة فجأة، وقال:

ـ ضعها في جيبك، ادفعها أجرة حمام.

«واخ، أجرة حمام! أجرة حمام ها! ولاه، في بلدنا يرتكبون جريمة لهذه العبارة».

ادفعها أجرة حمام، تعني أسوأ إهانة لرجل من رجل آخر، لايمكن أن يكون هنالك أسوأ منها. وهي أسوأ من وضع الرجل في موضع العاهرة. ياناس، إذا كان صبي الصفعة عند كامل الكردي يقول هذا، فماذا يقول كامل الكردي؟ أخرج الرجل المهان من جيبه مئة ليرة، ووضعها فوق الخمس ليرات.

كيف يمكن للقادمين الخمسة الجدد معرفة أن الذي وضع مئة ليرة أولاً، ثم الذي وضع خمس ليرات، وأهين، ووضع مئة ليرة فوقهما من رجال كامل الكردي، وهما من المسجونين القدماء. وبهذا العرض يعلم القادمون الجدد أنه لايمكن دفع أقل من مئة ليرة هنا من أجل شاي بخلاصك.

وقف صبي الصفعة عند أول جالس من الخمسة الجدد. مدّ أمامه الصينية ذات العلّاقة، وقال:

ـ بخلاصك إن شاء الله.

كان هذا الرجل غنياً. إذا كان الخلاص هنا بالنقود فهذا سهل. وضع قطعتين من فئة مئة ليرة على صحن الكأس ثم وضعه مع الكأس الفارغة في الصينية. قال صبي الصفعة:

ـ تسلم ياسيدي.

أخذ صبي الصفعة من كل شخص مئة ليرة. جاء الدور على خيري الحلاق الذي كان في الأخير. وقف قدامه، ومد الصينية نحوه. رأى خيري الحلاق ماجرى، وسمع ماحُكي، وبدأ يتصبب بعرق الموت. لايوجد في جيبه سوى خمسين ليرة فقط. وهذه دسَّتها أمه في يده بعد أن جلبوه من مديرية الأمن إلى المدعي العام في العدلية وأصدر قرار حبسه، أثناء وضعه في قسم تحت الباب، وكانت عيناه تدمعان كنبعين وهما تقعان على أمه للمرة الأخيرة. لم يكن لديه غير هذه الخمسين ليرة.

انتصب أمامه صبي الصفعة قائلاً له للمرة الثانية:

ـ بخلاصك إن شاء الله!

أصبح خيري مبللاً بالعرق. أخرج قطعة الخمسين ليرة الملفوفة جيداً من جيبه بيده المرتجفة، وتركها على الصينية التي يمسكها صبي الصفعة أمامه. ماذا لو وجد الخمسين ليرة قليلة، وقال له خذها، ادفعها أجرة حمام؟ ماذا لو صفعه؟!... سيتوسل إليه عندئذ، ويقول له إنه لايملك نقوداً غيرها.

كان كامل الكردي يراقبه بطرف عينه، فدفع قفا يده نحو خيري الحلاق، وكأنه يتبرع له بمزارع، قال:

ـ ماله لزوم.. اتركها معك!... ضعها في جيبك!... يلزمك مصروف... جريمتك كبيرة.

تحدث كامل الكردي هذه المرة دون قرقعة، أو ضجيج، أو عواء، أو نباح، تحدث بصوت يشبه صوت الإنسان. تردد خيري الحلاق. لم يعرف ماذا سيفعل، فقال صبي الصفعة مشجعاً:

ـ آغانا قال خذها. خذها وضعها في جيبك!

أخذ خيري الحلاق الخمسين ليرة خجلاً.

خيّم الصمت على المحكومين القدامى في المهجع. ضحكوا بأعينهم فقط، ولكن بقذارة لأنهم يعرفون ماذا يعني إرجاع الخمسين ليرة لخيري الحلاق. هذا يعني أن خيري الحلاق سيدخل بين صبيان كامل الكردي العاديين. ولكن الشاب الفرخ المدعو خيري الحلاق ارتكب جريمة حكمها الإعدام. طلب المدعي العام إعدامه. واستخدام من يقبع تحت حكم الإعدام بهذا الشكل مناف لتقاليد السجن. انتظر، لنر ماذا سيعرض لنا الزمن.

جاء الدور لسؤال القادمين الجدد عن سبب حبسهم. سأل كامل الكردي الجالسَ في البداية:

ـ ماهو عملك؟

أجاب من توجه إليه السؤال:

ـ أمين صندوق.

ردّ بقسوة:

ـ ولاه... أنا لاأسألك عن هذا. لماذا وقعت هنا؟

قال:

ـ للاشيء.

قطب كامل الكردي قسمات وجهه كأنه قرف من شيء. سأل الآخرين وكلهم قالوا إنهم لم يرتكبوا ذنباً، ووقعوا ضحية الافتراء. عندها قال كامل الكردي:

ـ ولاه.. جمعوكم من الجامع وجاؤوا بكم إلى هنا..

بدأ المحكومون القدماء بالقهقهة لأنه صدر أمر بالضحك.

سأل كامل الكردي خيري الحلاق في النهاية:

- وأنت؟

توقفت القهقهات وكأنها شيء يُقطع بالسكين.

انحشرت عقدة في حنجرة خيري الحلاق. اغرورقت عيناه، بكى، أو كاد يبكي. عندما لم يتلق كامل الكردي جواباً قال:

- أنت خيري الحلاق الذي حكوا عنه؟

فور سماع اسم خيري الحلاق، قال:

- نعم.

مد كامل الكردي يده اليسرى نحوه، وقال:

- بسلامتك ياسبعي. يقع للشهم كل شيء. تعال إلى هنا، تعال اقعد على فرشتي.

جاء خيري الحلاق إلى حيث أشار كامل الكردي وهو يرتجف ارتجافاً شديداً وجلس خامداً على الفراء الممدود فوق السجادة.

يروي هذا الفصل كيف سقط خيري الحلاق
في طريق السوء دون إرادته

في الفسحة التي ينفتح عليها باب القسم الثاني للسجن، والمغطاة بالمرمر، يجلس المحكومون المحترمون على كراسٍ، والآخرون على درجات السلم. مقابلهم تماماً عند أسفل الجدار يجلس في الظل خمسة محكومين يتبادلون الحديث. وكل من هؤلاء المحكومين الخمسة يفوق الآخرين سفالة وتفسخاً ووحشية. أحدهم في السبعين من عمره، هو في السجن منذ ست سنوات، يلقبونه هنا بأبي إصبع. مزق غشاء البكارة لابنة جاره وهي في الخامسة من عمرها بإصبعه، ولكي لايُسمع بكاؤها، ولخوفه، خنق البنت.

الآخر يعدّ غنياً في محيطه الفقير لأنه يمتلك بيتاً قديماً، وراتباً تقاعدياً، لهذا زُوّج بفتاة تصغره أربعين سنة. الفتاة جميلة جداً، وبريئة جداً، لم تفتح عينيها على الحياة. ولأنه ليس للزوج العجوز قوة ذكورية تمكنه من الإيفاء بالواجب الزوجي، راح يمارس الجنس مع زوجته الشابة عندما يدخل الفراش ليلاً بواسطة أداة ذكورية صناعية مربوطة إلى وسطه دون أن تراها. كانت زوجته لاتعرف شيئاً، وليس لها أية تجربة جنسية فهي لاتدرك ما الذي يجب أن يحدث، وكيف... استمر الأمر على هذا النحو مدة سنة. في إحدى الليالي استخدم العجوز آلته الصناعية، ويبدو أنه بعد الممارسة سقط متعباً، ونام دون أن يفك أداته الصناعية من خصره ويخفيها. كان

يشخر مثل عجل يُذبح، فيُصدِر ضجيجاً يُسمع من أول الحارة، ومن جهة أخرى يبدو أنه يرى أحلاماً مخيفة فيتقلب إلى هذا الجانب، وذاك في الفراش، يصطدم بالمخدة واللحاف ويتكور، وفي هذه الأثناء فُكّ رباط آلته الذكورية الصناعية، وسقط في الفراش.

لم يداعب النوم عيني الفتاة بسبب شخير زوجها وتقلبه، وبينما كانت تتقلب إلى هذه الجهة وتلك اصطدمت يدها بجسم صلب فأمسكت به. وعلى الرغم من فهمها لما أمسكت، لكنها دهشت كثيراً. إذ كلما شدت ذلك الشيء الذي أمسكت به، كان يتمدّدُ ممطوطاً بيدها. حسب معرفتها حتى ذلك اليوم، يجب ألا يكون ذاك الشيء هكذا، أي يجب ألا يُمَطّ بيدها عندما تشدّه. عندما شدته أكثر، خرج خارج الفراش، فوق اللحاف، فرأت بيدها تلك الأداة التي بلون الكبد، والمصنوعة من الكاوتشوك. دهشت الفتاة المسكينة. اعتقدت أنها قطعت عضو الذكورة لزوجها العجوز، فصرخت صرخة رعب أيقظت زوجها الذي يشخر بجانبها، وأيقظت جيرانها. وحين رأى الزوج امرأته تنظر للأداة الصناعية بعينين جاحظتين، اعتقد أن زوجته اكتشفت سره الذي أخفاه عنها كل هذه الأشهر، فجنّ جنونه. ومعروف أن الرجال، خاصة الذين ضعفت قوتهم الجنسية، حسّاسون إزاء المواضيع التي تمسّ رجولتهم. وقد شوهد أن كثيراً من الرجال الغاضبين من مواجهتهم بضعفهم الجنسي، أو من سخر منهم لهذا الضعف، ضربوا زوجاتهم، حتى إن بعضهم قتلوهن. سيطر الخوف على الزوج العجوز من كشف زوجته التي تصغره بأربعين سنة لسرّه، ومن فَضْحِ هذا السر أمام الآخرين، ولعله تحت تأثير عدم صحوته التامة من النوم خطف سكيناً من الدرج، وقفز نحو المرأة الشابة التي مازالت تنظر إلى الآلة الذكورية الصناعية بعينين متجمدتين، وقد بح صوتها من الصراخ، وذبحها من رقبتها فاصلاً رأسها عن جسدها، وحينئذ بدأ جرس الباب يُقرع، ويُضرب عليه بالأكف والقبضات.

شعر الجيران الذين سمعوا صراخ المرأة الشابة بالفضول في هذه الساعة من الليل، إذ حتى طائر الليل ينام، واعتقدوا أن الرجل العجوز قد احتلم وجار على نفسه فمات، وعندما رأت امرأته الشابة جثة العجوز بين يديها صرخت من الخوف.

دهش الجيران كثيراً عندما فُتح الباب، ورأوا الزوج العجوز منتصباً أمامهم مثل عمود الكنيسة. سأل الزوج ببرودة أعصاب كبيرة جيرانه عما حدث، وعن سبب طرقهم بابه في هذه الساعة من الليل. وجد الجيران أن روح الزوج العجوز لم تسحب. قالوا إنهم سمعوا صراخاً، فجاؤوا للمساعدة. قال الزوج العجوز إن زوجته رأت كابوساً مزعجاً فصرخت وهي نائمة. وأغلق الباب بوجوههم فذهبوا إلى بيوتهم.

قبل كل شيء فرم العجوز زوجته الشابة التي فصلها إلى جزئين، رأساً وجسداً، ثم عبّأ القطع في كيس، بعد ذلك وضع الكيس في حقيبة كبيرة. وفي الصباح الباكر خرج من البيت حاملاً الحقيبة. عندما عاد في اليوم التالي قال إنه أرسل زوجته لزيارة أقربائها. في النهاية ظهرت جريمته وزُج في السجن، وقد لقب لهذا بالآلاتي.

واحد من الخمسة الجالسين عند أسفل الجدار محكوم شهير يدعى سليمان العامل لأمه. سليمان العامل لأمه هذا قروي، كان يعيش في بيت مع أمه قبل دخوله السجن. بيت صغير يتألف من غرفة وإسطبل. عندما كان صغيراً مات أبوه برصاص الجندرمة أثناء عمله بالتهريب. ترمّلت أمه وهي شابة. كان بين سليمان وأمه ثلاثة عشر عاماً تقريباً. هو في التاسعة عشرة، وأمه في الحادية والثلاثين(*). ربطت الأرملة مصيرها بابنها ورعته. هنالك شائعتان حول سبب ارتكاب سليمان لجريمته. وبعد الجريمة وأثناء المحاكمة لم تحدد الشائعة الصحيحة.

(*) على الرغم أن الفرق 12 سنة، هكذا وردت في النص الأصلي. المترجم.

حسب إحدى الحكايتين عزم سليمان ابن التاسعة عشرة من عمره على الزواج، لكن أمه لم تكن تريد تزويجه. لأنها عندما ستعطي حقلهما البالغة مساحته ثلاثة أو أربعة دونمات، ويؤمن عيشهما بصعوبة، (مئكالاً) لوالد العروس؛ ستبقى المرأة جائعة عريانة. ما الذي يجبر هذا الولد على الزواج؟ ضم امرأة إلى حضنه، وإطفاء حرارته؟ إذا كان الأمر هكذا، فعلى الأم إيجاد الطريقة الأسهل لربط لسان ابنها الذي لايبرح يقول: «زوجيني ياأمي».. في صباح أحد أيام الصيف الباكر وضع الولد اللحاف والمخدة بين فخذيه، وبدأ يحلم ويهز نفسه. كان اللحاف والفراش مهترئين، ولكي تلحق أمه به انهارت عارية، واندست في حضن ولدها. بدا الولد أقرب إلى النوم من الاستيقاظ، وعندما صار أقرب إلى الاستيقاظ كان قد ارتاح. استمر هذا الأمر في الليلة التالية، والتي تلتها. عند الصباح يتجاهل الاثنان ماجرى ليلاً في الغرفة التي لانوافذ لها. لم يكن للمرأة هدف سوى إنقاذ الحقل البالغة مساحته ثلاثة دونمات. أصبح سليمان لايأتي على ذكر مسألة الزواج. بعض الشهود قالوا هذا في المحكمة، أما بعضهم الآخر فقال عكس ذلك. كانت الأم شابة في الحادية والثلاثين من عمرها، مفعمة بالحياة. اشتهت رجلاً لأن الترمّل ضايقها كثيراً. لهذا السبب عزمت على الزواج. وإذا تزوجت فإن الرجل الذي سيأتي إلى البيت سيضع يده على الحقل الذي تركه والد سليمان. ولعل الرجل الذي سيأتي إلى البيت يطرد سليمان. فكر سليمان بما يدفع هذه المرأة التي هي أمه إلى هذا؟ هل هي رغبتها في إطفاء حرارتها؟ حسناً إذن.. كانت ليلة صيفية حارة، وكان صدر أمه وبطنها وفخذاها ومؤخرتها مكشوفة، وهي تتقلب في الفراش. استفاد سليمان من سكرة النوم، و.... استمر هذا الأمر كل ليلة، ولم تعد أمه تذكر الزواج. وأنقذ سليمان الأرض الكلسية التي تطعمهما بصعوبة من سلب الآخرين لها.

لم تُحدد القصة الصحيحة بين القصتين. أيهما صحيحة غير

مهم. فمن أجل إنقاذ ثلاثة دونمات أرض ارتكبا جريمة الملك أوديب، وحملت الأم الشابة. كانت الأم على وشك وضع مولودها. خنق سليمان أمه بيديه لكي يُسقط الجنين، دليل الجريمة. وحين قبضت عليه الجندرمة، قال: «اضطررت أن أقتل أمي لغسل عاري. لقد ارتكبتْ أمي خطيئة، وحملت بابن حرام لايُعرف أبوه» ولكن عندما شهد الشهود أن هذه الجريمة ارتُكبت من أجل حقل كلسي مساحته عدة دونمات أدخل سليمان السجن، وبعد دخوله قال من خجله: «لم تكن تلك المرأة أمي الحقيقية، إنها زوجة أبي» ولكن اسمه في السجن أصبح سليمان العامل لأمه.

جريمة الشخص الرابع بين متبادلي الحديث في ظل الجدار، هي من الجرائم المنتشرة كثيراً. في البداية عاش مع أخته الشقيقة لسنوات طويلة كأنها زوجته، وفي النهاية عندما هربت أخته منقذة نفسها، أجبر ابنته هذه المرة، وخوَّفها، فجعلها مكان زوجته.

والآخر من هؤلاء الخمسة مهووس بلبس البزات العسكرية، وتعليق كل أنواع الميداليات والأوسمة حتى لو كانت من الصفيح على صدره، وبتعليق مايشبه الأوسمة من أغطية زجاجات الكازوز، واللوحات، والخرز أيضاً، لذلك ينادى الماريشال ديفيد وهو حبّاب موتى. إنه شاذ يخرج الموتى من قبورهم، ويمارس الجنس معهم، لهذا السبب كان يراقب المقابر. لايهتم الماريشال ديفيد حبّاب الموتى إذا كان الميت الذي سيخرجه من القبر ذكراً أم أنثى. حادثته الأخيرة هي أنه أخرج في إحدى الليالي ميتاً في تابوته، وحمله على كتفه، وأثناء إدخاله إلى فتحة تشبه المغارة في السور قبض الحارس على الماريشال ديفيد، واقتاده إلى المخفر. وأثناء تحقيق الشرطة معه قال إن جثة أمه في التابوت الذي كان يحمله، ولأنه مقطوع من شجرة، وفقير، ولكي يوفر مصروف مراسم الجنازة وضعها في التابوت، وأراد أن يدفنها بنفسه. ولكن عندما فتحوا التابوت لم يجدوا جثة امرأة، بل وجدوا جثة شاب، عندئذ فُهم أنه

الماريشال ديفيد حبّاب الموتى ذو السوابق الذي لاينظر فيما إذا كان الميت رجلاً أم امرأة. ألقي ديفيد في السجن، وقريباً سينقل إلى مشفى الأمراض العقلية.

في مدخل القسم الثاني من السجن يجلس المحكومون المحترمون يتبادلون الحديث، ومقابلهم أسفل الجدار، في الظل هؤلاء المحكومون الخمسة يتبادلون الحديث في جو مختلف، منهم من جلس القرفصاء، ومنهم من تمدد.

أحد اللذين يمشيان على طول ظل الجدار عمل صبي صفعة في زمن مضى عند راضع الحليب الفاسد، السافل المدعو كامل الكردي، فيما بعد أخذ مكانه صبي جديد، وعندما بدأ يعمل في حانة الغسيل بأمر كامل الكردي أيضاً، وجد طريقة لكسب بعض النقود، وهكذا أنقذ نفسه. إذا لم يكن خلاص من يسقط في هذا الطريق مستحيلاً فهو صعب إلى حدود المستحيل. وإذا ظهر وبر لهؤلاء الصبيان، وأشعروا، وصاروا شباباً وارتكبوا جريمة قتل في السجن، خاصة إذا ضربوا أحد الآغوات المشاهير، أو القبضايات، أو طعنوه بسكين أو سيخ، فجأة يُحترمون، ويُقدّرون ويشتهرون، ولايمكن لهم إغلاق ماضيهم المخجل، أي إسدال ستارة على قذاراتهم إلا بهذه الطريقة. وحتى لو كان ماضيهم القذر معروفاً، فإن الخوف من البلايا الحاملة للسكاكين يجعل الجميع يتجاهلون هذا الماضي. وللتستر على إكراه الشاذين جنسياً، ترتكب جرائم قتل، ويعاقبون بالحبس الانفرادي، ويفعلون للأولاد الآخرين ماكان يُفعل بهم في زمن ما. يفعلون ماكان يفعل بهم بزيادة ألف مرة ودون أدنى شعور بالرحمة، قائلين إنها دنيا، وإنه عالم سافل، وقلوبهم تشتعل بنار الانتقام من عدو لاأحد يعرفه، أو يعرف ماهيته.

كامل الكردي وحش بشكل إنسان، دخل السجن وهو في الخامسة عشرة من عمره، قضى أربعاً وعشرين سنة من حياته في السجن لفترات متقطعة. وقد كان في الخامسة عشرة من عمره عندما

استخدمه آغوات السجن في ذلك الزمان صبياً فرخاً، وحموه، وأطعموه، وسقوه، وملؤوا قلبه بآلام لاتهدأ، وبحقد لاينقص. في النهاية جف نبع دموعه، وظهر وحشاً لارحمة في قلبه.

أمام باب باحة السجن المؤدي إلى الإدارة، يجلس على الكراسي ثلاثة محكومين متوسطي السن، هندامهم حسن، ويتحدثون فيما بينهم. أحدهم يضع نظارة، وحتى في السجن يضع ربطة عنق كل يوم. لايظهر دون كتاب في يده، أو تحت مقعده. وحسب مافَهم المحكومون والموقوفون من حديثه، فهو يعرف الكثير، وحتى المحامون لايعرفون مايعرف، سيعمل أموراً ما ويتخلص من السجن. الآن في يده كتاب أيضاً، وأحياناً يقرأ بعض السطور منه لمن بجانبه. يبدو أن جرمه اختلاس، أو ذمة نقدية أو سوء استعمال السلطة، أي مثل جرائم الأكابر، ولا أحد يعرف جرمه بشكل أكيد. إنه على درجة من المعرفة فحتى مدير السجن يناديه بِ ياسيد. ومهما يكن الموضوع المطروح للنقاش، فإن السيد ذا النظارة يتحدث بكلمات عميقة جداً. والآن اجتمعوا حوله كي يشرح حقوق الإنسان للذين ينظرون إلى فمه منتظرين ما سيتفضل به. فتح الكتاب الذي بين يديه حول هذا الموضوع، وقرأ السطور التي كان أشار إليها مسبقاً:

«بتاريخ 10 كانون الأول 1948 صوتت تركيا إيجاباً لإعلان حقوق الإنسان العالمي الذي قبلته الهيئة العامة للأمم المتحدة بالإجماع. وصادق مجلس الوزراء على هذا الإعلان في 6 نيسان 1949 بموجب القرار رقم 3/9119».

وضع السيد ذو النظارة إصبعه عند المكان الذي قرأ منه. وبينما كان يشرح لمن حوله قائلاً: «هذا يعني أننا، أي حكومتنا، وقعنا على إعلان حقوق الإنسان» فجأة دبّت حركة بين المساجين، وبدأت الهمسات تجول. خرج كامل الكردي وخلفه خيري الحلاق إلى الفسحة المرمرية أمام القسم الثاني. ملقاة على ظهره سترة

كحلية غامقة من قماش سميك، لم يلبس كميها. لم يلبسهما لأنه سيفتح هذه السترة كجناح النسر ليستخدمها كدرع إذا هاجمه أحد الخصوم وقفز نحوه بسكين أو سيخ. كُمّا بنطاله الكحلي الغامق المصنوع من قماش سميك، ضيقان، ومُنسدلان فوق كعبيه العاليين. كأن قدميه قدما ديك مرفوعتين على مهمازيهما وهو يتحفز للقفز على دجاجة. ووسط ألبسته الكحلية يتوهج لون الحزام الأحمر المرفوع حتى صدره. بجانبه خيري الحلاق، وخلفه حَمَلة متاعه. عندما ظهر كامل الكردي نهض الذين في الفسحة احتراماً، ودعوه للجلوس.

رأى الشابان الماشيان رواحاً ومجيئاً في ظل الجدار كاملَ الكردي وخيري الحلاق، فجرى بينهما الحديث التالي:

ـ صاحبنا مَشّط شعره. عندما جاء الغبي كانت حالته بالويل. انظر إليه الآن وقد لبس وتهندم، إنه بذرة وزنها درهمان...

تناسى الآخر نهائياً أنه كان في يوم ما أحد الصبيان الذين يحميهم كامل الكردي، وقال:

ـ إيه.. هكذا يصير من يدخل تحت جناح كامل الكردي.

ـ يقول المثل: «صحنك بقد الكف، ماعرفت تستعمله..» هذا هو الحساب. بعد ذلك تابعا حديثهما بلهجة السجن المتميزة، المزينة بكلمات خاصة مركبة:

ـ طعام سيدي يحضر من المطعم.. مثل الفل.

ـ ليس بالمجان أبا الشباب.. حدا بيعمل لحدا بالمجان.. فهمت؟.. قال الأولون لاتنزل تحت حمل لاتستطيع حمله!... أليس كذلك أبا الشباب؟

ـ ماقولك، هل انتهى أمره؟

ـ لا، انتظر..

ـ ياهوه.. مضى على مجيء خيري شهران.. أينتظر كامل الكردي كل هذا الوقت؟

ـ هذا خيري الحلاق، صبي مثل سمك الميناء، لايقرب الصنارة، ويعملها على الإبرة.. ولد فتح..

ـ واخ منه، واخ..

ـ لهذا الأمر طريق سهل يا أخي.. إذا ماصار.. يعوّده أولاً على الحشيشة وإذا ماصار، يعوده على الهيروييين.. عندها تصير الأمور على مايشتهي. ماذا قال الأولون؟ قالوا: «إذا قطع منه النصيب يُنهش من تسعة أطراف».

وبشعور الهوان، والألم، كونه في أحد الأيام انحنى لشذوذ كامل الكردي الجنسي، يستهين الآن بخيري الحلاق، ويتهمه مهوّناً على نفسه:

ـ بإذن الله..

توقف الشابان الذان يتمشيان عن الحديث في هذا المنحى، وبدأ الخمسة المقرفص بعضهم، والمتمدد بعضهم الآخر في ظل الجدار بالحديث حول خيري الحلاق. جعّد العجوز الآلاتي الذي فرم زوجته الشابة بالساطور وجهه مبدياً القرف، وبصق على الأرض، ثم قال:

ـ تفو..ماهذه السفالة واللاشرف؟.. وهل يُغتصب طفل بريء في السادسة من عمره؟.. ليخجل من ربه..

قال المحكوم الذي خوّف أخته، وبعدها ابنته، واستعملهما كالزوجة:

ـ يجب إعدام أمثال هذا دون رأفة.. ولاه، ماذا تريد من طفل عمره ست سنوات؟

وأفرغ سليمان العامل لأمه حنقه قائلاً:

ـ عملت ماأردت عمله، لاتخنق الطفل يا عديم الدين والإيمان، يامن لا كتاب لك ولادين.

قال المحكوم العجوز الذي مزّق بكارة طفلة في الخامسة من عمرها، ثم خنقها:

ـ لا ينبغي أن يُعدم أمثال هؤلاء مرة واحدة بل يجب إعدامهم عشر مرات..

ثم تذكر جريمته فجأة، فقال محتداً:

ـ إذا كنت أنا قد فعلتها فمع فتاة! ولكن هل تعمل هذه العملة مع ولد في السادسة من عمره؟

قال الماريشال ديفيد حبّاب الموتى:

ـ لايُعدم أمثال هذا شنقاً، يجب خوزقتهم!

ـ نعم، أنا مذنب، ولكنني لاأقتل بعد أن أستمتع، كيفما كان أنا أعمل عملتي مع الموتى. الرجل ميت، لاذنب له لأنه لايشعر..

كان مجرمو السجن كافة، الأشد قسوة والأكثر انحلالاً وسفالة، بطعنهم لخيري الحلاق يسلّون أنفسهم. يفرغون دواخلهم، ويرتاحون. وبقفزهم فوق جرائمهم، والهجوم على خيري الحلاق بدوا كأنهم يبرئون أنفسهم.

قال أبو الإصبع:

ـ هل تعمل هذه العملة مع ولد في السادسة من عمره؟ أنا على الأقل عملتها مع فتاة...

وقال مجرم سرق أموال الدولة:

ـ نعم، أنا مذنب، ولكن على الأقل أنا نهبت الدولة، هل يفعل هذا مع ابن ست سنوات؟

قال سليمان العامل لأمه:

ـ أمثال هذا يجب فرمهم قطعاً قطعاً، وإلقاء كل قطعة لكلب مسعور..

كل من يسمع بجريمة خيري الحلاق يقترح له عقوبة مشددة لم يُسمع بها من قبل، وبهذا يسلّون أنفسهم ويبرئونها. كلما أمعنوا بإدانته، وتجريمه، يرفعون من منزلة أنفسهم بأنظارهم. ولكي يُسكتوا ضمائرهم يجدون حجة: «أنا لست مثله، أنا على الأقل..» مفرغين دواخلهم، ومريحين أنفسهم.

عاد الذين أوجدوا حجّة: «نعم أنا مذنب، ولكنني على الأقل..»، المُغلقة لأفواه ضمائرهم، عادوا إلى خيري الحلاق، وكأن إعدام خيري الحلاق سيزيل الجرائم كافة عن وجه الأرض، ويخلصهم من جرائمهم كلها.

في طرفي الفسحة هنالك حارسان ينفخان في صفارتيهما بشكل متكرر، متجهان نحو الأقسام. حلَّ المساء، وسيذهب المحكومون، والموقوفون إلى مهاجعهم، ويؤخذ التفقد، وتُغلق عليهم الأبواب الحديدية. توجه الذين في الساحة نحو الأقسام، وبدؤوا يدخلون المهاجع. إنه بداية الزمن الأصعب في اليوم. لولا ساعات المساء لما كان السجن على هذه الدرجة من الصعوبة. في ساعات المساء هذه فجأة تغرورق عيون المحكومين بالدموع، وكأن ألماً ينغرس في أمكنة لايستطيعون تحديدها من أجسامهم، وحتى أكثرهم تحملاً ينفعلون، ويغدون أطفالاً. أكثر مايخطر ببال المساجين في ذلك الوقت الانفراد، وتفريغ مابداخلهم، أو الصياح مرددين الأغاني الشعبية، أو كتابة الشعر. وخاصة حاجة تفريغ الداخل. السجن في هذه الساعات يشبه مكان الاعتراف في الكنيسة للتكفير عن الذنب. هذه قاعدة العيش في السجن. يكتوي المساجين في هذه الساعات من المساء انفعالاً، ويبحثون عن صديق يُفضون له بهمومهم، ويعتقدون أن الأقرب إليهم هو الصديق، لأنهم يحتاجون

إلى هذا. أعمق أسرارهم، وأشد جرائمهم، ومالم يحكوه للشرطة، والنيابة، والقاضي، وحتى لمحاميهم ولا لأي أحد، يبذلون كل مابوسعهم ليحكوه هنا في هذه الساعات.

مضى شهران على وقوع خيري الحلاق في السجن. في ساعات المساء هذه كان يريد أن يفضي لأحد ما عما جرى معه في تلك الحادثة القبيحة، والمخجلة، والتي يتمنى أن تنشقّ الأرض وتبلعه كلما تذكرها. ولكن لمن يمكن له أن يُفضي؟ ليس له أي مقرَّب واحد... إنه يدرك مايريده منه كامل الكردي. ولأنه لايستطيع عمل شيء للتخلص من هذا الأمر، فهو عندما يدخل فراشه كل ليلة يسحب اللحاف فوق وجهه ويبكي. أما كامل الكردي فلم يكن ملحاحاً على هذا الأمر. وعلى الرغم من تظاهره بأنه يترك الأمر ليحدث تلقائياً، إلا أنه ينتظر نضوجه.

خفق قلب خيري الحلاق للرجل الكهل الذي أبدى قرباً له منذ مجيئه إلى السجن، وقبل ذلك لم يتوان عن تقديم المساعدة عندما كان (تحت الباب). لم يعرف بعد أنه يداهن إدارة السجن من جهة، وكامل الكردي من جهة أخرى، أي أنه مزدوج، وكلف بمهمة مساعد حارس لأنه مخبر، ويجب ألا يثق به أحد في السجن. هو الذي نقل خبر دخول خيري الحلاق السجن فور رؤيته، إلى كامل الكردي، وكان وسيطاً لإدخاله إلى مهجعه. والرقة في تصرفاته، والاعتدال في مظهره، والحلاوة في كلامه، والابتسامة في وجهه من ضرورات عمله مخبراً، مزدوجاً.

كان خيري الحلاق في ذلك المساء حزيناً، إلى حد أنه أفرغ كل مابداخله أثناء حديثه إلى ذلك الرجل. ماحكاه له أسرار لم يبح بها لأحد، ولم يقلها حتى لأمه، ولم يذكرها للشرطة، أو النيابة العامة، أو القاضي. الجميع يعرف أنه اعتدى على عرض طفل في السادسة من عمره، ثم خنقه. نعم عمل هذا. ولكن لماذا قام بذلك؟ لم يكن شاذاً

جنسياً أو منحلاً. إنه شاب بحاله، يريد رعاية أمه، والانفاق على بيته. هنالك شخص ذو سوابق وبلاء، وسافل في الحي رمى نفسه على خيري الحلاق. في البداية تصرف معه مثل أخ كبير. اقترح عليه نزهات، وجلسات شرب.. بينما الأمور على هذا النحو...

بدأ خيري الحلاق بالبكاء وهو يحكي.

ذلك الرجل صفراوي، وأزرق العينين. سجين قديم. دخل إلى السجن وخرج عدة مرات. يدخن الحشيشة. في أثناء المشروب ألح عليه كثيراً، وقال: «ألست شاباً؟» وجعله يدخن الحشيشة. لم يفهم خيري نية ذلك الرجل القذرة. مساء أحد الأيام، بعد أن أغلق دكان الحلاقة، وهما يشربان في الداخل، أسند سكيناً إلى صدره وأفصح عن طلبه المقرف، واغتصبه. عندما مانع خيري المندهش مما تعرض له، غرز الرجل سكينه في صدره. وهكذا صار ماصار، وماوقع على رأس خيري، هكذا وقع. لو جرى هذا الأمر مرة واحدة لهضمها خيري، وعمل على نسيانها. ولكن ذلك السعران صار يغتصب خيري كلما صادفه وحده، حتى إنه في بعض الأحيان يحصل على طلبه القذر ذاك بعد ضربه، فقد بدأ باستخدام خيري مثل امرأته. كان خيري يبكي، مقهوراً، ولكنه لم يتخلص من مخالب ذلك السعران بأي شكل. إذا حاول رفض طلبه، كان يخيفه ويرعبه بإعلام جميع أهل الحي عن كل شيء. فكّر خيري بالخروج من ذلك الحي، والهرب. كانت أمه تخدم الناس واقترضا من أجل دكان الحلاقة، ولم يستطيعا دفع تلك الديون بعد. لو أخبر أحدهم بما جرى، أو ذهب إلى المخفر واشتكى، سيعلم الجميع. استصعب هذا كثيراً. وهو ولد لا أحد له في المنطقة. خلاصه الوحيد التوسل لهذا الرجل القاسي، والبكاء مع التوسل. ولكنه لم يستطع تليين قلب ذلك الرجل المتحجر. لقد احتقر نفسه أمام نفسه، واستهان بها، واستهتر... ماذا يمكنه أن يفعل؟ كان يحترق من الداخل بحطب الحقد. في

النهاية وجد طريقاً مناسباً للانتقام. الرجل متزوج، وله ولد في السادسة من عمره. مايعمله ذلك القاسي له، يمكن أن يعمله لابنه. وهكذا بذر بذرة تلك الجريمة. خطط لنيّته سراً. مساء أحد الأيام أدخل الولد إلى الدكان وأغلقه باكراً. لم يستطع عمل ماأراد، لأنه لايحمل رغبة جنسية كهذه. ومن خجله، وبسبب أحاسيس ومشاعر لايمكن شرحها، كما لايمكن للكلمات أن تعبر عنها، لم يستطع عمل ماأراد. ولكنه حاول. كان الولد يبكي، ويتخبط. حاول كثيراً إسكات الولد، لكنه لم ينجح. سيحكي الولد كل شيء لأبيه، ويأتي أبوه، ويفرم خيري فرماً. خيري وقد سيطر عليه رعب فظيع راح يبكي مع الولد، ويتوسل إليه ليسكت. أعطاه نقوداً، ولكن الولد زاد من صراخه. كان خيري نادماً إلى أقصى حد من محاولته الفاشلة هذه مع الولد. دخل حالة من الذعر، والتخبط. تهيأ له أن أهل الحي سيسمعون صراخ الولد، ويجتمعون أمام الدكان، فعصر رقبته بيديه فجأة، وأسكته بحيث لايبكي أبداً. أخافه كثيراً سكوت الولد.

هذا هو مبرر عدم التصريح بالسبب الحقيقي، أي الانتقام من الأب، لقتله الولد في تحقيق الشرطة، والنيابة العامة، وفي جلسات المحكمة. إنه لايريد نشر خبر مافعله أبو الولد معه. لن يحكي هذا لو مات. ليعدموه إن شاؤوا، لكن لن يعرفوا أنه اضطر للرضوخ لمطالب شاذ... قال للرجل إنه أراد اغتصاب الولد، وعندما صرخ خنقه من خوفه.

في الظلال الأولى لبداية المساء بشكل خاص ينزل على الإنسان في السجن حزن ثقيل وهذا شعور لايمكن وصفه. يظن الإنسان حتى قضبان السجن صديقة له، وهو الوقت الذي يتحرق فيه القلب لإفراغ مابداخله من أسرار لم يبح بها لأحد. عندما كان خيري الحلاق يبوح بأسراره هذه التي لم يفضِ بها حتى تلك اللحظة لأي إنسان، راحت الدموع تتدفق من عينيه. قال هذا ملقياً ما في داخله إلى الخارج،

وأراح نفسه. أصبح هناك شخص واحد على الأقل في هذا العالم يعرف أن قلبه ليس سيئاً، وكيف ضاقت عليه الأمور، وسقط في الوحل القذر. حتى إنه أحسّ بشعور يشبه السعادة.

بعد أن عرف المخبر المتظاهر بالصداقة ما عرف، في تلك الساعات التي تدفع الإنسان إلى الاعتراف تكفيراً عن الذنب، والتي دفعت خيري الحلاق لإفراغ مابداخله، ألقى بنفسه إلى كامل الكردي، وحكى له بالتفصيل عما أفضى به خيري الحلاق. استمع كامل الكردي للمخبر، وعيناه السوداوان كسواد ظهر الصرصار تغزلان، وبدأ يفتل شاربيه هامراً.

كالعادة، تناول خيري الحلاق طعام العشاء على مائدة كامل الكردي. كان وجه كامل الكردي عابساً أكثر من أي وقت. بعد الأكل لفَّ كامل الكردي سيجارة حشيش وأشعلها. وبعد أن سحب نفساً عميقاً من السيجارة التي بثخانة المحشية، مدّها نحو خيري. خيري لايدخن، وقبل أن يكمل جملته التي عبّر فيها عن عدم استطاعته تدخين الحشيشة، صفعه كامل الكردي على خديه بيمناه، ويسراه رغم أنه كان يتصرف معه حتى ذلك اليوم بتقدير جيد. تدحرج خيري بعد الصفعتين على الأرض... أمسكه كامل الكردي من زيقه، وأنهضه على قدميه، وجره إلى آخر الممر المظلم. وسمع من ذلك المكان همس كامل الكردي، وشهقات خيري باكياً. بعد ذلك بدأ يصدح في الممر صوت كامل الكردي:

ـ ولاه كلب.. له، نعم.. أما لنا، فلا؟.. تعملها مع الكل، وعندما نطلب نحن تقول اكتفينا والحمد لله.. ولاه!.. ولاه.. أنت؟.. ولمن؟.. لابن صديق الروح، رفيق السجن لسنوات طويلة؟

بعد ذلك شمع صوت الصفعات، وتوسل خيري.

يروي هذا الفصل كيف أصبح خيري الحلاق
شهمًا، وضرب رجلاً، وألقي في زنزانة

كانت الأيام والشهور تمر. طرأ تغيير كبير على خيري الحلاق. إنه يتغير من يوم إلى يوم. لم يبق شيء من ذاك الخوف والخجل الذي أحسّه في الأيام الأولى لسجنه. أصبح شاباً حيوياً وناضجاً، وصار يمشي نافخاً صدره، متمايلاً، وعلى رؤوس أصابعه، ويمشي إلى جنب مثل السرطانات. في أثناء المشي يحدث صوتاً بكعبي حذائه (اليمني) العاليين، المكسوري المؤخرة. يهز أحد كتفيه إلى الأمام والآخر إلى الخلف كأنه يتذبذب حول محور. لايجارى بتباهيه بنفسه، ولايمكن التمييز إن كان الهواء منه، أو هو من الهواء. لايمكن تقييم شهامته، كما غدا له هندام ونفخة، ولكن أية نفخة! صار صاحب سطوة حتى أنه يمشي مموّجاً كتفيه، داحماً المارين بجانبه دون سبب، ويتنحنح بعنترية كأنه يتحدى الجميع.

قال أحد الذين عبروا من تحت يد كامل الكردي لمن بجواره عن خيري الحلاق:

ـ ياأخوان، أقول لكم هذا الأمر انتهى..

عندما سئل:

ـ كيف عرفت؟

لم يستطع قول: «مرَّ على رأسنا، فنحن نعرف بالتأكيد» فقال:

ـ من فتوته، وتبختره كالديك.

ولخوفه من سماع أحد له، ولأنه لايستطيع صبراً دون قول هذا، انحنى مقترباً ممن بجواره، هامساً:

ـ عندما أسند مؤخرته على كامل الكردي، جاءت للصبي الرجولة.

نظر سجين قديم عجوز إلى تطنيب خيري الحلاق، ولعل ذكريات قديمة مخجلة لايريد تذكرها خطرت بباله، وهز رأسه وهو يقول متأوهاً:

ـ إيه يا دنيا، فارغة مثل قعر القطرميز. إيه..

منذ أن تسلم خيري الحلاق القيام بحمل أغراض كامل الكردي، أصبح يتناول الرذيلة بإمعان. كلما سلبت رجولته أكثر، يحرص على التظاهر برجولة أكثر، وليس هنالك رجل يستطيع أن يجاريه مباهاة بالرجولة التي يتظاهر بها. أصبح يمثل العنترية على الأصغر منه، ويهمر على الأضعف منه.

بدأ المحكومون، والموقوفون الذين يجرّمون خيري الحلاق بشدة في أولى أيام دخوله السجن، بالعمل على تناسي جرائمهم، وتسلية أنفسهم بتجريح شخصيته الجديدة، يغتاظون وبشكل خاص من هذا الولد الممعوص، والمهبول لعناده وعنتريته اعتماداً على كامل الكردي.

أمام جامع السجن المطل بابه على الساحة يجلس الأشخاص المحترمون من مهجع السادة يشربون الشاي، ويتبادلون الحديث. سألوا ذا النظارة الفهيم في كل المواضيع عن العبارة العربية البارزة على قطعة المرمر فوق باب الجامع. ولأن ذا النظارة قرأها من قبل، قال دون أن يرفع رأسه وينظر إليها:

ـ مكتوب: «كل نفس ذائقة الموت» (وترجمها إلى التركية).

عندما سمع الأشخاص السبعة الجالسون هناك هذه العبارة، منهم من تنهّد، ومنهم من هز رأسه هزّاتٍ ذات إيحاء معين، ومنهم

من أخرج صوت جقجقة بلسانه وسقف حلقه، ومنهم من شعر بضرورة الصلاة وندم لأنه لم يصلّ حتى الآن. في هذه الأثناء مرّ خيري الحلاق مع شابين مثله وهما يتمشيان في باحة السجن أمامهم. كرر ذو النظارة لمن حوله، وعيناه على خيري الحلاق:

- نعم، قال تعالى: «كل نفس ذائقة الموت». سيتذوق الجميع طعم الموت، الجميع دون استثناء.

أحد الجالسين لم يرفع بصره عن خيري الحلاق، وقال:

- لو عرفوا.. آه لو عرفوا هذا لما غرقوا هكذا في مستنقعات الحرام كلها.

ولأنه لايستطيع البصاق في وجه خيري فقد بصق على الأرض.

عندما ابتعد خيري الحلاق وصديقاه، تجرؤوا أكثر، وتحدثوا في هذا الموضوع مباشرة. طلبوا من السيد ذي النظارة الفهمان في كل شيء إعطاءهم معلومات عن الشذوذ الجنسي. الموضوع الجنسي هو الموضوع الأكثر تناولاً في سجن الرجال الذي تفوح من حجارته وحديده، وحتى من هوائه رائحة الذكورة، وتفوح هذه الرائحة إما بفضول، أو تعرّف. قول: «تفووو، ياللرذالة» يكفي لطرح هذا الموضوع.. وهم ليسوا غرباء عن هذا الموضوع، فهم على علم به إما من خلال تجربة خاصة، أو من خلال قضايا شهدوها، أو سمعوا عنها، ولكن هنالك فائدة من التوغل في الموضوع.

قدم السيد ذو النظارة معلومات في موضوع الشذوذ الجنسي، من نوع جعل المستمعين يثقون مرة أخرى بأهمية المعرفة:

- أيها السادة، إذا كان هذا الأمر بالنسبة للبعض شذوذاً جنسياً، فهو بالنسبة لآخرين لايعتبر شذوذاً، بل يعتبر علاقة جنسية طبيعية. لننظر إلى الطبيعة ياسادة.. كيف تتم هذه الأمور في الطبيعة؟ لنأخذ مثلاً القطط. كما تعلمون فإن صغار القطط الذكور، ولكي تستحوذ على ذكوريتها....

وراح يشرح كيف يقيم القط الصغير علاقة جنسية تجريبية مع أكبر قط في المجموعة من أجل تحقيق ذكورته، وأنه شوهدت علاقة جنسية بين ذكور الفئران بعضهم مع بعض. كما حدث أن استُخدم الديك استخدام الدجاجة عند انقطاعه فترة طويلة عن العلاقة الجنسية.

كان الذين يستمعون إلى السيد ذي النظارة مندهشين إزاء معلوماته العميقة. تابع السيد ذو النظارة حديثه:

ـ كثير من أبطال التاريخ شاذون. امبراطور روما العظيم والمشهور جول سيزار شاذ من طرفين، ولهذا السبب قال عنه الشاعر الشهير أوفيد: «إنه زوج كل امرأة، وامرأة كل زوج». والديكتاتور الشهير نيرون كان يتزوج رسمياً الفتيان في سن الثامنة عشرة، حتى إنه خصى فتى مسكيناً يدعى سبوروس ليتزوجه. وعندما مات حشى جنوده جثته بالعشب من فتحة مؤخرته استهانة به. وكان حبّ الأولاد منتشراً في روما، إلى حدّ أن الأمهات كن يشترين لكل ولد من أولادهن الشباب عبداً فرخاً جميلاً لكي لاتزوغ عينه هنا وهناك. وكان الأولاد العبيد الذين يقومون بهذا العمل يلبسون الحرير، ويربّون شعورهم. وعندما يتزوج الشاب يقص شعر العبد الفرخ ويقدمه لزوجته ذكرى. (الكيباد) أحد قادة أثينا المشاهير شاذ جنسياً، وقد عوّده على الشذوذ الجنسي أستاذه الفيلسوف الشهير سقراط، كما فعل مع عدد من تلاميذه...

عندما قال أحد المستمعين له:

ـ واخ من عديم الناموس.

قال السيد ذو النظارة:

ـ إنه فيلسوف كبير جداً..

ثم تابع قائلاً:

ـ كان فريدريك الكبير ملك بروسيا رجلاً عظيماً، ولكنه شاذ. وهنالك الكثير...

قال أحدهم:

ـ إنك تعرفهم جميعاً ماشاء الله. من هنالك غيرهم؟ قل لنا كرمى لله، لنعرف قليلي الناموس هؤلاء...

ـ هنالك سقراط، وأفلاطون، وهذان فيلسوفان عظيمان... والملك هنري الثالث أيضاً حبّاب أولاد. وبسبب شذوذ الملك إدوارد الثاني قتلوه بإدخال قضيب حديد حام في مؤخرته.

عبّر أحدهم عن فكره قائلاً:

ـ ياناس يجب حرق هؤلاء جميعاً.

قال السيد ذو النظارة:

ـ كانوا يحرقونهم، ولكن حب الأولاد انتشر في انكلترا، حتى إن النبلاء الإنكليز كانوا يأخذون الأولاد على أنهم خدم. وعلى الرغم من حرق الشاذين وهم أحياء لم يتمكنوا من منع تعاطي الجنس مع الأولاد.

ـ من هنالك أيضاً؟

ـ هنالك الكثير جداً.. هل سمعتم بالشاعر المدعو شكسبير؟ هذا أيضاً كان حبّاب أولاد. هنالك أوسكار وايلد، وفاغنر، وسينسانس، وميكل أنجلو، وهؤلاء جميعاً فنانون عظام. وخاصة أن عشيق أوسكار وايلد الإيرلندي، هو صبي شاذ من أسرة نبيلة اسمه ألفرد دوغلاس. ولولا أن هذا الصبي من أسرة على هذه الدرجة من النبل، أي لو كان من العامة، لما كان هنالك أية مشكلة، ولما وقع أوسكار وايلد في المحاكم وعلى الألسن. وكان أوسكار وايلد يسمي الصبي الذي دربه على يده «بوسي». وكما عيواظ بالنسبة (لقره أوغلان)

عندنا في تركيا، كان بوسي بالنسبة لأوسكار وايلد.. لقد ظهر من هؤلاء الصبية الشاذين وحبّابيهم فنانون عظام. مثلاً هنالك فرنسي شهير اسمه جان جينيه، وهو مفعول به. وقد أقدم على السرقة، والقوادة. وعندما سقط في السجن لهذا السبب، كتب قصة حياته المقرفة بقلم رصاص على ورق التواليت، وأصدر هذه الذكريات في كتاب تحت عنوان: «الأم مريم ذات الزهور» وهذا ماشهر جان جينيه.

ـ الفنانون، وما الفنانون، إنهم غير مهمين، ولكنني أدهش لأولئك القادة.

ـ اسكندر العظيم قائد شهير، وهو شاذ أيضاً.

تحول مَنْ حوله من فروق رؤوسهم إلى أقدامهم آذاناً صاغية، يستمعون إليه باهتمام، قال أحدهم:

ـ تفو.. هؤلاء ينفثون ميكروبات الانحطاط الأخلاقي في المجتمع. شنق أمثال هؤلاء قليل، لأنه لابد أن تنفث جثثهم الميكروبات أيضاً. الأفضل أن يحرق هؤلاء حرقاً، ثم ينثر رمادهم، ودخانهم.

ـ قلت لكم إنهم كانوا يحرقون قديماً، كما كان يحرق من يقيم علاقة جنسية مع الحيوانات. وكانوا يحرقون الإنسان الشاذ والحيوان أيضاً.

قال أحد المستمعين:

ـ وعندنا أيضاً حرق حيوانات من هذا النوع تقليد، واخ، يالالأسف، في ذلك الزمان..

على الرغم من قطع كلامه فجأة، لكن الذين هناك فهموا ماسيقول.

قال السيد ذو النظارة:

- تحدث مولانا جلال الدين في ثنائياته الشهيرة عن علاقة جنسية بين امرأة وحمار.. ألحّ المستمعون بتوق شديد، قائلين: «كيف؟ كرمى لله كيف؟».

- جاء في ثنائيات الكاتب: «سحبت المرأة الحمار حتى وسط الاسطبل، ودخلت تحته. وعندما رأى تلك القحبة ممدّدة تحته لتحصل على ماتريد، جلس الحمار على ركبتيه، ثم رفع قائمته الخلفية، وغرز آلته. وبسرعة دخول آلة الحمار تفتت كبد المرأة، وماتت مع أول شهقة. هل رأيت شهيدة آلة حمار من قبل؟» عندنا لم يكن أمثال هؤلاء يحرقون، ولكن في إنكلترا يحرقون. وهذا ماجاء في الكتب. اسمعوا سأقرأ لكم.

فتح الكتاب الذي يمسكه على صفحة معينة، وبدأ يقرأ: «في القرن الثامن عشر كان كل من يقيم علاقة جنسية مع الحيوانات يُحرق مع الحيوان الذي يشاركه هذه الجريمة حسب قانون LEX CAROLINA.

- أتسألون عن معنى LEX CAROLINA؟ إنها تعني (قانون كارولينا). أما سؤال: من كارولينا؟ فهي امرأة تدعى ماتيلدا كارولينا، وهي أخت ملك بريطانيا جورج الثالث، وزوجة ملك الدانمارك. وعلى الرغم من أنها جنّنت ملك الدانمارك العظيم، وأصبحت ملكة من بعده، لكنها سلمت إدارة البلد كلها لصديق لها، لكن هذا أغلق عليها أبواب أحد القصور كما نحن هنا الآن. ولأنها امرأة نبيلة جداً، هربت إلى إنكلترا بسفينة إنكليزية. ولأن هذه المرأة الأصيلة النبيلة لاتتحمل الانحطاط الأخلاقي، أصدرت قانوناً للشذوذ الجنسي يقضي بحرق الإنسان الشاذ وشريكه في الجريمة، الحيوان، أحياء. والآن لنتابع القراءة من حيث توقفنا.

قرأ: «آخر حادثة معروفة في هذا الموضوع وقعت عام 1750 في مدينة فانفيرس، بسبب فعل اللواطة...»

قطع أحدهم كلام ذي النظارة، بعد ابتلاعه آخر جملة من الكلام السابق قائلاً: «هذا يعني أنه حتى الحمير في إنكلترا يعملون تلك العملة..».

قال آخر:

ـ الآن توضّح سبب توجه إنكلترا نحو التصنيع. هذا يعني أنهم لكثرة ما أحرقوا من حمير، أبادوا هذا الحيوان المسكين، وهذا ما اضطرهم لجعل الآلات تقوم بما كانت الحمير تقوم به...

أحدهم سأل عن معنى «فعل اللواطة». بعد أن شرح السيد ذو النظارة اللواطة بإسهاب شديد بأنها نسبة إلى قوم لوط الذين كانت تشيع فيهم عملية الجنس بين الذكر والذكر، واستمع إليه الآخرون بدهشة وإعجاب، عاد يقرأ من الكتاب: «آخر حادثة معروفة في هذا الموضوع وقعت عام 1750 في مدينة فانفيرس بسبب فعل اللواطة الذي قام به رجل يدعى جاكوس فيرون، وأحرق».

على الرغم من قول أحد المستمعين: «ياعالم، أدخل الرجل اسمه التاريخ...» تابع ذو النظارة القراءة دون انقطاع: «وحسب القانون لابد من حرق الأتان شريكة جاكوس فيرون في الجريمة. لم يكن خوري المنطقة الإنساني جداً قد نبس بكلمة إزاء حرق جاكوس فيرون الذي أغوى الأتان، إلا أنه قال أن حرق الأتان مخالف للإنسانية. وقد أيد نبلاء تلك المنطقة المحبون للإنسان والإنسانية كثيراً فكرة الخوري الإنساني. وبشهادة الخوري والنبلاء بأن الأتان ضحية فعل اللواطة، وقد شاركت في الجريمة تحت الإجبار، والإكراه، ولم تشارك بإرادتها الحرة... وبموجب هذا تقرر تبرئة الأتان، وبالتالي نجت من الحرق».

إثر هذا تناقش الذين أخذوا هذه المعلومة من الكتاب حول ما إذا كان الشاذون في السجن قد نفذوا شذوذهم بإرادتهم، وطوعياً، أم تحت الإكراه. الأغلبية مؤيدة لإبادة الشاذين طوعاً لاقتلاع عديمي

الأخلاق هؤلاء من جذورهم. ولكن هؤلاء أيضاً يشفقون على الحمير في هذا الموضوع بدافع إنسانيتهم، ولعل ذلك بسبب أصولهم القروية، أو لأنهم يسترجعون ذكريات شبابهم فيعرضون هذه الإنسانية بالإشفاق على الحمير.

أحد المستمعين للسيد ذي النظارة بتوق شديد، وهو فاتح فمه مثل الأهبل، قرأ في جرائدنا أن المزدوجي الجنس في بعض الدول يتزاوجون، ويعقدون قراناً رسمياً بعضهم على بعض. هل هذه حقيقة؟

نعم، حقيقة. شرح الأمر السيد ذو النظارة على النحو التالي:

- في كثير من الدول يطالب مزدوجو الجنس بالحرية في ممارستهم. ويدّعون أنهم يتعرضون لقمع اجتماعي وقانوني. وهم يؤسسون منظمات للمطالبة بحقوقهم. ونتيجة هذا قُبل في بعض الأمكنة إجراء زواج مدني بين مثليي الجنس. مثلاً، قُدم الشاعر اليهودي الأمريكي المدعو (ألان جنسبيرغ) إلى المحكمة بسبب قصيدته المعنونة «HOWL» التي يدافع فيها عن مثلية الجنس، والمثليين جنسياً، ولكن حقّ الحق، وبرأت المحكمة الشاعر.

الأيام تطارد الأيام، والشهور تطارد الشهور. كل ثلاثة أو أربعة أشهر كان خيري الحلاق يخرج إلى المحكمة، ويحاكم. وفي زمن لم يتوقعه أبداً، حدث تغيير هام في حياة سجنه. غيّروا مهجع خيري الحلاق مع أربعة موقوفين. كان قد اعتاد تماماً على المهجع القديم الذي يقم فيه كامل الكردي. المدهش هو عدم نبس كامل الكردي بكلمة على تغيير مهجع خيري، وعدم قوله: هذا لايجوز. لو قال كامل الكردي مرة واحدة: «لايجوز» فلا يستطيع أحد تحريك خيري من مكانه. الأسوأ من هذا، أنه عند نقل فراشه إلى المهجع الآخر، سحبه أحد رجال كامل الكردي إلى قسم دورة المياه، وقال: «هات سيخ الآغا فهو يريده» أي أنه لن يكون بعد الآن حامل أغراض كامل الكردي.

سكن خيري الحلاق في المهجع الذي انتقل إليه. ولعدم وجود أي مصدر عيش له، اضطر للدخول تحت حماية آغا المهجع. ولكن حريته تثلمت، ولم يبق له ذلك التباهي. وإذا أراد افتعال عراك من لاشيء كانوا يضغطون عليه، ويمنعونه. لم يعد يحمي نفسه كما كان في السابق. بعد عدة أشهر نقلوه إلى مهجع آخر، ومن هناك إلى قسم آخر. بقي خيري الحلاق ينتقل من مهجع إلى مهجع مدة أشهر طويلة. حتى نزلاء مهجع الصبية الذين اقترب منهم لإظهار رجولته في زمن ما ـ أي عندما كان أحد رجال كامل الكردي ـ لم يعودوا يعيرونه أي اهتمام. دع عنك إحضار الطعام من المطاعم الخارجية، فقد أصبح لايستطيع الحصول على الطعام حتى من ندوة السجن. كان يتناول طعامه من حلّة الهلال الأحمر. في تلك الأيام التي كان يتجول فيها هنا وهناك حدث له تغيير آخر هام جداً. في الجلسة الأخيرة للمحكمة صدر قرار بإعدام خيري الحلاق. استمع خيري الحلاق إلى القرار ببرودة أعصاب. يعرف أنه لو قال إن أبا الولد الذي اغتصبه وخنقه، قد اغتصبه هو أولاً، وأنه عمل عملته بدافع الانتقام، لما حكم بالإعدام، بسبب العوامل المخففة، ولعُوقب بسجن طويل. فكر في كثير من الأحيان بالتصريح بهذه الحقيقة في المحكمة لكي ينقذ نفسه من الموت. ناقش نفسه كثيراً، واضطرب. على الرغم من الاستهانة السافلة بكرامته الإنسانية في السجن، لم يستطع القول بأنه ارتكب هذه الجريمة انتقاماً لاغتصابه. لو أعدموه ليس مرة واحدة، بل لو أحيي عشرات المرات وأعدم عشرات المرات لما صرّح بهذا.

لأن من عادات السجن وتقاليده إيجادَ عمل لتأمين مصدر رزق للمحكومين بالإعدام، أعطي خيري الحلاق في اليوم التالي لحكمه بالإعدام، عملاً في السجن يؤمن منه مصدر حياته. فالمحكومون بالإعدام يعرفون أنهم كيفما كانوا سيشنقون، لذلك ينقذفون إلى كل أنواع المخاطر دون خوف، وعيونهم لاتخشى المغراز، ويخربون

انضباط السجن من أجل عيش مريح. وهذا يصعّب ضبطهم حتى تاريخ إعدامهم. لهذا السبب فإن النظام الداخلي للسجون يقضي بتأمين عمل للمحكومين بالإعدام يحقق لهم مكسباً معيناً، وبهذا يحافظون على النظام.

العمل الممنوح لخيري الحلاق هو بيع الماء بالصفيحة لمن سيستحم في حمام السجن. وقد حدد النظام الداخلي للسجن سعر الصفيحة. صفيحة الماء البارد بخمسين قرشاً، والساخنة بليرة. استلم خيري الحلاق هذا العمل، وعمل أولاً على كسب النقود. وعمله كان على مايرام. لأن المجرمين المملوءة بهم المهاجع، والباقين كل هذا الزمن دون امرأة يجدون طريقاً يفرض عليهم الاغتسال. بعض هؤلاء قتلة، وبعضهم آكل مال اليتيم، وبعضهم سرق أموال الدولة، أو الأموال العامة. عملوا هذا وذاك، ولكنهم لايتجولون مُجنبين مهما كانت ذنوبهم كبيرة - حتى لو كانوا لايعرفون أصول اغتسال الجنابة أو يعرفون - يهرعون إلى الحمام صباح ليلة جنابتهم، ويصبون على أنفسهم الماء لينظفوا أنفسهم من الذنوب. يترك الأغنياء منهم أربع أو خمس ليرات تبرعاً إضافة إلى الليرة التي يدفعونها ثمن صفيحة الماء الفاتر. أي أن خيري الحلاق وجد طريقة ملأ جيبه بوساطتها نقوداً. حسناً، ولكن هذه النقود لاتبقى كلها له. كان يعطي حصة لكل الذين أمّنوا له هذا العمل، إضافة إلى آغوات السجن. ومهما كان فإن الجزء المتبقي يكفيه وزيادة.

في أيام إهانته والاستهانة بكرامته فكر بقتل نفسه، وحاول عدة مرات، ولكن لحلاوة الروح لم ينجح بأي شكل. الآن، بعد أن أصبح صاحب عمل، وبدأ يكسب النقود، تهيأ له أن تاريخ إعدامه بعيد جداً. ثم إن المحكمة أرسلت قرار الإعدام للتمييز، لعل محكمة التمييز تجد سبباً تنقض بموجبه قرار الإعدام، وتحوله إلى سجن مؤبد. بعد ذلك يمكن أن يصدر عفو عام، وبعد أن ينام عدة سنوات يخلص من السجن. حتى إن البعض يفرحون لحكم الإعدام. لأنه على

إثر صدور حكم الإعدام، وحسب عادات السجن وتقاليده، تتغير التصرفات معهم فجأة، وخيري الحلاق حاز فجأة على هذا الاحترام والاعتبار. لم يعد كما كان في السابق يُجبر على علاقة جنسية شاذة، ولم يكن شخصاً يريد الشذوذ الجنسي بإرادته. حتى إنه في يوم ما عمل على اصطحاب الصبيان المنحرفين لإثبات رجولته. ولأنه لم يعد يهان، لم يعد يشعر بالضرورة لتلك المظاهر المقرفة. ولكنه لم يتراجع عن مظاهر الفتوة، حتى إنه لم يعتبر الفتوة مظهراً، بل هي ميول لايمكن التراجع عنها.

استمع خلال فترة إقامته الطويلة في السجن إلى حكايات جرائم أسطورية، وكان شاهداً على بعضها. وهنا في السجن مقولة: «الآغوية في الحياة بالعطاء، وفي السجن بالضرب». أي أن من يريد الحصول على الآغوية في الخارج فهذا يتم بالعطاء. سيعطي نقوداً، ويعطي بضاعة، ويعطي رشوة، ويعطي تبرعاً، ويقيم احتفالات... ولكن الذي يريد الآغوية في السجن سيضرب بقوة، ويطعن بالسكين والسيخ، وسكين الحذّاء، والقبضة ذات المسننات الحادة، والمسدس، ودائماً سيضرب. كل أغوات السجون المشاهير أمثال كمال الطهطة قلعلي، وحسن قرطاللي، ومحمود الكفتة، وكامل الكردي مروا على طريق الإهانة مثل خيري الحلاق تماماً، وامتلأت دواخلهم بالسم، وغدوا غدارين صلبين، متحجري القلوب، ثم اكتووا بنار الانتقام، وضربوا الآغوات السابقين لهم، وقتلوهم، وأصبحوا آغوات مهاجع، وأقسام، وسجون. لايوجد نجاح على وجه الأرض يحتاج إلى زند فولاذي، وقلب متحجر، ونظام غدار كهذا. وإذا كان خيري الحلاق لم يجد فرصة التعبير عن هذا حتى الآن، إلا أنه موجود في داخله. ليروا الآن أي الشهوم تلد الأمهات.. أي شهوم يمكن أن توجد تحت العباءات، لاأحد يعرف ياسبعي...

سيجرب خيري الحلاق الطرق التقليدية للحصول على الآغوية في السجن، ويلوث يديه بالدم. ولو كان سيشنق، فالموت موت، يجب

أن يثبت فتوته ثم يشنق. سيجعل كل من أهانه هنا، أو استهان بكرامته يجلس أمامه كالكلب. وخاصة عندما يبقى مع نفسه ليلاً، ويفكر بهذا، تغدو أظافره مخالباً، وأسنانه مشحوذة، وقلبه متلظياً. كان يعرف جيداً من أين سيبدأ، ومن هو هدفه الأول. لقد اختار هدفاً خاطئاً للانتقام من الرجل المتحجر الذي اغتصبه، وهذا جعله يرتكب جريمة يتألم منها طوال حياته. ولكن هذه المرة سيطعن السافل المدعو كامل الكردي، وسيجر جثته من أول فسحة السجن إلى آخرها بيديه، مطلقاً صيحاته، متحدياً كل من في السجن. سيصيح «ولاه، ياأولاد الحرام، يا أبناء النسوان! أين أنتم ياكلاب؟»، «من هذا الممصوع الذي سيغتصبني؟» «أما بينكم جريء واحد؟»، «أين الفتوات، وأين الرجال؟».. إذا رتب الأمر جيداً ـ وهو واثق من ترتيبه جيداً ـ سيكرش أمامه دعاة الفتوة والآغوات مثل القطيع، ويطاردهم في السجن. بعد ذلك ماذا سيحدث؟ إذا وجدوا الفرصة سيطلقون النار على خيري الحلاق. إذا استطاعوا إطلاق النار عليه فليطلقوها... طعنه بالسكين، ونزفه على الأرض حتى آخر قطرة، وتسليمه روحه أفضل من الموت شنقاً. إذا كان سيسلم روحه على المشنقة، وهذا هو قدره، فلينتقم على الأقل من الذين وضعوه موضع القحبة، وليثبت رجولته، ثم يُعلّق على المشنقة. في المحاولة الأولى أخطأ هدف الانتقام. بدلاً من قتل الرجل المتحجر خنق طفلاً بريئاً بالخطأ. لهذا السبب وقع في السجن. ولكن هذه المرة يعرف جيداً ممن سينتقم، وقد حدد هدفه. كان يتحرق لطعن كامل الكردي وفتح ثقوب في كل جسمه وهذا مايجعله يسمع صوت غليان دمه. من أجل أن يطفئ لهيب الانتقام المشتعل في داخله عليه أن يغرف بكفه من الدم المتدفق من جروح كامل الكردي، ويشربه، لعل جرحه يلتئم في ذلك الوقت، ويتوازن.

خلال فترة عيشه في السجن، تعلم جيداً مما رآه، وسمع كيف يُقتل الإنسان. أفضل من يستخدم السكين هو إلهامي الطوبهاني.

كان أشدّ آغوات السجن سعاراً، بمن فيهم كامل الكردي، يتجنبون إلهامي الطوبهاني. مع أن إلهامي مربوع، نحيف، وشاب. يكبر خيري الحلاق بأربع أو خمس سنوات، لكنه أصغر حجماً. وهو فتوة قلبه مثل الحجر، ولايعمل على التظاهر بالآغوية. ولكن إذا اقتربت من هذا الرجل غير المنفاخ، وحاصرته، وسحب سكينه، يتحول إلى وحش، اللهمّ احمنا منه. وحسب قول المساجين القدامى، ليس هنالك من يستخدم السكين بمهارة أفضل منه، حتى إن المساجين المسنين الذين قضوا نصف قرن من عمرهم في السجن يقولون: إن إلهامي أفضل من يستخدم السكين في الماضي والحاضر.

دهش خيري الحلاق عندما شهد أول عراك بالسكين لإلهامي. في العراك يتقافز إلهامي من هنا إلى هناك مثل الفسفس، مناوراً خصمه، مدوخاً إياه، وهكذا يدوخه ويتعبه من جهة، ويطلق صيحاته مخرّباً أعصابه من جهة أخرى حتى يخرجه عن طوره. يعارك بمتعة كبيرة، ويستمتع بالعراك، وكأنه لايعارك بل يغني ويرقص. لهذا السبب يقول المساجين القدامى: إنه يطعن بالسكين كأنه يلقي الشعر. وفي عراكه المسلّي هذا، يُظهر في كل حركة من حركاته أنه سيسلب خصمه روحه. فالعراك بالنسبة لإلهامي ممتع ومسلّ، أما بالنسبة للخصم فهو مميت، وبالنسبة للمتفرجين فمجمّد للدم.

كان خصم إلهامي، في عراك شهده خيري الحلاق، فتوة طوله يساوي طولين من طول إلهامي، ووزنه يساوي وزنين من وزنه. وفي يد كلٍّ منهما سكين، ويتحرك إلهامي مع سكينه دون أن يثبت في مكان، متعباً خصمه الضخم إلى حد أنه لم يستطع الالتفات ليرى من أين ستأتيه السكين، وامتدّ لسانه شبراً إلى الخارج مثل لسان كلب مريِّل، وراح صدره يرتفع وينخفض مثل منفاخ الحداد. وبعد أن انهار الرجل تعباً بدأ إلهامي يقشره كما يقشر الخيارة، أي من الواضح أنه قد أشفق عليه فلم يغرز سكينه في بطنه أو خاصرته.

اكتفى بسلخ جلده من عدة أمكنة، لأنه أوفى بوعده الذي وعد به قبل العراك عندما قال: «ولاه، أنا أسلخ جلدك».

في عراكه الثاني الذي شهده خيري الحلاق، بعد أن أنهك إلهامي الطوبهاني خصمه الأضخم منه بكثير، وجعل قواه تخور، رماه بالسكين من خلفه، ومن بعد ثلاث خطوات، فانغرزت في جنب مؤخرته. لقد غرز السكين في جنب مؤخرة فتوة، وهذه أكبر إهانة يتعرض لها فتوة. وتحسباً لأي احتمال سلّ إلهامي سكيناً ثانية من محزمه بعد أن قذف الأولى. عندما بدأ الفتوة بالخوار مثل الثور، لم يحتمل المتفرجون المتوترو الأعصاب هذه الإهانة، والبهدلة، فانفجروا بالضحك.

والخصوصية الأخرى لعراك إلهامي الطوبهاني بالسكين، إطلاقه صيحات لم يسمع مثلها. لهذا الرجل الضئيل صوت غليظ، وفظيع، ومرعد، لاتعرف من أين يصدره، وبصيحاته هذه الشبيهة بصوت بوق الحرب يوقع الرعب في قلب خصمه. فهو يطلق صيحاته من جهة، وسخرياته من جهة أخرى، مغضباً خصمه، ومسلياً نفسه.

معروف أن إلهامي الطوبهاني كان يضرب الرجال مقابل بعض النقود بأمر فتوات السجن. ولكثرة ضربه الرجال، وعراكه بالسكين، غدا معلمَ الطعن بالسكين وبهلوانه. بعد ذلك أقلع عن الضرب بأمر الآخرين، ولم يعد يضرب إلا إذا كان يرغب ويريد.

إلهامي أحد أبناء اسطنبول، ومن عاداته السيئة تعاطيه الحشيشة. حسب مايقال فإن الفتوات المكسورة أعينهم من سكين إلهامي عوّدوه على الحشيشة ليدفعوا هذا البلاء المذلّ عن أنفسهم. ويقال إنه إذا استمر عدة سنوات بإدمانه على الحشيشة، فلن يتمكن من استخدام السكين بهذه المهارة.

عبارة «يتسلق الحائط الأملس» عبارة تنطبق على إلهامي. فهو لايتسلق الحائط الأملس فقط، بل يسير سيراً. كان يقف عند جدار

فسحة السجن البعيد، وينطلق بسرعة صارخاً بشكل مرعب يوقف القلوب، حتى يتهيأ للآخرين أنه بركضه السريع هذا، وصراخه سيصطدم بالجدار، ويتفتت نتفاً نتفاً. ولكنه بالسرعة التي يركض فيها يسير خطوتين أو ثلاث على الحائط المقابل له ثم يلتفت بشكل مفاجئ، ويقفز على الأرض. الذين رأوه قالوا كان يصعد الحائط بأربع خطوات. وحسب ماقيل كان قديماً يدرب نفسه على صعود الجدار العمودي ليتسلق إلى السطح، ومن هناك يقفز إلى الخارج هارباً.

كان آغوات المهاجع والأقسام يراعون أموره في القمار، ويعطونه نقوداً بشكل سري، ويلبّون احتياجاته لكي لايهاجمهم، ولايعترض طريقهم. وإلهامي الذي يبدو أنه غير مهووس بالآغوية بهذا الشكل يأكل أتاوة حتى من الآغوات.

تفرج خيري على عراك السكاكين لإلهامي الطوبهاني، وكثيرين غيره، وتعلم منهم الكثير. وكل ماتعلمه سيفيده في عملية الانتقام لشرفه الملوث. ماتعلمه خيري الحلاق بالمشاهدة، والسمع، هو أن ضرب الآخرين في السجن، وقتلهم على الأغلب، يتم غدراً. يقتل الرجل عبر حياكة الخطط، ثم الملاحقة، ونصب الكمين، أو الحصر في مكان صعب، وطعنه بالسكين من الخلف، أو طعنه وهو في غيبوبة تامة. لقد عرف خيري الحلاق كثيراً من حركات الغدر المميتة تلك. بحجة الدعوة لشرب الشاي دعا كامل الكردي آغا قسم آخر إلى مهجعه، وبعد جلوسه على البساط مباشرة جعل ثمانية من رجاله يقفزون فوقه، ويقتلونه طعناً بالسكاكين. صادفوا أحد الفتوات فارغاً، أي لايحمل سكيناً، وطعنوه غدراً. والمدعو إيبو قرة رجل ضخم، بعد إنهائه خمسة عشر عاماً مدة محكوميته، وقبل خروجه بعشرة أيام، أثناء الزيارة انكب عليه زائره مع امرأة، وطعنه حتى الموت. وذاك الرجل الأسمر الغامق الجميل المدعو حسن مرمرة، القوي ـ آغا سجن غير مأمون ـ التقطوه في الحمام عارياً،

وأراقوا دمه على أحجار الحمام الرخامية. والشهود يلوّنون هذه الجريمة، فيقولون: جلد حسن مرمرة الأسود، رخام الحمام الأبيض، دمه المتدفق الأحمر. أسود، أحمر، أبيض..

كان خيري الحلاق يعرف هذه الأمور جيداً. ولو أراد لأعد مؤامرات أكثر شيطانية، ولعمل مالايخطر حتى على بال الشيطان. لهذا السبب فهو يثق بنفسه. ولكنه لايريد دفع مدمن هيروين على كامل الكردي لقتله بطعنة من الخلف مقابل نقود أو مصلحة، أو دفع خمسة أو عشرة أشخاص عليه فجأة، وسلبه روحه، أو جعل أحد يغدر به، أو يغدر به هو ويضربه. من أجل الانتقام لشرفه الملوث، وكرامته الرجولية المهانة، لابد له من مواجهة الوحش المدعو كامل الكردي، وقتله بعد صراع السن بالسن، والعين بالعين، والمخلب للمخلب. سيقتله وهو يرى الخوف في عينيه السوداوين كظهر الصرصار، والدائمتي الحركة، والقاسيتين، وهو يرى الخوف في أثناء هجومه عليه برأس سكينه الحاد. ألم يكن يخاف من كامل الكردي؟ كان يخاف منه كثيراً... ولكن ألسنة لهب الانتقام التي تكويه، وتشعل أفكاره كانت أكبر من ظلمات خوفه، وأكثف. كان يستمد جرأته من هذا الخوف، ومن التعلق بالانتقام.

بدأ خيري الإعداد لهذه الجريمة ـ ليست جريمة بالنسبة لخيري الحلاق، بل هي عمل خير للإنسانية ـ كان حتى ذلك اليوم حامل أغراض كامل الكردي، يخفي له سكاكينه، و(سياخه)، وقبضاته ذات المسننات الحادة، أو يحملها له. ولكن لم تكن له ثمة سكين أبداً. جمع نقوداً كثيرة مما كسبه من الحمام لأنها يمكن أن تلزمه. لو أراد لدفع النقود وحصل من الخارج على سكين، أو سكين حذاء، أو حتى مسدس، ولكن لاطعم لقتل كامل الكردي بالمسدس بالنسبة لخيري الحلاق. من المؤسف إزهاق روحه برصاصة واحدة. يجب قتله مع الاستمتاع بهذا العمل.

بدأ بتطبيق كل ماتعلمه من أجل ارتكاب جريمة. وأكثره تعلمه

من كامل الكردي، لأن العيش في السجن وحده علم، وتقنية.

سيصنع الأداة التي يطرح بواسطتها جثة كامل الكردي على الأرض، لقد تعلم كيفية عملها جيداً، لكثرة ماصنعها لكامل الكردي... كان كامل الكردي يجعل الرجال الذين يطعمهم، ويضعهم إلى جواره يصنعون السيخ، وفي يوم ماصنع له خيري الحلاق سيخاً.

فك مقبض مزلاج غطاء موقد الحمام المصنوع من الصفيح السميك. وهذا المقبض عبارة عن قضيب حديدي طوله اثنان وعشرون سنتيمتراً، وعرضه أربعة سنتميترات.

على مدى ست ليال عمل على خلع قطعتي حديد ربط من سرير فارغ في المهجع. كان فك هاتين القطعتين صعباً جداً. ولكي لايراه أحد وهو يفكهما لم يستطع العمل إلا ليلاً وحتى قبيل الفجر. كما كان مضطراً للعمل دون إصدار أي صوت. وهذا سبب استغراقه ست ليال في فك قطعتي حديد ربط يحتاج فكهما ساعتين.

سيصنع من مقبض المزلاج، وقطعتي الحديد ثلاثة أسياخ. عمل نهاراً في غرفة خلع الملابس للحمام، ومساء في أحد مراحيض دورة مياه المهجع بتوق لايوصف على مدى أربعة وثلاثين يوماً بنهاراتها ولياليها. يدخل إلى غرفة خلع الملابس للحمام التي لانافذة لها، ويقفل وراءه الباب، ويشحذ قطع الحديد الثلاث على الرخام مدبباً رؤوسها، ليجعلها بشكل سيخ. وفي أثناء قيامه بهذا العمل في الداخل يجب ألا يسمع الصوت من الخارج. فوق هذا لايشعل المصباح في الداخل لكي لايشعر بوجوده أحد، ويقضي يومه كله في الظلام يشحذ الحديد على الرخام. عند المساء يذهب إلى المهجع. عندما ينام الجميع، وتتوقف الأرجل والأيدي عن الحركة يدخل إلى أحد المراحيض، ويغلق الباب على نفسه، ويشحذ قطع الحديد على أحجار المرحاض. ويعمل على هذا النحو حتى الفجر.

أثناء شحذه قطع الحديد على حجر المرحاض، وحجر الصنبور، ورخام الحمام يشعر وكأنه يشحذه على زمارة رقبة كامل الكردي. مرات عديدة أشعل سيجارته من رأس قطعة الحديد الملتهبة. أكثر مايسعده أثناء تحضيره للسيخ دون توقف، ودون أن يدخل النوم إلى عينيه، ودون تمييز بين ليل أو نهار، هو أن يشخشخ فجأة على قضيب الحديد الحامي لشدة شحذه على الحجر. كان ينتشي من صوت (جظظظظ..) عند ملامسة البول للحديد الحامي. كان مهووساً بالتبول على الحديد الحامي، مقتنعاً أن عمله هذا، أي تبوله على الحديد الحامي يفولذه. سيخ الحديد المتشرب بالبول، وأي بول، إنه بول خيري الحلاق، سيبعج بطن كامل الكردي، ويخترق قلبه. كان يشعر أن بوله سيمتزج بدم كامل الكردي. وبهذا سيحقق انتقاماً شافياً أكثر. وبإحساس لاشعوري كان يريد القفز فوق إهانة ذكورته. لهذا السبب يدفعه إحساسه الداخلي إلى إحماء الحديدة التي سيغرزها في قلب كامل الكردي، والتبول فوقها. وكان يشعر بنشوة جنسية من صوت ملامسة البول لقطعة الحديد الحامية.

وبسبب عمل خيري الحلاق طوال النهار في الحمام، وطوال الليل في المهجع، وشحذ قطع الحديد على أحجار الصنبور والتواليت لتحويلها إلى أسياخ، انتفخت راحة يده اليمنى، وتبثّرت ماء، وتثقّب جلده في عدة أمكنة. حين تؤلمه يده اليمنى كثيراً كان يشحذ قطع الحديد بيده اليسرى. ولكنه لم يستطع العمل بيسراه براحة كما كان يعمل بيمناه. ومهما حدث له لايتوقف عن عمل السيخ. لف على كفه الأيمن قطعة قماش مزقها من لحاف أو غطاء فراش لأنه لم يعد يحتمل الآلام الناجمة عن انفجار الانتفاخات في كفه، وسيلان الماء الأصفر، وبهذا استمر بعمله.

في إحدى الليالي، بعد أن غاص المهجع في نوم عميق، نهض من فراشه كما يفعل كل ليلة. كانت ليلة باردة. لف يده من جديد بقطعة قماش قطعها من غطاء الفراش. كانت قطع الحديد التي

ستتحول إلى أسياخ مخبأة في ثلاثة جوارب منفصلة. وقام بهذا التدبير حتى إذا وجدت الجندرمة واحدة أثناء التفتيش، فلن تجد الأخريين. تناول إحدى قطع الحديد من جرابها. دسها في حزامه. وذهب إلى قسم دورة المياه. هنالك خمسة مراحيض متجاورة. دخل الأوسط دون تفكير. أقفل الباب من الداخل بالمزلاج. أخرج قضيب الحديد من وسطه. كان رأسه قد تدبب جيداً، وتدورت حافتاه لكثرة ماشحذه على الحجر. كان ملفوفاً بقطعة قماش مكان المقبض. بدأ خيري بشحذه على الحجر بهوس شديد.

لكثرة ماتحولت قطع الحديد المنزوعة من الأسرة، والنوافذ، ومفاتيح الأبواب القديمة، وقوائم المواقد إلى أسياخ بشحذها على الحجر، تحفرت أحجار المراحيض والصنابير، وظهرت عليها الأخاديد.

في كل شحذة لقطعة الحديد نحو الأمام، كان خيري الحلاق يشعر بأنه يغرزها في قفص كامل الكردي الصدري، ويدخلها في رئته.

لماذا دخل إلى المرحاض الأوسط على الرغم من أن المراحيض كلها فارغة؟ ألأنه أكثر إضاءة؟ لا. كان أقل إضاءة... هل دخله نتيجة فكرة ما، أو معرفة معينة، أم نتيجة اعتياد؟ عندما فكر بهذا بدأ بالبكاء. بعد أن قضى كامل الكردي شهوراً عديدة على شهوته الجنسية بخيري الحلاق، وملّ منه، تدبر له النقل إلى مهجع آخر، وفي منتصف ليلة من الليالي جره آغا المهجع الجديد إلى هذا المرحاض، وأدخله فيه. ولكي لايفكر بهذه الحادثة التي تعلقت بذاكرته، هزّ رأسه بقوة عدة مرات كأنه يطرد ذبابة توقفت ولم تتزحزح من مكانها، فتناثرت دمعات كانت قد انهمرت على خديه، وسقطت على القضيب الحديدي. كان قضيب الحديد قد أصبح حامياً جداً لكثرة ماشحذه بسرعة، فتبخرت قطرات الدمع بعد أن أحدثت صوت (جظ) عند سقوطها. شحذ قطعة الحديد بتسارع أكبر. راح

يشحذ قضيب الحديد وكأنه في حالة ذهول وفقدان سيطرة على الذات. رأى قطعة القماش البيضاء القذرة التي لفها على يده تحولت إلى اللون الأحمر. كانت البقع الحمراء على قطعة القماش تتوسع. سحب قطعة القماش عن يده. كان الدم يسيل من أعلى كفه، وأصابعه من الداخل. ودون تفكير بما عمله كوى يده المدماة بالسيخ الحامي. اكتوت يده بنار قطعة الحديد.. لقد شعر حتى أعمق أعماقه بهذا الألم، ولكنه تذوق طعماً لايمكن أن يوصف. هل أراد أن يكوي جرحه النازف بالحديدة الحامية، أم أنه أراد أن يحرق ذنباً له فيزيله؟ كان يفولذ قطعة الحديد بالدموع المنسكبة على خديه، وبالدم النازف من يده.

هل أصبح تدبيب السيخ كافياً؟ غرز السيخ بأعلى ذراعه عند الكتف، لايدري إن كان ليجربه، أو ليشعر بشكل أعمق بذاك الطعم الذي لايوصف. انغرز السيخ أقل من سنتيمتر، وبدأ الدم يتدفق. ثم ضغط بالحديد الذي مازال حامياً على مكان نزف الدم. يجب أن يتشرب السيخ إلى أعماقه بالدمع والدم. لم يكف هذا. فك أزرار بنطاله، وأنزل سرواله الداخلي، وبصق على راحة يمينه النازفة دماً، وبدأ يستمني.

لم يكن دمه ودمعه يكفيان لفولذة هذا السيخ الحديدي. يجب أن يتفولذ هذا السيخ بالمني... يجب أن يتفولذ السيخ لكي يشعر كامل الكردي بدمه ودموعه، وذكورته عبر هذه الحديدة عندما سيغرزها في جسمه وينسلها، ثم يغرزها، ويغرزها، ويخرجها. وكأن ماسيُغرز في لحم كامل الكردي، ونخاعه، ودمه، وروحه ليس هذا السيخ الحديدي، بل ذكورة خيري الحلاق. لايمكنه أن يثأر تماماً لنفسه إلا بهذه الطريقة.

خرج خيري الحلاق من ذلك المرحاض عندما بدأت أشعة الصباح الزرقاء المتسخة من جدران السجن ونوافذه القذرة، وحديده الصدئ، تنساب إلى المهاجع التي بدأ يسمع منها صوت

السعال. تمدد في فراشه. لايذكر أنه نام مرتاحاً مثل هذه المرة، ودون رؤية كامل الكردي في أحلامه.

بعد أربعة وثلاثين يوماً من هذا الجهد المضني، ولكثرة ماشحذ خيري الحلاق قضبان الحديد على حجر الصنبور، والمرحاض، ورخام الحمام، انفتحت فيها أخاديد عميقة. في النهاية نجح خيري الحلاق. أصبح لديه ثلاثة أسياخ رؤوسها مدببة، ودقيقة مثل لسان الأفعى. في حد أحدها ثلاثة نتوءات، والاثنان الآخران يعرضان جيداً في الأسفل. سيغرز أحدهما في صدر كامل الكردي، وسيضغط عليه نحو إحدى الجهات، ثم يبرمه ليقطّع رئتيه وأحشاءه.

صنع لأحد الأسياخ الثلاثة مقبضاً خشبياً. أدخل السيخ في المقبض بقوة، وجعله ثابتاً، وصنع للآخرين مقبضين من القماش.

استحضر من الخارج جلدَ ماعزٍ سميكاً جداً من النوع الذي يستخدم في خياطة سترات الرعاة. قصّ الجلد بعرض أربعين سنتيمتراً على طوله. نقعه بماء ساخنٍ مذابٍ فيه ثمانية كيلوغرامات ملح. نقع الجلد في الماء المالح مدة يومين، فتشربه جيداً، ثم جفف الجلد المملح في الشمس. غدت قطعة الجلد ذات سماكة نصف سنتيمتر قاسية جداً. ونقع قطعة جلد ماعز طويلة أخرى بماء ساخن أذيب فيه عشرة كيلوغرامات من السكر، ثم جُففت قطعة الجلد المتشربة بماء السكر جيداً تحت أشعة الشمس.

اعتقدوا في الأيام الأخيرة أن خيري الحلاق ثخن، أو سمن. في الحقيقة أنه لف قطع الجلد المملحة، والمسكّرة على وسطه، وصدره فبدا أضخم. وحسب هذه الأحزمة ارتدى ألبسته الداخلية، وفوقها الخارجية. جرب السيخ مرات فوجده لايخرق أربعة أطواق من جلد الماعز. وهكذا لن تمرق سكين كامل الكردي لتعلّم على خيري الحلاق. لقد تعلم هذه الأمور من كامل الكردي. في يومٍ ما كان خيري الحلاق هو الذي يلف الجلد على جذع كامل الكرديّ العاري. لهذا السبب يعرف خيري الحلاق الأماكن الأقل حماية في جسده.

انتهت التحضيرات كلها. ليلة الصباح الذي قرر فيه ضرب كامل الكردي وقعت حادثة هي بجانب من جوانبها عثرة، وبجانب آخر يمكن تسميتها حظاً. لأنه في تلك الأيام حدثت عدة اشتباكات، ومطاعنات بالسكاكين، وداهمت الجندرمة المهاجع فجأة، وبحثت عن الأسلحة. ولأن خيري الحلاق تعلم كل مداخل المحبوسية ومخارجها، ويعرف جيداً عملية حمل الأسلحة، لذلك اتخذ احتياطاته. سيخ أخفاه في الحمام، والآخر حمّله لأحد الفتية المحكومين، والثالث يحمله هو من أجل حماية نفسه. وجدت الجندرمة السيخ الذي كان يحمله خيري فأخذته. وعندما علم في اليوم التالي أن الجندرمة أخذت سكينين، وأربعة أسياخ من كامل الكردي لم يعد حزيناً لفقدانه سيخاً. حتى إنه فرح لأن أسلحة كامل الكردي ضبطت... ويكفي خيري الحلاق سيخان.

ليلة تقريره بشكل قطعي ضرب كامل الكردي، وعلى الرغم من رغبته الشديدة بالنوم، لم يستطع بأي شكل من الأشكال أن ينام لانفعاله، لكنه عندما نهض صباحاً لم يكن متعباً أبداً. كان يجد نفسه حيوياً جداً، ومنتعشاً، ولعل هذا بسبب هيجانه وهوسه. التف جيداً بقطع الجلد. دسَّ سيخاً في جيب سترته الجانبي، والآخر في زناره. لم تكن تلزمه أية حجة لافتعال عراك مع كامل الكردي. سيضربه مباشرة. ولكنه كان يريد حدوث هذا العراك وسط الزحام، وعلى مرأى من الجميع. يجب على الجميع رؤيته إما وهو يقتل، أو وهو يموت مقتولاً.

أمضى أشهراً وهو يفكر في نهاراتها ولياليها كيف سيعارك كامل الكردي، وكيف سيفتعل العراك، وكيف سيبدؤه. المهم لمُّ الجميع حوله، وجعل كل من في السجن يرى جثة كامل الكردي حسب التقاليد المتبعة. وطالما فكر فيه.. سيطلق صيحته قائلاً: «احذر ولاه كامل الكردي». ماذا؟ أتقول «ولاه» لكامل الكردي. وعندئذ سيبهت

لون بشرة كامل الكردي المائل إلى الاخضرار نتيجة تعاطيه الحشيشة لسنوات طويلة. سيمتقع لونه كأنه ابتلع بلعة. وسيصرخ قائلاً: «هييه...» ويلمّ الجميع حوله، ثم يخيفه بقوله ساخراً: «خذ حذرك ياكامل الكردي، أنا جئتك هاا!..».

إذا حاول أحد حماته، أو حاملو أسلحته، وأغراضه، أو فتواته مهاجمته، فلن يتعارك معه. بضربة سكين واحدة، أو غزة سيخ سينهي أمره، ثم يعود إلى كامل الكردي.

«ولاه كامل الكردي، ليس لدينا غدر، أو مداهمة خصم يغط في نومه، ولاضرب العدو من ظهره، أو الكثرة ومهاجمة عشرة أشخاص لشخص واحد... هيا، اسحب سكينك!.. إذا لم يكن لديك واحدة، فخذ، واخترْ... إذا كان لديك مسدس اسحبه! لنر أي نوع من الشهوم أنت..».

ومع تصميمه هكذا على قتله لم يفقد أعصابه. لم يتناول إفطاره، لكنه شرب الشاي. على الرغم من شربه الشاي دائماً بقطعة سكر واحدة، لكنه دون أن ينتبه إلى نفسه شرب الشاي هذه المرة مثل كامل الكردي بوضع قطعة سكر صغيرة في فمه تحت لسانه، وبعد قليل طلب كأساً إضافياً، وشربه بعد أن ألقى فيه قطعتين من السكر.

ذهب إلى الحمام، وأعطى صفائح الماء لمن يطلب. وبلّغ الذي يعمل معه من مهجع المقطوعين عما يجب أن يعمل. كان كامل الكردي في هذه الساعة يخرج إلى باحة السجن ليتمشى. وأثناء تمشيه راح حماته وحاملو أغراضه، وفتيانه يسيرون من حوله. خيري الحلاق لايخاف أحداً من هؤلاء. فهو يعرف أنهم لو هاجموه كالقطيع سيتفرقون جميعاً ويهربون عندما يطعن الآغا سيدهم الطعنة الأولى.

كان خيري الحلاق على وشك الخروج من الحمام إلى الساحة،

حيث شعر أن هنالك أحاديث تدور، وتراكضاً وصياحاً. قفز خارجاً متسائلاً عما يجري، ثم تلقى أكثر الأخبار سوءاً في حياته.

كان آغوات السجن في تلك الأيام قد بدؤوا صراعاً من أجل اقتسام السجن، وعراكاً من أجل التنافس على جمع الأتاوات. وفي أوضاع كهذه يُنفى أصحاب السوابق الكبيرة، وآغوات السجن إلى سجون الريف البعيدة. بحجة ما، يستدعون إلى الإدارة، ثم يوقفون هناك، بعد ذلك تجمع أغراضهم وترسل إليهم، ثم يدفعون إلى الحافلة، ويودعون.

عندما سمع خيري الحلاق الضجة في الساحة، وخرج من الحمام ليعرف ماذا حدث، تلقى هذا الخبر. ثمة نفي جديد. الجانب المهم لهذا النفي هو إرسال كامل الكردي إلى سينوب. بعد أن خرج خيري الحلاق إلى الساحة كان كامل الكردي قد أرسل من زمان. ولأن محكومي السجن سمعوا لتوهم بخبر النفي فهم يتبادلون الحديث، ويتكلمون عن الموضوع بهيجان كبير.

تلقى خيري الحلاق النبأ وكأنه ضُرب على رأسه. فجأة حل عليه تعب شهرين من التحضير الشاق لعملية القتل، فانهار مقرفصاً بجانب أسفل الجدار. كان بجانبه عدد كبير من الجالسين، لايرى من هم، ولايسمع ما الذي يتحدثون به، كل مايسمعه عبارة عن ضجيج يطنّ في الأذن.

في بعض الأحيان ترد إلى أذنيه قهقهات وكلمات ساخرة لم يفهم معناها، إضافة إلى اسمه واسم كامل الكردي. لم يستطع استجماع قواه، وفهم مايقال بأي شكل. ولكن صوت إلهامي الطوبهاني البوقي يقترب من أذنه ويبتعد. عمل على استجماع قواه، أراد سماع مايقال.

ـ آه ياصغير... راح آغاه، وهو الآن يتخبط لايعرف ماذا سيفعل.

على الأغلب كانت هذه العبارة تقال له. التفت نحو الصوت. إنه إلهامي الطوبهاني.

ـ لماذا تنظر ولاه؟

فقال خيري الحلاق لإلهامي الطوبهاني الذي نطق بتلك العبارة:

ـ لاشيء، نظرت هكذا يا أخي إلهامي.

ـ أما عجبك؟

وبعد عبارة «أما عجبك؟» شتمه بالكلمات الأكثر سفالة التي تحكي عن انحراف خيري.

نهض خيري الحلاق على قدميه للذهاب، مبدياً أنه لاينوي الغضب أبداً، فقفز إلهامي الطوبهاني بسرعته المشهورة تلك، وقطع عليه الطريق. مرة أخرى أطلق الشتائم بكلمات مهينة عن انحرافه الجنسي، وعن حزن خيري على ذهاب كامل الكردي، الآغا الذي كان يسند ظهره إليه. وضحك من كان هناك هازئاً. دفعه خيري بقفا يده بعد أن وصلت روحه إلى أنفه، وقال:

ـ اذهب لشغلك يا أخي الكبير إلهامي..

عندما هاجمه إلهامي بشتائم أشد، قال له:

ـ هل تبحث عن بلائك؟ ثم مشى، وكان يريد أن يملص من هناك.

لكن كيف تقال عبارة كهذه لإلهامي الطوبهاني، ثم إن من يقولها خيري الحلاق؟ سحب إلهامي سكينه.

وإذا كان خيري الحلاق صرخ قائلاً:

ـ لاتحاول معي ولاه..

كان إلهامي مثل صقر وصل إلى فريسة. ولولا أن انسحب خيري جانباً لانغرزت السكين في قلبه. خيري أيضاً سحب سيخه. سَحْبُ خيري السيخ، وخاصة في وجه إلهامي أدهش من كان هناك.

وفجأة ملأ المتفرجون المكان حول المتعاركين. وكان إلهامي الطوبهاني كما في كل مشاجرة يطلق صوته القوي بصيحات، ويشتم خيري، ومن جهة أخرى كان يقفز، وينطّ من حوله.

يقال إن الإنسان المهدد بالموت من آخر يحمل بيده سكيناً أو مسدساً يجد فجأة أفضل الطرق للدفاع عن نفسه، ولعله يجد هذا تلقائياً. إن الذين يفكرون بهذا فيما بعد يجدون أن هذه الطريقة هي الطريقة الفضلى للدفاع عن النفس.

كان خيري واقفاً لامبالياً إزاء إلهامي الطوبهاني المتقافز حوله، وبجانبه، ولكنه يتابع سكينه باهتمام. عندما يتشاجر إلهامي مع الآخرين يعتقد أولئك أنهم لابد أن يتقافزوا من أجل حماية أنفسهم، أو الهجوم عليه. وفي النهاية يتعبون لضعف أنفاسهم، وعدم تمرينهم. كان إلهامي الطوبهاني يحقق تفوقه على خصومه عبرَ إجبارهم على التلاؤم مع أسلوبه في القتال. ولكن خيري لم يبال إزاء كل قفزات إلهامي، وهكذا وجد أفضل الطرق للدفاع عن النفس. كان يفعل هذا دون تفكير، ولعله يفعله بغريزة حلاوة الروح. بينما كان خيري يقف ببرودة أعصاب، بدا إلهامي مضحكاً بتقافزه مثل الديك. تقافز فترة من الزمن. في هذه الأثناء، وبقفزة غير متوقعة أبداً، سدد خيري سيخه، إذ كان يتابعه بعينيه، ويتحين فرصة إيجاد ثغرة عنده. ولأن إلهامي انسحب بسرعة فقد انغرز السيخ في كتفه الأيمن. سحب خيري سيخه بعد أن ضغط عليه إلى أسفل إثر انغرازه في لحم الكتف المكتنز حتى العظم. تدفق الدم من الجرح في كتفه. مرة أخرى قفزا نحو بعضهما. مرة أخرى بدأ إلهامي يتقافز، ويطلق صيحاته. وكونه أصيب بجرح في كتفه لم يعد يتحكم تماماً بيده اليمنى الممسكة بالسكين. كان خيري متحفزاً، ولم يخرّب موقفه. من جديد يبحث عن ثغرة لدى إلهامي. وفي الهجمة الثانية تصادم السيخ بالسكين. إلى حد أن المهتمين «بالتواتر» اخترعوا على لسان شهود عيان أن شرارة قدحت من ذلك التصادم.

غطّى الدم المتدفق من إلهامي خيري الحلاق. كان وجه إلهامي الطوبهاني ملتاثاً بالدماء. عندما رأى خيري ذاك الوجه المدمى سيطر عليه شعور أنه وجه كامل الكردي، وفي تلك اللحظة تحول إلى طائر جارح.

تجمّع هناك كل من في السجن للفرجة على المشاجرة. كانت مشاجرة دموية إلى حد عدم إمكانية الفصل بينهما. كما لايمكن الشدّ مع أحدهما، لأن من يحاول عمل هذا يمكن أن يتلقى طعنة سكين، أو غرزة سيخ فيذهب ضحية لاشيء.

أطلق الحراس الصفارات. بدأ التراكض. ووصل الحراس. صفير الحراس غير مجدٍ، وحتى الحراس أنفسهم لايستطيعون الفصل في عراك كهذا. أخبروا الجندرمة، ولكن مجيئهم يحتاج إلى وقت. هذا العراك حسب تعابير السجن ينتهي بجثة. نعم... لقد داخ إلهامي معلم الطعن بالسكين على مدى كل تلك السنين، وفي تاريخه عدة جثث، وحتى هو نفسه نسي عدد الذين جرحهم طعناً بالسكين. كان ينظر إلى رأس سيخ خيري الحلاق الحاد كأنه عين لاتنظر إلا لموته. ليس له خلاص إذا لم يأخذ الموت بعين الاعتبار. وأَخَذَ الموت بعين الاعتبار. استجمع كل قواه، وكل أنفاسه، وانتقل إلى حالة الهجوم، وقفز نحو خيري. كان الذي سيقدم روحه، وبسيخ خيري الحلاق هو إلهامي الطوبهاني الذي لم تنزل سيرته عن الألسن على مدى سنوات طويلة. ليس هنالك خيار سوى الخيار بين ثنائية موت أو حياة.. خيري الذي كان ماكان.. ينسحب جانباً إزاء كل قفزة من قفزات إلهامي، ولم ينسحب هذه المرة. صوب خيري سيخه نحو سكين إلهامي بعد أن انقطع نفسه، وتقطع، وبدأ صدره الضعيف مثل منفاخ يكبر ويصغر، فاصطدم السيخ بالسكين، وسقطت السكينْ من يد إلهامي إما لأنها انكسرت؛ أو لأنه لم يعد يستطيع الإمساك بها. فجأة داس خيري بقدمه على السكين المُلقاة على الأرض،

ووقف ينظر إلى إلهامي ببرود. نعم، كانت هذه النظرة أسوأ ألف مرة من أن يطعن ألف طعنة ويموت. دفع خيري السكين برأس قدمه، وقال:

- خذ سكينك!

بإمكانه قتله لو أراد. لم ينحن إلهامي لأخذ سكينه. إما خوفاً من طعنه بظهره، أو لأنه لم يعد لديه القوة... سحب خيري السيخ الآخر من الجيب الداخلي للسترة. من المعتاد أن تُغرز في رأس السيخ فلينة كيلا تثقب الجيب. نزع الفلينة من رأس السيخ، ورماه نحوه قائلاً:

- تفضل!

اختطف إلهامي السيخ بحرص، وأطلق صياحه قائلاً:

- أنت متعطش لموتك ولاه..

ليس أمامه مخرج. إذا لم يأخذ السيخ من الأرض، ويواصل العراك لن تبقى قيمة لشهرته.

بدأت معركة جديدة لاترحم. ليس ثمة نبس. بدا كأن الهواء تجمد. هاجم إلهامي وكأنه وضع روحه على كفه. وهكذا بتلك الهجمة انغرز سيخ خيري بسرعة البرق في رقبة إلهامي. وبسرعة سحب خيري السيخ إلى الخلف. خرجت دفقة دم كبيرة من رقبة إلهامي، وانهار على الأرض. في تقاليد عراك السجن يجب على خيري أن يقفز فوق صيده، ويغرز السيخ فيه ويخرجه، حتى تتوقف أنفاسه. ولكن خيري بعد أن نظر بهدوء إلى إلهامي المتخبط فترة على الأرض، مشى نحو الزحام. تراكض الزحام بفتواته، وآغواته، وشجعانه، وجبنائه أمام خيري الحلاق الحامل للسيخ المدمى. بدأ خيري الحلاق يبكي مجهشاً، كان يبكي من جهة، ويتحدى من جهة أخرى:

- ولاه.. زمان.. نعم.. وبالقوة.. بالإكراه.. تعالوا الآن، من فيكم الشجاع؟

حكى عما جرى له باكياً. اعترف. أراد أن يخرج أمامه فتوة يحاول القيام بتلك السفالة. وضع مهابته أمامهم جميعاً وبدأ يتحدى. كان يبكي إلى حد أن دموعه صارت تغسل وجهه المدمى.

تأثر الجميع بمن فيهم «أبو الإصبع»، و«الآلاتي»، و«سليمان العامل لأمه» و«السيد ذو النظارة» ببكاء خيري الحلاق، واعترافه الصريح لما مرّ معه، فبعضهم اغرورقت عيناه بالدموع، وبعضهم كأن لسانه انعقد، وبعضهم بكى بوضوح.

وكلما سار خيري الحلاق نحوهم، صارخاً:

- الرجل فيكم يأتي الآن..

ينسحبون إلى الخلف.

لعل توتر الأعصاب، أو الأزمة التي عَبَرها جعلت خيري الحلاق ينفعل كثيراً بالبكاء.

قال رئيس الحرس بنبرة أعطاها حلاوة:

- أعطني هذا السيخ ياخيري. هاته يابني. هاته ياولدي..

كانوا يلقبون رئيس الحرس: بابا. وخشية من حدوث شيء حتى في ذلك الموقف، ودون أن يترك السيخ من يده، قال:

- لنذهب إلى قسم تحت الباب، وهناك أعطيك إياه.

سار خيري الحلاق في المقدمة، ومن خلفه الحراس. رأى خيري الحلاق أن الباب أغلق من خلفهم، وأنزل المزلاج، فترك السيخ المدمى من يده.

رئيس الحرس منذ ثلاثين عاماً وهو يقوم بهذا العمل. ولطالما رأى من مشاجرات وجرائم، حتى غدت أحاسيسه مثل جلد التمساح. ولكنه عندما سمع كلمات خيري الحلاق، ورأى دموعه الممزوجة بالدم تدغدغت أحاسيسه المتمسحة، وتألم كثيراً لخيري. تذكر كيف أراد أن يحميه عندما أتى إلى السجن قبل سنتين ونصف.

كان أول إجراء بحق الذين يتعاركون ويرتكبون جريمة، أو يجرحون أحداً هو إدخالهم إلى الحمام، وضربهم ضرباً مبرحاً. ولكن رئيس الحرس لم يمسّ خيري الحلاق، لأنه تألم له من جهة، ولأنه ليس من المعتاد ضرب محكومي الإعدام من جهة أخرى. أخذوه إلى عيادة السجن، مسحوا عنه الدماء. ونظروا إن كان جريحاً أم لا. كان مصاباً بجرح صغير فقط. ومظهره بأنه مصاب بجروح بليغة ناتج من تطاير دم إلهامي عليه.

نظّفوا الجرح، وضمّدوه، وعملوا ما يلزم دائماً إزاء هذه الأعمال، فأدخلوا خيري الزنزانة، وضربوا القيد على قدميه. بعد ذلك أغلقوا الباب الحديدي للزنزانة وأقفلوه. وعندما كان رئيس الحرس ذاهباً قال من خلف الباب:

ـ الله يخلصك يابني خيري..

أجابه خيري الحلاق قائلاً:

ـ تسلم بابا..

حل المساء، وانسحب المحكومون والموقوفون إلى المهاجع. أجري التفقد، وتمنى الحراس الخلاص للمساجين وذهبوا، ثم أغلقت أبواب المهاجع.

كان السيد ذو النظارة يقرأ هذه السطور من الكتاب الذي بيده حول موضوع حقوق الإنسان الذي يقف عنده كثيراً في الأيام الأخيرة:

«وُقِّعت اتفاقية المجلس الأوروبي في 5 أيار 1949 في المجلس الأوروبي في لندن. وحسب المادة الثامنة من هذه الاتفاقية التي وقّعت عليها تركيا، تُفصل الدولة التي تتجاوز أحكام الإعلان العالمي لحقوق الإنسان من المجلس الأوروبي».

يروي هذا الفصل تصديق محكمة التمييز حكم الإعــدام وبدء خيري التمييز بين الأبيــض والأســود

لأن هذا المكان المدعو زنزانة دون نافذة، فلا يدخله ضوء النهار، ولأنه دون مصباح، لذا لايوجد فيه ليلاً ضوء كهرباء، وتغدو ظلمته الشديدة مع عتقها سنوات طويلة لصيقة في المكان التصاق اللحم على العظم، وهذا مايجعل المكان أصعب مما هو عليه أضعافاً. المكان المدعو زنزانة مظلم إلى حد عدم إمكانية إضاءته ولو قدحت فيه ألف قداحة، وأشعلت ألف عود. ولأن هذا المكان المدعو زنزانة لايوجد فيه ضوء، لذا لا توجد فيه ألوان. المكان المدعو زنزانة رطب، وساكن إلى حد أن هواءه عفن وصدئ. لو قبضت بكفك على هواء المكان المدعو زنزانة، والذي لم يجف في أي وقت وعصرته لقطر ماء. إذا استنشق الإنسان هواء هذا المكان المدعو زنزانة، المختلطة قذارته مع صدئه، ومايشربه مع ما يتبوله، ومايأكله مع مايتبرزه، فلا بد أن يختنق تسمماً. البقاء في هذا المكان المدعو زنزانة أكثر من شهر يحوّل دم الإنسان من الأحمر إلى الأصفر، ومن الأصفر إلى بياض القيح، وفي النهاية تسقط على وجهه شباك الموت.

كان وزن حلقة القيد في قدم خيري الحلاق، والسلاسل، والكرة الحديدية المعلقة بها حوالى ثمانين كيلوغراماً. ولكي يذهب إلى صفيحة البول التي على مبعدة قليلة منه فإنه بحاجة لجر القيد الذي يزيد وزنه خمسة عشر كيلوغراماً عن وزن جسمه. ولأن أكثر

المقيدين هنا لم يحاولوا حمل ثقل هذا القيد كله، ولو حاولوا فإن طول الوقت الذي قضوه مقيدين في هذا المكان أضعف قواهم فلا يستطيعون حمله، وهذا ماجعلهم يتبولون في مكانهم.

الأرض ترابية، ولكنها من كثرة البول والبصاق، ودوسها بالأقدام غدت بقسوة الحجر. ألقي عشب جاف، وتبن، وخرق، ونفايات فوق هذا التراب القاسي، مماجعل المكان مرتعاً للميكروبات.

انهار خيري الحلاق المرمي في الزنزانة مقيد القدم على الأرض بتأثير تعب ذلك الشجار المفاجئ بالسكاكين، وأسند ظهره إلى الجدار. بعد فترة خدرت قدمه المقيدة. كان من الصعب عليه التحرك لثقل السلسلة، ونتيجة الخدر غط فيما يشبه النوم. وفي ظلمة الزنزانة التي لا لون لها، لعدم وجود النور، بدأ يرى أحلاماً ملونة. وهكذا لم يدرك أنه بقي طويلاً حتى سمع وقع أقدام، وكلاماً في الخارج. سُحب المزلاج الحديدي، وفُتح الباب بصرير قوي نتيجة الصدأ المتكون من عدم استخدامه منذ فترة طويلة. ميّز القادمون طريقهم بوساطة شعلة ثقاب. كان القادمون هم أحد الحراس مع اثنين من مهجع المقطوعين. عندما وضع الحارس مصباحاً كهربائياً في مكانه، وأدار المفتاح، أُنير المكان. النور خافت، ولكن لايهم. كان على ظهر أحد المقطوعين فرشة صغيرة، وفي يد الثاني صينية طعام. في البداية كنسا الأعشاب الجافة، والتبن، وفتحا الفرشة، ثم وضعا صينية الطعام.

ـ هيا يا خيري، تناول طعامك!

كل شيء يجري كما تخيله خيري الحلاق من قبل. عندما ضرب أحدهم بالسيخ، ورُمي في الزنزانة، تغير فجأة وضعه في السجن، وحاز على الاعتبار. لهذا السبب رُكّب مصباح للزنزانة، وأرسلت له فرشة، وأُحضر له طعام. آغوات المهاجع والأقسام هم الذين فعلوا هذا. انضم إليهم فتوة آخر، وأصبح خيري الحلاق واحداً منهم.

المسجونون الخبثاء الذين يعرفون جيداً جرأة الأشخاص الجدد وإقدامهم، وجدوا أن كسب خيري الحلاق إلى جانبهم أفضل من جعله عدواً لهم، لذلك يعملون على كسبه.

سأل خيري الحلاق الحارس بتردد عن وضع إلهامي. هل مات؟ لم يمت إلهامي بعد، ولكن وضعه خطير. أرسل من عيادة السجن إلى المستشفى بعربة الإسعاف.

سيجد الحارس، والرجل المقطوع الذي سيجلب الإفطار صباحاً أن خيري الحلاق لم يلمس طعام العشاء.

هذه هي المرة الأولى التي بقي فيها خيري الحلاق مع نفسه في أعمق أعماق الوحدة التي سقط فيها. أعاد حساباته بينه وبين نفسه حتى ذلك اليوم من حياته. قال لنفسه «ماأدهش هذا!» إذ بينما يسقط هو في السجن بجريمة الاعتداء على عرض ولد، اعتدي على عرضه في السجن، والأسوأ من هذا، أنه استخدم بديلاً لامرأة عاهرة، ونُقّل من شخص إلى آخر. مع أنه لم يرد الاعتداء على عرض الولد، ولا اعتداء أحد على عرضه. وعلى الرغم من حمله كل هذا الحب للحياة، فقد فكر بقتل نفسه بعد كل هذه الإهانات التي تعرض لها. ولكنه لم يفلح. وعندما شعر بحلاوة هذه الروح القذرة، ولم يستطع الانتحار، استُهين به، ولكي يعيد إثبات ذكورته لمن حوله بات يشطط رياله للأولاد نزلاء مهجع الصبيان على الرغم من عدم قبوله في أعماق نفسه لهذا الأمر، وقيامه به للمظاهر فقط، متجولاً مع واحد أو اثنين منهم. ومع أنه لايمتلك قسوة ذبح دجاجة، ولايستطيع تحمّل رؤية الدم، تعطش لقتل سعران مثل كامل الكردي، ولكنه اضطر لقتل إلهامي الطوبهاني على الرغم من عدم إرادته عمل هذا. لقد أُجبر دائماً على القيام بأعمال لايريدها. ماهذا الذي حدث له؟ لماذا حدث له، ويحدث ماحدث؟ لماذا لايستطيع العيش كما يريد؟ آه لو كان هناك على وجه هذه الأرض من يستطيع أن يسأله هذه الأسئلة التي

تشغل باله، ولاتبارح عقله، ليدلُّه على الطريق الأسلم، ويفضي له مابداخله، ويثق به.

أراد أن يبكي، ولكنه لم يستطع. لم يشعر قبل هذه المرة برغبة في البكاء، ولم يعرف أنه يمكن للإنسان أن يريد هذا. لماذا لم يستطع الإمساك بنفسه عن البكاء أمام الجميع بعد أن طعن إلهامي الطوبهاني الشهير بالسيخ، على الرغم من عدم إرادته، والآن وهو وحيد لايستطيع البكاء رغم إرادته؟

في اليوم العاشر لدخوله الزنزانة تلقى خبراً أشد ألماً من كل الآلام. ماتت أمه. لم يكن له أحد غير أمه، كما لم يكن لأمه أحد غيره. لهذا فقد أبلغ الادعاء العام خيري الحلاق هذا بكتاب رسمي. عندما تلقى الخبر تفجرت ينابيع دموعه التي كان يعتقد أنها جفت. لقد بكى، وبكى حتى شعر أن الأقذار داخله تدفقت كلها مع الدموع، ومُسحت، وتطهر.

في صباح اليوم الخامس والثلاثين لإلقائه في الزنزانة نشرت أكثر الجرائد خبر تصديق محكمة التمييز لحكم الإعدام بحق خيري الحلاق، ذي الروح الوحشية الذي اعتدى على عرض طفل في السادسة من عمره، وخَنَقه. كما نشرت بعض الجرائد صور خيري الحلاق الملتقطة في جلسات المحاكم. لم يعرف خيري الحلاق هذا الخبر لأنه لم ير الجرائد التي نشرت هذا الخبر المتعلق به. ولكن المحكومين، والموقوفين في السجن قرؤوا هذا الخبر، وتناقشوا حوله. قابل من كان في السجن خبر عقوبة إعدام خيري الحلاق بهيجان كبير، وهم المبالغون بأبسط الأمور إلى حدود لايمكن الوصول إليها، ويعملون على إيجاد أخبار صغيرة تحرك حياتهم، وتبعث فيها الحيوية. كان كل شخص يطرح أفكاره، ويتحدث مبدياً رأيه في الموضوع.

كان نزلاء مهجع السادة يستمعون إلى السيد ذي النظارة،

الأكثر ثقافة في مهجعهم بفضول شديد، وينظرون إلى فمه مترقبين ماسيقوله حول الموضوع، وهو يقرأ في كتاب بيده محاولاً إثبات أن حكم الإعدام لاإنساني، وهو خارج العصر، وأنه في يوم ما سيُلغى، ويقبر في التاريخ:

«يقول فيكتور هيغو في رسالة أرسلها إلى امبراطور النمسا من أجل العفو عن مجرم ألقى قنابل في افتتاح معرض (تريست) عام 1882 وحُكِم بالإعدام. سيمحى حكم الإعدام من أحكام القرن العشرين. ما أجمل أن تطبق قوانين المستقبل منذ الآن!».

لعل حكم الإعدام سيلغى مستقبلاً، ولكنهم لايمنحون خيري الحلاق فرصة انتظار هذا المستقبل السعيد.

كان السيد ذو النظارة يقول بأن أحكام الإعدام في كثير من الأمكنة لاتنفذ بعفو خاص، حتى لو صدرت، وصَدّق عليها التمييز. إن الشاعر العظيم الفرنسي فيكتور هيغو القائل إن حكم الإعدام سيمحى من أحكام المستقبل، إنسان وجداني، حتى إنه بذل جهداً من أجل العفو عن محكومي الإعدام الذين لايعرفهم في دول أخرى، ونجح في هذا. كان السيد ذو النظارة يقرأ من الكتاب الذي بيده مايلي:

«كتب فيكتور هيغو إلى القيصر الروسي من أجل العفو عن العدميين المحكومين بالإعدام عام 1882: صوت لا على التعيين هو ليس لأحد من جهة، وللجميع من جهة. للجمهور الكبير الذي لا اسم له. انصتوا لهذا الصوت، فسيقول: (العفو). وأنا أصرخ من وسط الظلام: (العفو) هنا في الأسفل يقولون (العفو) وفي الأعلى أيضاً. أريد من الامبراطور عفواً من أجل الشعب، وإلا سأطلب من الرب عفواً من أجل الامبراطور».

سأل المستمعون بفضول كبير:

- ماذا حدث بعد ذلك؟ هل عفا عنهم القيصر؟

قال السيد ذو النظارة:

- نعم، لقد عفا القيصر عن خمسة مجرمين حكموا بالإعدام.

إثر هذا حمي النقاش. كأنه لايخرج عندنا كاتب يطلب العفو لخيري الحلاق... ولكن من أين لنا كاتب كهذا، كفيغتور، فيغتور مابعرف ماذا، مثله.. حسناً، ولكن من أولئك الأشخاص الخمسة؟ هل عملوا عملة في عرض ولد في السادسة من عمره، وولد ذكر أيضاً.. ذاك أمر، وهذا أمر... مهما يكن.. العفو عفو..

عندما قال السيد ذو النظارة إن حكم الإعدام قد ألغي في بعض الدول المتحضرة، عارض قاتل ثلاثة أشخاص من عائلة واحدة (زوجته، وحماته، وابنة حميه) ويُنظر في دعواه بطلب حكم الإعدام قائلاً:

- كيف يلغى الإعدام؟ أمر كهذا مستحيل! إقرأ، هاهي الجريدة تنشر الخبر. قطع البعض طريق الحافلة، وسلبوا كل الركاب، وبعد أن أطلقوا النار على شخصين قاوما، أخذوا ثلاث فتيات من الركاب إلى الجبل، واعتدى على أعراضهن عشرة أشخاص معاً. تعال، ولاتشنق أمثال هؤلاء.. لاياصديقي، لايمكن إلغاء حكم الإعدام.

قال السيد ذو النظارة بنضج لطيف:

- أصلاً لايلغى حكم الإعدام في دول يفكر أناسها بطريقتك. أنا الذي أقصده، الدول التي لايفكر أناسها مثلك... ثم إن الدول التي يوجد في قوانينها حكم الإعدام تبحث عن أساليب قتل دون ألم قدر الإمكان.

قال أحد المندهشين كثيراً:

- يقتلون الإنسان ياه.. وهل هناك مالايؤلم هذا الإنسان؟

قال السيد ذو النظارة:

ـ نعم يوجد ياسيدي. يقتلون الإنسان، ولكن الإنسانية لاتموت في أي وقت.. اقتل، ولكن اقتل بإنسانية..

ـ كيف يعني؟

ـ يمكن أن يكون الشعور بالألم للشخص المعدوم غير مهم، وحتى إنه غير مهم... لأنه كيفما كان سيقتل... ولكن هذا مهم للذي يقتله، والناس الذين يحضرون عملية قتله. يجب أن تكون الفرجة على إنسان يسلم روحه وهو يشعر بالألم، غير مستحبة...

قال الذي سأل السؤال قبل قليل:

ـ هذا يعني أنهم يعدمون دون ألم ليس من أجل المعدوم، ولكن من أجل المتفرجين..

ـ نعم إلى حد ما.. لهذا السبب فهم ينفذون حكم الإعدام في الدول التي لم تلغ هذا الحكم بعد بأساليب لاتُشعر بالألم، أو الأساليب الأقل إشعاراً بالألم. لدينا يشنق المرء مثلاً، وفي فرنسا تقص رقبته بالمقصلة الحادة، بالمقصلة المدعوة (غيوتين)... ولأن هذه المقصلة الإنسانية اخترعها فرنسي هو المسيو غيوتين، فقد أُطلق اسم غيوتين على تلك الأداة. وهناك في إسبانيا آلة لقبض الروح تدعى «غاروت».

ـ الله، الله... من يعلم كم من الآلات في هذه الدنيا لم نسمع نحن بأسمائها...

ـ «Elgarrot vil» تعني تماماً: آلة أخذ الروح. تطوق رقبة المحكوم بطوق حديدي. وفي هذا الطوق من الخلف برغي معدني يأتي على مؤخرة الرقبة، ويقوم الجلاد بإدخال البرغي مليمتراً مليمتراً. وهكذا يضيق الطوق الحديدي تدريجياً، ومع ضيقه يعصر نخاع عظم الرقبة..

خلال شرح السيد ذي النظارة أمسك الرجل الذي قتل ثلاث نساء

من أسرة واحدة، والمعارض لإلغاء حكم الإعدام، أمسك رقبته بيده اليمنى، وبدأ يدلكها دون انتباه.

قال السيد ذو النظارة:

- وبالضغط على الرقبة يموت.

- ياناس أين الإنسانية في هذا الأمر؟ إنه تعذيب واضح ياه.. تعذيب بالموت وتعذيب بالفرجة..

قال السيد ذو النظارة:

- ولهذا جانب إنساني أيضاً. لأنهم يلقون غطاءً أسودَ فوق رأس المحكوم عندما يصبح ضغط الطوق الحديدي على الرقبة غير محتمل، أي عندما يتجاوز الألم احتمال المحكوم لكي لايراه المتفرجون. وهكذا يختفي مايعانيه المحكوم من آلام تحت هذا الغطاء..

- وصوته؟

- لايستطيع الصراخ عندما تعصر الرقبة.

- هذا يعني أنهم لايطيقون الفرجة من دواخلهم. وليس من فراغ قولهم: «الإنسانية لم تمت بعد»..

استمر السيد ذو النظارة بالحديث ليجعل المعجبين بمعلوماته الواسعة حول ازدواجية الجنس، أكثر إعجاباً بما يحكيه عن الإعدام أيضاً:

- في بعض الدول الإسلامية يربطون المحكوم من يديه إلى خلف، ويجعلونه يجلس القرفصاء ويقطعون رقبته من الخلف بالبلطة، وفي بعضها الآخر يطيّرون الرأس بالسيف.. وفي كل ولاية من ولايات أمريكا، أي الولايات المتحدة الأمريكية ينفذ الإعدام بشكل مختلف. ولكن بشكل عام يربط الإنسان إلى مقعد كهربائي، ويعطى تياراً عالياً. ويموت الإنسان بلحظة.

ـ انظر، لايمشي هذا الأسلوب عندنا. لو كان عندنا لما مات أي محكوم بالإعدام. وهل الكهرباء التي تنير بصعوبة مصباحاً قوته خمسون شمعة تقتل إنساناً فجأة؟

ـ هذا يعني فجأة.. لايتركون له زمناً للشعور بالألم؟

ـ لايتركون.. وفي بعض الأمكنة من أمريكا يقتلون المحكوم بالغاز السام. يضعونه في غرفة الغاز.. ويضخون الغاز ببطء. وفي تكساس يحقنونه بإبرة سامة..

ـ أي أسلوب من هذه الأساليب أفضل؟

ـ هذه قضية داخلية للدولة، لاأحد يتدخل فيها.. هناك قاعدة في التعامل بين الدول: لاأحد يتدخل بشؤون أحد الداخلية.. أي أن حكومة كل دولة تقتل مواطنيها حسب قوانينها الخاصة.

عندما بدأ أحد المستمعين بالضحك، سأله الآخرون عن سبب ضحكه، فقال إنه عندما كان في الضيعة، كان عمه يضرب زوجته بالعصا ثلاث مرات في اليوم، ويصرخ بمن يحاولون منعه قائلاً: «زوجتي على سنة الله. أضربها إن أردت، أحبها إن أردت، أشنقها إن أردت، أفرمها إن أردت، ولايبقى لكم سوى أكل الخراء» والحكومة تقول: «المواطن مواطني. أشنقه إن أردت، أفرمه إن أردت، ولايبقى لكم سوى أكل الخراء»...

ـ حسناً ياسيدي.. أنت أعرف.. أي نوع من أنواع الإعدام هذه أكثر إنسانية؟

ـ سيدي، ليس بالإمكان مقابلة المنفذ فيهم حكم الإعدام فيما بعد لنفهم هذا. ليس الأكثر إنسانية، بل الأكثر متعة لابد أنه الشنق الذي لدينا.

ـ الأمتع! أرجوك لاتقل هذا.. ياناس، وهل يمكن أن يكون للشنق متعة؟

ـ يجب أن يكون هذا ممتعاً. لأنه حسب ماقاله المرحوم أستاذنا في كلية الحقوق في أحد الدروس، إن الإنسان عندما يشنق ينتشي، ويستمني. ينظرون إلى سرواله الداخلي فيما بعد، فيجدونه لزجاً.. ماذا يعني هذا؟ من الواضح جداً أنه يستمتع...

ـ الله، الله.. من يدري، لعل المسكين اعتقد نفسه في الحلم، وحلم حلماً شيطانياً للمرة الأخيرة في حياته.

لايُترك الذين تُصدّق أحكامهم في محكمة التميز بالإعدام، وتأخذ شكلاً قطعياً، في مكانهم، بل يرسلون إلى سجن آخر. وخيري الحلاق أيضاً سيُرسل. ولكن خيري سيشنق بعد سلسلة من الأعمال الرسمية. قبل أن يُشنق المحكوم بالإعدام في اسطنبول يرسلونه إلى سجن السلطان أحمد. ولهذا السبب، ولأن نفقات الذهاب والإياب كبيرة إذا أرسلوه إلى مسافة بعيدة، ولأن إداريي السجن لايريدون جعل الدولة تدفع نفقات دون مبرر، وجدوا أن من المناسب إرسال خيري الحلاق إلى سجن قريب، هو سجن باب الباشا في حي اسكودار.

في اليوم الأربعين لإدخاله الزنزانة، أُخرج خيري الحلاق، وأُركب في سيارة السجن الحمراء دون السماح له بالتكلم مع أحد من المحكومين أو الموقوفين. وأرسل إلى سجن باب الباشا في اسكودار، وبعد عيشه أربعين يوماً في الزنزانة أصبح جلد خيري الحلاق شفافاً، ولونه يميل إلى صفرة (الكهربار).

طلب مدير سجن باب الباشا خيري الحلاق بعد أن قرأ سجلّه المرسل من سجن السلطان أحمد، ووجد أنه محكوم بالإعدام، وطعنَ رجلاً قبل أربعين يوماً. طلبه ليقدم له النصح من جهة، ويخيفه من جهة أخرى. نصحه بأنه لن يستطيع إيجاد مصدر رزق له بسبب صغر السجن، وأنه لن يتهاون معه أو يتراخى إزاء تخريب نظام السجن، وأوصاه بعدم ارتكاب جرائم مثل لعب القمار، وتوزيع

الحشيشة والهيروييين، وحمل سيخ أو سكين، وإحداث المشاجرات، وجمع الأتاوات، ومقابل هذا سيعامل بشكل جيد جداً، ولن ينفذ بقية عقوبته في المنفردة إذ أنها لم تنته بعد. تحدث المدير الأبوي بحلاوة وقسوة، فقال:

- إذا بقيت عاقلاً أحميك. إذا أردت شيئاً تأتي مباشرة إليّ وتطلبه.

نُسي ماضي خيري الحلاق السيء، وغُطّي على القذارات التي في حياته، أصبح المحكي حوله فقط هو كيف طعن بالسكين سعراناً مثل إلهامي الطوبهاني. لقد خلقوا شخصية حكائية من خلال ماروي عن شهامته وجرأته، وقوته، وكرمه، ومهارته بطعن السكين، وسرعته، والأحداث الملفقة حوله. وكل مستمع لهذه الحكايات يروي للآخرين ماسمعه بعد أن ينفخ فيه.

تصرّف الفتوات الذين تقاسموا ساحة حياة سجن باب الباشا بحذر، ليحددوا موقفهم حسب موقف خيري الحلاق فهم لايريدون إفساح المجال لفتوة آخر بينهم. سينهون أمر خيري الحلاق، إن اضطر الأمر للعراك سيعاركون، أو للموت سيقتلون، إما مواجهة أو غدراً. ولكن خيري الحلاق الذي بقي في السجن مدة قصيرة لاتتعدى السنتين والنصف، غدا من المساجين المتمرسين، ابتعد عن نصب الكمائن، ولأنه لم يتدخل في شؤونهم، ولم يُرِهم مخالبه وأنيابه، رفعوه على الراحات، ووضعوه على رؤوسهم. نجح خلال فترة قصيرة في جعل الجميع يحبونه. سُرّ منه موظفو السجن، ومديره وحراسه. وعندما أصبح هكذا مُنح امتيازات لم تمنح لغيره. وكونه سجيناً بحكم ثقيل، وليس له عدو، فهو يستطيع التجول بحرية في أقسام السجن ومهاجعه كافة.

وقبل مرور شهر على مجيئه إلى هنا، خرج خيري الحلاق إلى مدير السجن برجاء، وهو السماح له بالذهاب إلى السجناء المقيمين

في المهاجع السياسية. كان في مهجع السياسيين ستة محكومين. لايسمح قطعياً لهؤلاء المحكومين السياسيين الستة بلقاء بقية المحكومين في السجن. لأنه كان يُخشى من السجناء السياسيين الستة أن يخرجوا مئات المساجين المحكومين بالسرقة وقطع الطرق، والتزوير، والسلب والاحتيال، والقتل، وتزوير العملة، وسرقة أموال الدولة، والرشوة، وآلاف الجرائم الأخرى، عن طريقهم الصحيح، ويُعدوهم بأفكارهم الخربة عبر بث الدعاية بينهم. وخيري الحلاق يريد التحدث إلى هؤلاء الستة الخطرين جداً، «حسناً، ولكن يابني خيري، ماذا لو أصابتك العدوى بأفكارهم القذرة تلك؟»، «حتى أنا، وأنا من أنا، أخشى من الحديث معهم بكثرة»، «ثم سيؤسف عليك يابني، سيؤسف على شبابك». لم يقل المدير الجزء الأخير من الكلام «حتى لو كنت ستعدم» لكنه فكر فيه.

عندما سأله مدير السجن عن سبب رغبته بلقائهم، قال خيري الحلاق إنه بسبب فضوله فقط يريد لقاءهم. عمل المدير وبلهجة حلوة على إفهامه أنه كيفما كان ليس هنالك فرق بين إعدام رجل قبل معرفته ستة مجرمين سياسيين، أو بعد معرفته لهم. مع هذا فكر أنه لاضرر من تأثير الدعاية التي سيعملها من في المهجع السياسي على رجل محكوم بالإعدام. ولأنه حتى ذلك اليوم لم يُقدم على أي تصرف مخالف للنظام، وحتى لايخالف له طلبه هذا فيدفعه إلى التمرد، لذا سمح لخيري الحلاق بالدخول إلى مهجع السياسيين، والخروج منه، لكنه طلب منه عدم نقل مايحكى هناك كيلا تنتقل الأفكار الضارة المُعدية إلى بقية المحكومين.

لم يكن الفضول وحده سبب رغبة خيري الحلاق في الحديث مع الذين في سجن السياسيين كما قال لمدير السجن. إذ أنه في الفترة التي أمضاها في الزنزانة شعر بأحاسيس لم يشعر بها من قبل وشعر بضرورة التعبير عن هذه الأحاسيس حتى وإن كانت غير موجودة في وعيه. كان في البداية يعبر عن هذه الأحاسيس المؤلمة،

والانسحاق عبر الأغاني الشعبية الحزينة جداً، فيما بعد بدأ يكتب كلمات لتلك الأغاني. وهكذا بدأ يكتب الشعر. وقد سمع أن أحد المحكومين الستة في مهجع السياسيين شاعر. أراد أن يُقرئ هذا الشاعر أشعاره، وأن يقرأ أشعار ذلك الشاعر، والتعلم منه كيف يكتب الشعر. إذا أفضى لمدير السجن برغبته هذه، فلا بد أن مدير السجن سيشرح له عن عدم وجود فرق بين الموت بعد كتابة الشعر، وقبل كتابته، وعدم الفائدة من كتابة الشعر لشخص سيعدم قريباً.

دخل خيري الحلاق إلى مهجع السياسيين برهبة ممزوجة بالاحترام. كان أحد المحكومين الستة يقرأ جريدة، واثنان يقرآن كتابين، وواحد يكتب، وواحد يمسح قواطع المبولات، والآخر يقشّر البطاطا. سلّم عليهم، وعرّف بنفسه. لم يقابل خيري الحلاق أحداً، لا في السجن ولاخارجه، رحّب به جيداً مثلما رحبوا به. عرف أن قارئ الجريدة عامل، وقارئ الكتاب شاعر، والذي يكتب موظف، والذي يقشّر البطاطا عامل، والذي يمسح طالب جامعي.

تردد خيري عليهم كثيراً. تبادل معهم الحديث، ودخل عالماً جديداً جداً لايعرفه أبداً. ولأن الآخرين يخاطبون العامل المسن بمعلمي، ناداه خيري أيضاً يامعلمي. إنه متماسك، قصير، عريض المنكبين، ضخم الجذع. رؤوس أصابعه القصيرة مدورة قليلاً. أراد أن يعتبره أباه الذي لم يره نهائياً. فكر خيري بمناداته بابا. يوم تعرف بهم سأله خيري الحلاق عن عمله، فقال المعلم إنه عامل. اعتقد خيري الحلاق أن من لديه كل هذه المعارف لايمكن أن يكون عاملاً، وعندما قال: «استغفر الله» ابتسم المعلم، وشرح لخيري بكلمات قليلة أن العمل أمر يُباهى به، وهو أمر مشرّف. مد يده ذات الأصابع الغليظة والقصيرة والمدورة الرؤوس قائلاً بتفاخر: «نحن نبني العالم، وكل شيء نحن نعمله ونوجده. وكل هذا بسيئاته وحسناته لنا..» كان المعلم يكبر بصوته. ومن الأحاديث التالية عرف

أن المعلم كان يوماً ما معلماً في مدرسة فنية، ولكنه يفخر بأنه عامل.

كان أولئك الأشخاص الستة هُم أول من شعر باحترام حقيقي نحوهم، وأحبهم من قلبه. في الأيام الأولى خشي خيري الحلاق، وبتأثير مدير السجن من الأفكار المضرّة التي من الممكن أن يُعدى بها. ولكن خيري الحلاق كان يتعلم، أثناء الأحاديث العامة، أشياء لايعرفها.

المعلم أكثر من اهتم بأشعار وهموم خيري الحلاق. أما الكاتب فنادراً ماكان ينضم للأحاديث، بل يبقى دائماً يقرأ ويكتب. كان خيري الحلاق سعيداً جداً بالاجتماع معهم. لقد غاص في عالم آخر، وأعطى نفسه للشعر إلى حد نسيانه قرار الإعدام الذي صدقته محكمة التمييز، الذي راح ينتظر الدور لموافقة البرلمان عليه، حيث سيعدم قريباً. ماعاد يفكر بمثل هذه الأمور السيئة. لأنه شعر لأول مرة في حياته أنه يمكن أن يفيد، وأنه قام بعمل مفيد.

لقد أخذ إذناً بالدخول إلى مهجع السياسيين متى يشاء، ولكنه كان يذهب متردداً. كان يشعر أنه يقلقهم. حتى إنه في إحدى المرات سأل المعلم عن ذلك بصراحة. قال المعلم برفقة ابتسامته الجميلة تلك، إنهم مسرورون لمجيء خيري إليهم. في بعض الأحيان يذهب إلى مهجع السياسيين، فيجلس بعد أن يلقي التحية منزوياً دون أن يفتح فمه، لأن الستة منهمكون بأعمالهم، ويلتزم الصمت حتى يبدؤوا هم بالحديث. كان يشعر بالراحة بين أولئك الناس في المهجع، حتى دون أن يتحدث أحد منهم.

تاق لمعرفة اسم الرجل الذي يناديه معلمي، ولكنه لم يسأل بأي شكل. في أحد الأيام عرف هذا تلقائياً. نادى الحارس المعلم لأخذ توقيعه من أجل معاملة رسمية قادمة من الإدارة باسم راغب، ووقع الكتاب الرسمي، فعلم أن المعلم راغب هو رئيس عمال في معمل الحبال من خلال بعض الأحاديث.

أدهشه كل مارآه وسمعه في مهجع السياسيين. اعتقد أن الشاب الذي رآه يمسح فواصل المبولات، في أول زيارة له، أنه يقوم بهذا العمل دائماً. وإذا به يكتشف أن التنظيف يتم دورياً. عندما دخل مهجع السياسيين في أحد الأيام، وجد ذلك المعلم الأبيض الشعر منحنياً على الأرض يمسح، فهرع نحوه قائلاً:

- العفو يامعلمي، اسمح لي أمسح عنك..

ولكن المعلم رفع رأسه عن الأرض، وبوجهه الباسم دائماً، قال:

- اليوم دوري بالتنظيف ياصديقي خيري. إذا وصلت إلى العمر الذي لايسمح لي بمسح الأرض، فلن يدعني الأصدقاء أقوم بهذا العمل.

عندئذ أدرك أن كل الأعمال تنجز في ذلك المهجع بالتناوب. أحياناً يمسح الموظف الأرض، وأحياناً الشاعر الصحافي... ولأنه على الأغلب يجيد طبخ الطعام، فالعامل الذي يطبخ الطعام لايتغير. أما تحضير الشاي، ووضع السفرة، والجلي فبالتناوب. الأمر الذي أدهشه أكثر هو قراءتهم الجريدة بالدور. الذي يقرأ الجريدة أولاً اليوم، يقرؤها الثاني في الغد، ويقرؤها الثالث في اليوم الذي بعده، وهكذا.

في أحد الأيام قال متسائلاً:

- معلمي، أليس لديكم من يقوم على الخدمة؟

في المهاجع الأخرى التي ينزل فيها عشرون أو ثلاثون شخصاً، يقوم بأعمال التنظيف كلها، والخدمات الأخرى شخص مخصص يساعده اثنان أو ثلاثة. وفي نهاية كل أسبوع تجمع النقود من نزلاء المهجع وتدفع للحوّاس الذي يقوم على الخدمة. الحوّاسون أشخاص لايمتلكون نقوداً، وليس هناك من يزورهم. وهؤلاء وجدوا طريق عيشهم بالقيام بأعمال الخدمة. الآغوات يختارون الحوّاسين من بين هذا النوع من الناس.

كانت آغوية سجن باب الباشا في تلك الأثناء بيد كلب يدعى رحمي الكبش. رحمي الكبش هذا رجل مربوع ونحيل. كان هنالك شيء من شبه بينه وبين إلهامي الطوبهاني، لكنه أكبر منه سناً، وأقل جرأة. هذا رجل متعطش للدم، أطلق النار على كثير من الرجال، وقتل بعضهم، لكنه قتلهم جميعاً بالحيلة والغدر. آخر عمل له ـ تسمى الجريمة هنا عملاً ـ هو طرح المدعو نوري الأبيض أرضاً بثلاث وعشرين طعنة سكين، طعنه إياها ستة من أنصاره أثناء حديثه مع أمه من خلف الشباك، حين هاجموه من الخلف. نوري هذا شهم طوله مئة وخمسة وثمانون سنتيمتراً، وهو في السادسة والثلاثين من عمره، أنهى عقوبته البالغة ثلاث عشرة سنة، وقبل أسبوع من إخلاء سبيله هوجم. لكي يجلس رحمي الكبش وحيداً، ولايخربط وضع السجن، منحه المدير عمل تشغيل صالون الحلاقة في السجن. لقد خطط رحمي الكبش للجريمة، ووضع أنصاره الستة في صالون الحلاقة. ولأن المرور من صالون الحلاقة إلى مكان الزيارة سهل، أطلق رحمي الكبش أنصاره الستة على نوري الأبيض في وقت زيارته، وطعنوه من الخلف. وهو متعطش للدم إلى حد أنه بدأ يفرم نوري الأبيض بالموسى كما يفرم البصل بعد أن انهار على الأرض بتأثير ثلاث وعشرين طعنة.

عندما جاء خيري الحلاق من سجن السلطان أحمد إلى سجن باب الباشا، كان الكلب المتعطش للدم، المدعو رحمي الكبش، قد أنهى عقوبة المنفردة، وخرج، ومن قلة الآغوات غدا آغا سجن باب الباشا، وهو يحاكم بتلك الجريمة. حين أتى خيري الحلاق اقتنع المحكومون جميعهم أنه لابد من الصراع بين خيري الحلاق ورحمي الكبش للتنافس على آغوية السجن. مع أن خيري الحلاق لايضع عينه على الآغوية، كما أن لديه بعض النقود التي ادخرها. كان لايقترب من أي عمل قذر من أعمال السجن. لايتدخل في شؤون القمار، ولايأخذ حصة من المضاربة بالقمار، كما أنه لايطالب بحق

الإعدام من بيع الحشيشة والهيروييين والأفيون. تأرق رحمي الكبش للغاية من عدم طلب خيري الحلاق هذه الأمور. في الأسبوع الأول لمجيء خيري إلى هذا السجن أرسل له رحمي الكبش مبلغاً كبيراً من المال. وأبلغه أن مثل هذا المبلغ سيرسل إليه دائماً. لكن خيري الحلاق قال لرجل رحمي الكبش الذي جلب النقود:

ـ قل له تسلم يا أخي رحمي، لاحاجة لي بالنقود الآن، ولكن عندما أحتاج سيكون هو أول من أطلب منه.

هذا ماجعل قلق رحمي الكبش يزداد. لأن هذا يعني أن عين خيري على بساط الآغوية، وسيتعاركان.

خلال مايقارب ثلاث سنوات اختمر خيري الحلاق مثل سجين مضى على سجنه ثلاثون عاماً، وفهم الوضع بسرعة، واتخذ احتياطاته وفق هذا. منذ اليوم الأول لمجيئه تطوّع أربعة أشخاص ممن يسنون أسنانهم ضد رحمي، ويعتقدون على الأغلب أن خيري هو الذي سيقف في مواجهته ويتغلب عليه، تطوّعوا رجالاً لخيري. ليس من السهل أن يكون لأحد رجاله، إذ لابد من الإنفاق عليهم.

كان لابد لخيري الحلاق من جس نبض رحمي الكبش، وظهرت هذه الفرصة لاحقاً. في أحد الأيام جاء إلى خيري محكوم تجاوز أواسط عمره، وقال إن أمامه عقوبة سبع سنوات، ولديه طفلان صغيران، وزوجة مريضة، وتوسل إليه قائلاً:

ـ أنا لادخل لدي ياأخي خيري. شغّلني حوّاساً في أحد المهاجع لأجد وسيلة للعيش.

تحقق خيري من الأمر، وبعد معرفته أن الرجل فقير حقيقة، أرسله إلى رحمي الكبش كي يجعله حوّاساً في مهجعه بالذات. وهذا يشير إلى أن رحمي إما يئس من خيري، أو أنه يلعب لعبة غدر.

أجاب المعلم على سؤال خيري: «أليس لديكم من يقوم على الخدمة؟» قائلاً:

ـ نحن نقوم بأعمالنا أفضل من الآخرين.

مرَّ شهران بعده. جاء شخص آخر إلى المهجع السياسي. مع مجيء السياسي السابع هذا حدث تغيير في جو المهجع. ظهر خلاف مع القادم الجديد حول قضية المشاركة في الطعام.

لكثرة تردد خيري الحلاق على المهجع السياسي بدأ يتعلم مشاكلهم تدريجياً، وبشكل تلقائي. قبل مجيء الشخص السابع كان يدفع كل منهم حسب مايمتلكه، أو يترتب عليه مبلغ من أجل مصروف الطعام. كل شخص منهم يحدد المبلغ الذي يستطيع أن يدفعه. وبالنقود المجموعة يُعَد الإفطار مع وجبتين أخريين في اليوم. وتُشرب الشاي مرتين في اليوم، وتشترى جريدتان. كان الصحافي الشاعر أكثر من يدفع من النقود المجموعة للطعام. كانت النقود التي يدفعها الصحافي ضعف مايدفعه المعلم راغب. فهم لايأخذون نقوداً نهائياً من الطالب الجامعي، لأنه لايمتلك نقوداً، ولاأحد يزوره. الموظف يدفع أقل بقليل من المعلم راغب. وأحد العاملين لايدفع نقوداً أيضاً. كان يضع الأطعمة التي تجلبها زوجته في أيام الزيارات في خزانة الأطعمة. ولخزانة الأطعمة هذه دخل قليل جداً. يجمعون الجرائد المقروءة ويبيعونها بالكيلو. يقدم في السجن لكل محكوم رغيف خبز، ولكن الستة يأكلون أربعة أرغفة في الوجبة، ويبيعون العشرة، أو الخمسة عشر رغيفاً المتبقية. وبهذه النقود يشترون مأكولات لخزانة الأطعمة.

عندما استدعي السياسي السابع إلى الإدارة من أجل عمل رسمي، تناقشوا في هذا الموضوع. قال السياسي السابع إنه لن يدفع نقوداً لخزانة الطعام. كانوا يناقشون أمر ضمه إلى طعامهم المشترك أو عدم ضمه. كان الصحافي يؤيد ضمه، والمعلم لايؤيده.

قال المعلم:

ـ هذا الرجل لايقول: «لن أدفع لأنني لاأمتلك نقوداً» بل يقول: «لن أدفع نقوداً للطعام»، علينا ألا نضمّه.

قال الصحافي:

ـ هو أيضاً محكوم سياسي، ومن الطينة نفسها التي نحن منها.

ـ ولكن ليس بيننا من يعرفه..

تناقشوا كثيراً. كان خيري يستمع إليهم بأذن صاغية. لم يستطع تحديد من الذي يجب أن يعطيه الحق، ولكنه عاطفياً كان مع المعلم. وإذا كان عامل واحد يقف مع المعلم، فإن العامل الذي يطبخ، والموظف، والطالب يؤيدون الصحافي. في النهاية صوتوا على الأمر. ونتيجة التصويت قرروا ضم الرجل السابع الذي لايعرفونه أبداً إلى الطعام المشترك، دون أن يدفع نقوداً. بعد قليل جاء الشخص السابع من الإدارة. ولأن المعلم هو الذي يدير النقاش، وهو الرئيس، فقد صرح بالقرار للرجل:

ـ بما أنك لم تدفع نقوداً للطعام المشترك، هذا يعني أنه ليس معك، أو أنها قليلة.. قررنا مع الأصدقاء ألا نأخذ منك نقوداً.. ولكننا سنأكل معاً.

قال الرجل بفظاظة نادرة:

ـ أنا آكل طعامي وحدي.

حدث صمت.

لم يعد خيري ذاك خيري القديم. قفز من مكانه بشكل لاإرادي... ولكن هذه قضيتهم.

قال المعلم:

ـ أنت تعرف ياصديقي، لن تدخل دور الجلي والطهو، ولكنك ستدخل دور التنظيف.

ـ أنا لاأدخل في دور، ولا (مور).

ـ ولكننا مضطرون لاستخدام هذا المكان كلنا. غرفة، وموزّع، ودورة مياه، وصنبور...

ـ أنا لاأفهم هذا..

كاد خيري الحلاق أن ينفجر، وبصعوبة أمسك نفسه.

كانت زوجة الرجل السابع ترسل له طعاماً من الخارج يومياً. ولأنهم في غرفة واحدة، كان يتناول طعامه على مرأى منهم جميعاً. كما أنه لايكنس ولا يمسح الغرفة ولاالموزع أو دورة المياه.

السياسي السابع سائق شاحنة في معمل. كان يملأ معدته بالطعام الملحم، وبأنواع المالح والحلو. أما الستة الآخرون فعلى الأغلب يتناولون نوعاً واحداً، وعلى الأغلب أيضاً دون لحم.

مر شهران أو لم يمرا. لم يعد يأتي للرجل السابع طعام من الخارج. ولم تعد زوجته تأتي لزيارته. في السجون لايبقى أمر سراً. عندما صدّق التمييز حكم السائق، رفعت الزوجة دعوى طلاق. لم يستطع السائق صبراً أكثر من بضعة أيام. في أحد الأيام دخل الدور تلقائياً. نظّف وجلى وقشّر بصلاً. ولكنهم لم يضموه إلى شراكة طعامهم. وفي يوم كان خيري الحلاق هناك، قال المعلم للسياسي السابع:

ـ ياصديقي عليك أن تأخذ الطعام الذي يوزعه الهلال الأحمر!..

لأول مرة لايعجب خيري الحلاق موقف المعلم منذ معرفته به: أيليق بالمعلم معاقبة مهبول؟

كان لايريد البقاء معهم في ساعة الطعام. ولكنه في ذلك اليوم انتظر بشكل خاص، وبقي حتى وقت الطعام.

وعندما كان السياسي السابع ذاهباً لأخذ طعام الهلال الأحمر ناداه المعلم، وقال له:

ـ ياصديقي خذ من المطبخ وعاءً كبيراً واذهب.

كان خيري يتابعهم، ويتابع ماسيحدث بدقة. نفذ السياسي

السابع ماقاله المعلم، إذ لم يعد يعاكس كما كان في السابق. بعد قليل عاد بالوعاء مملوءاً بطعام الهلال الأحمر. قال المعلم للعامل الذي يقوم بأعمال الطبخ:

ـ ياصديقي، من الآن فصاعداً سيأخذ كل يوم طعام الهلال الأحمر. وأنت تضيف ذلك الطعام إلى طعامنا. ممكن؟

قال الطباخ:

ـ ممكن. ليس فيه خصوصية تجعله يؤكل وحده، ولكن كيفما كان يوجد فيه قليل من السمن والملح، ورب البندورة، وماهو معروف... نضيفه إلى طعامنا.

دهش خيري الحلاق كثيراً لهذا الموقف.

كان دور وضع السفرة والجلي في ذلك اليوم على المعلم. وضع السفرة، صفّ الصحون، والشوكات، وجلب إبريق الماء والكؤوس، ووضع القدر الكبير على الطاولة، ثم قال:

ـ تفضلوا ياأصدقاء..

قال لخيري بشكل خاص:

ـ تفضل أيها الصديق خيري...

لم يوافقهم خيري الحلاق قبل هذه المرة على دعوتهم للطعام. كان يبدي عناية خاصة كيلا يكون هناك في وقت الطعام، ولكنه هذه المرة قال:

ـ تسلم يامعلمي!

وجلس إلى الطاولة.

أُضيف إلى سفرة طعام ذلك اليوم المشتركة شخصان: السياسي السابع، وخيري. كان خيري ضيفاً. أما السياسي السابع فهو بعد الآن سيأخذ كل يوم من الطعام الذي يوزعه الهلال الأحمر على الفقراء، ويشارك في الطعام. مرة أخرى كَبر المعلم راغب في نظر خيري الحلاق.

تناولوا في ذلك اليوم الرز المطبوخ إلى جانب البطاطا دون

لحم. شعر خيري الحلاق، بتناوله في ذلك اليوم من الطعام المشترك، أنه كُرِّم، أو أنه أصبح أعظم..

في أحد الأيام شهد خيري نقاشهم حول السجائر. لقد كان النقاش حاداً، إلى حد اعتقاد خيري أنه سينتهي بمشاجرة. اقترح الطالب الجامعي، والعامل الشاب، والسائق المنضم فيما بعد إلى شراكة الطعام، تدخين الجميع لسجائر الريف لأنها أرخص. حسب اقتراحهم، سيدخن كل شخص عشر سجائر ريف، والنقود الموفرة من ثمن السجائر ستضاف إلى شراكة الطعام. أكثر مالفت نظر خيري في هذا هو أن الثلاثة المقترحين تدخين سجائر الريف لايدفعون لشراكة الطعام. ولكونه الأكثر دفعاً لشراكة الطعام، قال الصحافي:

ـ أنا موافق على اقتراح المعلم مهما كان.

تحول خيري كله إلى آذان صاغية. تكلم المعلم ببطء:

ـ ياأصدقاء، كلما وقعت شراكة الطعام في السجن بمأزق يُفتح موضوع السجائر نفسه. حتى ظهر من يقول «يجب ألا يُدّخَن» ليس من السهل ترك العادة. ليس من المستحيل تركه، ولكن الأمر صعب جداً. ليس لأحد الحق أن يجبر الآخرين على هذا. أساساً نحن في وضع صعب. لقد رأينا أن القائلين: «يجب ألا يدخن» كانوا يدخنون سراً في دورة المياه. أي أريد القول إن السيجارة عادة. صديقنا اعتاد على تدخين السجائر الغالية. يمكن أن يعود إلى تدخين سيجارة الريف، ولكن اقتراحنا هذا على صديقنا، بالنسبة إلي، ليس صحيحاً. عندما يغيّر نوع سجائره فلن يستطيع العمل، أو القراءة، أو الكتابة، أو فهم مايقرؤه حتى يعتاد على السجائر الجديدة. بعد ذلك فإن تغيير نوع السيجارة يخرّب الصحة. لقد قلت لكم إن تجاربنا حتى الآن ترينا أنه ليس من الصحيح البحث كثيراً في موضوع السجائر.

طرح الأمر على التصويت. فاز اقتراح المعلم راغب. عندئذ قال الصحافي:

ـ أشكركم لأنكم سمحتم لي تدخين السجائر التي اعتدت عليها، والآن لدي اقتراح. أنا أدخن في اليوم علبتي سجائر، وسأدفع فرق ثمن سجائري عن ثمن سجائر الريف لشراكة الطعام...

دهش خيري الحلاق كثيراً لانتهاء ذلك النقاش الذي بدأ بحدة شديدة بهذه المصالحة، والتفاهم. والذي أدهش خيري الحلاق بشكل كبير جداً عدم قول: «اخرس ولا. وهل تدفع نقوداً لتتدخل في نوع دخان كل شخص» لمن اقترحوا ذلك الاقتراح. هذا يعني أن هذه الأعمال يمكن أن تحدث بهذا الشكل أيضاً.

أعطى خيري الشعر الذي كتبه للصحافي لكي ينصحه. وكلما سأله عن الأشعار، كان الصحافي يقول له:

ـ اكتب، اكتب ياصديقي خيري، اكتب..

في أحد الأيام سأله خيري إذا كان بإمكانه أن يكون شاعراً. وهل يمكنه طباعة كتاب شعر؟ أم أنه لن ينجح؟ هل عليه أن يترك الشعر؟

أجابه الصحافي الجواب التالي: يجب عدم ترك الشعر. عليك الاستمرار بكتابة الشعر. أما بالنسبة لكينونتك شاعراً، وإصدار كتاب شعر، ففي كل بلد من بلدان العالم عشرات الآلاف، ومئات الآلاف ممن يعزفون على الكمان أو البيانو، أو آلة أخرى. ولكن ليس كل أولئك عازفي كمان وبيانو، ولايحاولون كلهم تقديم حفلات موسيقية. فهم بالنسبة إلى من لايعرف يتذوقون الموسيقى أكثر، ويفهمون مايسمعونه في الحفلات الموسيقية أكثر. وهل تذوق أمر كهذا، وفهمه قليل؟ والشعر هكذا... ما كل من يكتب الشعر يمكن أن يكون شاعراً، ولكن بالنسبة لمن لايكتب فهو يتذوق الشعر أكثر.

لايستطيع من لايكتب الشعر تذوق ذاك الطعم، ولايستطيع ملاحظة أن هذا نقص كبير.

كان الصحافي يعطي خيري كتب شعر ليقرأها.

ماأكثر الذي تعلمه خيري من هؤلاء الناس في مهجع السياسيين، لكن كأنه لم يتعلم شيئاً، إذ لايدرك أنه يتعلم. كل مايتعلمه يتلقاه دون بذل جهد إضافي، بل من خلال الحياة، كما يتعلم الطفل لغة أمه...

يمر وقت المقيمين في المهجع السياسي وفق خطّ معينّ حدّدوه هم. كل يوم بعد الغداء يرتاحون، أو ينامون. بعد ذلك إما يناقشون موضوعاً كانوا حددوه سابقاً، أو يتحدّث أحدهم حول هذا الموضوع، بعد أن يكون قد حضّره. لم يكن خيري يفهم تماماً مايقولونه حول تلك المواضيع التي يناقشونها، ولكنه يشعر بكثير من الأمور. وبشكل خاص، لايفهم تماماً حديث العامل الشاب والصحافي والطالب الجامعي. كان يشعر بغرابة الكلمات التي يلفظونها. ولكن المعلم يتحدث بلغة بسيطة سهلة مفهومة. في إحدى مناقشات بعد الظهر طرح المعلم موضوعاً غريباً جداً على خيري. لقد تحدث المعلم عن أمر أسماه: «قانون التطور اللانهائي»، تحدث بشكل مسهب عن تغيير المجتمع والطبيعة، وضرب الأمثلة.. وقال: إن كل شيء، وكل ماهو موجود عبارة عن اتحاد عنصرين متناقضين. الوجود يعني كينونة شيئين متضادين، ويعني وجود أمر مضاد للآخر: تتصارع مفاهيم إيجابي ـ سلبي، أبيض ـ أسود، نظيف ـ قذر بشكل دائم، وتنتج شيئاً جديداً. وكل شيء جديد يحمل بذور نقيضه في داخله. وهذا هو الوجود، والتاريخ والطبيعة... لقد شرح المعلم كيف أن الوجود هو تطور لانهائي، واستمر بهذا الشرح أياماً. ماأدهش خيري كثيراً هو أن الأمور الجامدة فيها تطور. والإنسان بشكل خاص أكثر من يتطور بين المتطورات.

كان خيري يشعر بالتعب بعد سماع تلك الأحاديث، وكان دائم التفكير فيها.

في إحدى الليالي التي نام فيها متأخراً بتأثير تلك الأفكار، بدأ خيري الحلاق بعد منتصف الليل بالأنين والتخبّط والصراخ بكلمات غير مفهومة. كان يرتجف في السرير، ويلقي بنفسه من هنا إلى هناك. كاد أن يتدحرج من طابق السرير الثاني. كان يصرخ إلى حد إيقاظه من كان في المهجع، عقب ذلك، استيقظ مهجع رحمي الكبش الذي على طرف الممر، واستيقظت المهاجع الأخرى. كان اثنان من الأربعة الذين يحمون خيري ينامان في سريرين على طرفي سريره. أما الآخران فينامان في سريرين على طرفي باب المهجع. وهؤلاء أول من استيقظ على صراخ خيري. في البداية اعتقدوا أن خيري مريض، وتأتيه نوبات ألم، ولكنهم رأوا أنه يتخبط ويصرخ في نومه. نصحهم الشيخ عبد الرحمن الذي ينزل في المهجع قائلاً:

ـ أيقظوه، أيقظوه بسرعة.

الشيخ عبد الرحمن رجل من أصحاب الطريقة متدين للغاية، ولايخطو خطوة دون وضوء. وغير الأوقات الخمسة التي يصليها، يصلي النوافل في أوقات الفراغ. يسبّح بسبحة في يده دائماً، ولأنه يهمس بالدعاء تتحرك شفتاه دائماً أيضاً، لهذا السبب يظل شارباه ولحيته في حركة دائمة. لديه ثلاث زوجات وسبعة أبناء، وعدد لايعرفه من الأحفاد. كان رجلاً غنياً. لهذا السبب كان يُحمل على الراحات. وهو أحد الأشخاص الذين يحميهم رحمي الكبش. والشيخ عبد الرحمن يلبي كل طلبات رحمي الكبش، من نقود، وطعام، ولباس وغيره ويناديه برحمي أفندي. بدأت مشيخة الشيخ عبد الرحمن، وارتباطه بالطريقة بعد دخوله إلى السجن. جريمته كبيرة. أراد الزواج من فتاة جديدة شابة إضافة إلى نسائه الثلاث. وعندما رفض أبوها، ورفضت البنت، أمر رجالَه بخطف البنت، وأثناء عملية الاختطاف حدث تبادل إطلاق نار، ومات أخو البنت الأكبر، وأحد

أقربائها، وبهذا جرّم بالأمر، اختطاف فتاة وقتل.. ولم تقتصر جريمته على هذا، عندما لم ترغب البنت بتسليم نفسها للرجل العجوز، هاج مثل ثور، فخنقها. بعد أن دخل السجن، وتحت تأثير شيخ دخل السجن لمدة قصيرة، أعطى نفسه تماماً للدين والإيمان. أطلق لحيته، وغدا لايترك السبحة من يده، ولايرفع رأسه عن السجود. وانتقل إلى هذا السجن بناء على طلبه، بعد بقائه أربع سنوات في سجن ريفي.

عندما قال الشيخ عبد الرحمن:

ـ أيقظوه، أيقظوه بسرعة!

نهره بشكل خفيف أحد رجاله الأربعة الملتفين بدهشة حوله، قائلاً:

ـ ياأخي خيري، يا أخي خيري..

هذا مالايجب أن يعمل مع محكوم محاط بأعدائه. فجأة استيقظ خيري، وعندما رأى كل من في المهجع قياماً، نظر حوله محملقاً، وتحت تأثير الكابوس الذي رآه، وعدم الصحو التام من النوم، اعتقد أن أعداءه داهموه في هذا الوقت من الليل ليقتلوه. ففعل أمراً لم يتوقعه أحد، ولم ينتظر منه أحد أن يفعله. أطلق صيحة ترددت أصداؤها في أنحاء السجن، إذ فجأة ضرب الجدار خلف السرير بقبضته اليسرى، فانهار الطلاء الإسمنتي المدهون بالأبيض، وظهر الخشب من تحته. كان كل من في المهجع ينظر إليه بدهشة. أنزل لكمة أخرى على الأخشاب الرفيعة في الجدار، وعندما تساقط الطلاء الإسمنتي المتبقي في المكان، دس يده في الفتحة المشكّلة، وأخرج مسدساً. هذا يعني أنه اتخذ الاحتياطات اللازمة للدفاع عن نفسه إزاء هجمة محتملة لحماية حياته. لاأحد يعرف حتى تلك اللحظة أن الجدار تحت الطلاء الإسمنتي هو مخبأ خيري. قبل أسبوع فقط، وفي صباح باكر جداً، داهمت الجندرمة المهاجع، وفتشت عن الأسلحة.

صادرت كثيراً من السكاكين، والأسياخ، والقبضات المسننة، ومسدساً، ولكن لم يُقبض على أي مسلح من جماعة خيري الحلاق. لم يخطر ببال أحد أنه سيحفر الجدار، ويخبئ مسدساً، ويعيد طلاء الجدار بالإسمنت بحيث لايظهر لأحد.

في هذه الأثناء صحا خيري، وتخلّص من تأثير الكابوس، فسأل بصوت خفيض، والمسدس بيده:

- ماذا يجري؟

قال له أحد رجاله:

- لاشيء ياخيري آغا. كنت تصرخ، وتتخبط في نومك، قلنا لنوقظه. وبأداء آغوات السجن تماماً قال خيري:

- هيا ناموا، ناموا...

ومع إخراج خيري الحلاق المسدس من تحت أخشاب الجدار، دس الشيخ عبد الرحمن رأسه تحت السرير، وانسلّ من هناك دون أن يراه أحد، ثم اندس في مهجع رحمي الكبش. كان جميع من في ذلك المهجع أيضاً قد استيقظوا على الصراخ، والضجيج. ولأن آغا السجن يشعر بالخوف على روحه دائماً، كان رحمي الكبش ينام مثل ابن آوى. اعتقد رحمي الكبش أن خيري الحلاق سينظّم مداهمة، خاصة عندما علم من الشيخ عبد الرحمن بإخراج (ماكينة) - أي مسدس - من مخبئه في الجدار. عندئذ فهم أنه يجب عدم إطالة هذا الموضوع، وإنهاؤه في أقرب فرصة. لابد له من إنهاء خيري.

ارتدى خيري ثيابه، وتسلّح، ثم خرج إلى الممر، وبدأ يتمشى. اثنان من رجاله ينتظران على أهبة الاستعداد في المهجع، والآخران يتمشيان خلفه. قال لهم خيري:

- هيا اذهبوا، وناموا...

كان يتمشى وحده. أمر مستحيل، لدى خيري هذا قلب مثل منقل

الجمر. وخاصة عندما خرب طلاء الجدار الإسمنتي بضربة من قبضته، وأخرج الماكينة من مخبئها، كبر خيري كثيراً في أنظارهم. هكذا يجب أن يكون الآغا المسمى آغا. إذا قلت قلباً، فهو قلب، وإذا قلت ذراعاً، فذراع.. ولكن المساجين القدماء أصحاب التجربة يشرحون أن الآغوية في السجن لاتستمر بالمروءة، والشهامة، وأن هناك كثيراً من الشهوم قد عفست رؤوسهم بالغدر والخيانة، والرذيلة..

لقد تمشى خيري تلك الليلة في الممر حتى الصباح. ورحمي الكبش، ورجاله أيضاً لم يناموا حتى الصباح وهم متحفزّون، على أهبة الاستعداد. كان رحمي الكبش ورجاله تحت تأثير حلاوة الروح. ولكن خيري الحلاق، تحت تأثير ذلك الحلم المزعج، لم يصل إلى الصباح إلا بصعوبة. عندما فُتحت أبواب المهاجع ذهب إلى مهجع السياسيين من الصباح الباكر. شعر المعلم فوراً أن خيري غير طبيعي، فسأله قائلاً:

ـ مالك يا أخي خيري، وضعك غير طبيعي؟

حين طأطأ خيري رأسه وسكت، فهم أنه يريد التحدث إليه وحده، فتأبطه من ذراعه، وخرجا إلى الموزّع.

ـ احك ياصديقي خيري.

وبصوت هامس قال خيري:

ـ أتعرف بأية جريمة أعاقب يامعلمي؟

المعلم كما الجميع سمع بالأمر، فقال:

ـ نعرف بعض الأمور.

قال خيري:

ـ مساء البارحة رأيته في نومي.

ـ من.

ـ أبا الولد الذي خنقته..

كان صوته يرتجف، وعيناه مغرورقتان. جلسا متجاورين على المقعد الخشبي في الموزّع. لقد رأى ذلك الرجل ذا العينين الزرقاوين، الشهلاوين، وكما كان يفعل في السابق، فهو يغتصبه. الحادثة تجري في حمام سجن السلطان أحمد. كان خيري في زمن الآغوية قد سحب السيخ، وفي اللحظة التي سيقفز فيها على ذلك الرجل ذي الوجه المتعرق بالبخار، تحول إلى كامل الكردي. سحب كامل الكردي سكينه، وتعاركا، فدخلت أمه بينهما. كان في حضن أمه طفلاً. الطفل ميت. وهذا الطفل هو الطفل الذي خنقه. راحت أمه تتوسل إليه، وتعيقه عن ضرب السيخ. كلما حاول الهجوم بالسيخ تظهر أمه أمامه، وفي حضنها الولد الميت.. ولخوفه من أن يجرح أمه بالسيخ، لايستطيع ضرب كامل الكردي، ولكن كامل الكردي يطعن خيري دون توقف، لابد أن التخبط والأنين والصراخ حدث في تلك الأثناء.

بكى خيري بعد أن قصّ رؤياه، وبصعوبة أمسك عويله.

شرح له المعلم مطولاً أنه ليس مجرماً حقيقياً، وشرح له من هم المجرمون الحقيقيون، إنهم أولئك أصحاب امتياز السجن، الذين يتجولون في الخارج ملوحين بأيديهم وقد وكلوا غيرهم بالسجن مكانهم. وأولئك أيضاً ليسوا مجرمين حقيقيين تماماً، حسب كلام المعلم، لأن المجرم الحقيقي هو السبب الذي أوجد الجريمة والمجرم. نعم، لقد ارتكب جرماً، ولكن يجب ألّا يعد ماارتكبه جرماً.

قبّل خيري يد المعلم راغب.

عندما خرج من مهجع السياسيين، قال له الحوّاس:

- يا أخي خيري السيد المدير يريدك.

لأن مدير السجن رجل عجوز ولم يبق له الكثير ليحال على التقاعد فهو لايريد تسرّب أي شيء من السجن، كما أنه مدير جيد. لذا أجلس خيري على المقعد بعد أن أدخله غرفته.

أحداث الليلة الماضية لابد أنها وصلت منذ الصباح الباكر إلى المدير. ومن المؤكد أن خيري يعرف هذا. ولكن المدير تظاهر بعدم المعرفة، ولم يذكر حادثة الليلة الفائتة. وبما أن المسدسات والسكاكين ظهرت في كلا المهجعين، حتى لو لم تستخدم فهذا يعني أن خيري، والبلاء المدعو رحمي الكبش لن يبقيا مكتوفين. وبما أن الصراعات هنا تنشأ بسبب المصالح، لابد من إيجاد مصدر دخل لخيري الحلاق، فقال:

ـ يابني خيري، أنا مسرور منك كثيراً. لم تخرق أية قاعدة من قواعد نظام السجن حتى اليوم. ومن جهة أخرى عقوبتك كبيرة.. لابد من إيجاد مصدر رزق لك هنا. فكرت بهذا الأمر كثيراً، وبما أن مهنتك الحلاقة، أقول عليك أن تدير صالون حلاقة السجن.

هدفه الأساسي ليس إعطاءه صالون الحلاقة. ولكن لمعرفته أنه سيُرسل إلى سجن السلطان أحمد، إنما يريد أن يجعل هذا البلاء عاقلاً، وينيّمه.

قال خيري:

ـ تسلم ياسيدي المدير، لاأستطيع.

ـ لماذا يابني؟

ـ هنالك الكثير من الذئاب الجائعة وضعت عينها على ذلك المكان، أنا لاأريد وضع رأسي في البلاء.

وأثناء قوله هذا لم ينس أن يفكر بالرجال الأربعة الذين وضعوا أنفسهم تلقائياً تحت خدمته.

اعتبر المدير أن رفض شخص برز اسمه في الآغوية، وهو محكوم بالإعدام، قص شعر هذا وذاك، أمراً طبيعياً، فقال:

ـ يا بني خيري، لن تحلق أنت.. ضع الرجل الذي تريد هناك ليعمل حلاقاً. أنت ستديره فقط.

ـ لا، أنا لاأتحرج من عمل الحلاقة. سأقوم بها بنفسي، وهذه مهنتي.

ألح المدير كثيراً، فقبل خيري. كان سيستلم صالون الحلاقة بعد عشرة أيام ويبدأ العمل.

المدير يعرف أن خيري الحلاق كيفما كان سيُرسل من هنا قبل مرور الأيام العشرة، ويعرف هذا من الكتاب الوارد له بهذا الخصوص. فُتشت المهاجع بدقة كبيرة. ورجال خيري الأربعة كانوا أكثر من فُتش. وخيري العارف أنه من المؤكد سيحصل هذا التفتيش، اتخذ احتياطاته مثل سجين ماهر، ولم يعط لأي من رجاله هؤلاء سلاحاً. راح شاويش الجندرمة ينقر على جدران المهجع بعقب البندقية، فإذا صدر صوت فراغ منها يأمر بحفر هذه الأمكنة. أما الثقب الذي أخرج منه خيري المسدس قبل يومين فقد أُغلق منذ زمن وستر، وأصبح من الصعب تمييز مكانه عن مكان آخر. وفي هذا التفتيش على الرغم من إيجاد الكثير من المسامير الضخمة، والأسياخ، والسكاكين، والأمواس، لم يُصادر أي سلاح لخيري. وحسب التقاليد، لايُضغط كثيراً على محكوم الإعدام. لهذا السبب لم يضغطوا على خيري الحلاق. الأفضل «النوم دون إيقاظ الأفعى».

كان رحمي الكبش ينصب شباك غدره لإنهاء أمر خيري الحلاق. وأوعز للشيخ عبد الرحمن أن يقيم علاقة يقترب بها من خيري الحلاق. ولاتنتهي مهمة الشيخ عبد الرحمن بهذا، بل أرسل إخباراً لمدعي عام التنفيذ، وبتحريض من رحمي الكبش. الإخبار يقول إن بعض المحكومين يقيمون علاقات مع السياسيين الممنوع قطعياً لقاؤهم مع بقية المحكومين. والسياسيون يعملون دعاية من أجل نشر أفكارهم السامة. والمدير هو الذي تغاضى عن هذا الأمر.

تجول المدعي العام الذي تلقى الإخبار في مهجع السياسيين، ونظر إلى الكتب التي يقرؤونها، ثم ألقى نظرة على ماكتبوا من

نصوص، وملاحظات، وعند خروجه أمر مدير السجن مجدداً أن يمنع قطعياً لقاء السياسيين بالآخرين.

كان المدير يدعو ربه في داخله، ويتمنى لو يصدر أمر نقل خيري هذا إلى سجن السلطان أحمد. لو ذهب لارتاح رأسه. وذهاب خيري من هنا يعني اقتراب يوم إعدامه، وبلوغه مرحلة قطعية.

كان الشيخ عبد الرحمن يعمل على إقامة صداقة مع خيري الحلاق، ليس بناء على طلب رحمي الكبش فقط، بل نتيجة خوفه وانسحاقه تحت وطأة عمله كمخبر. دعاه إلى طعام الغداء. كان على الأصح حفل غداء: فروج مقلي، أرز باللحم، سلطة، معجنات، وكثير من اللبن الرائب... من طرف الشيخ عبد الرحمن لم يكن هناك سوى رجلين يخدمانه بشكل شخصي. وخلال الطعام كان الرجلان لايتوقفان من أجل خدمة الرجل. كان الشيخ عبد الرحمن يجيد الحديث، ويتحدث بطلاوة، ويعرف كيف ينتزع إصغاء الآخر له. يجعل الآخر ينظر إلى فمه وهو يحكي. أثناء طعام الغداء ذاك حكى لخيري أشياء جميلة جداً. وخاصة الحادثة التي حكاها خلال احتساء القهوة، والتي أثرت بخيري الحلاق كثيراً. كان عليه أن يحكي تلك الحكاية للمعلم. لأن في تلك الحكاية درساً يؤخذ عبرة.

عندما انتهى وقت راحة السياسيين، ذهب خيري الحلاق إلى الندوة، وطلب إرسال عشرة كيلوغرامات من العنب لهم. قبل ذلك أرسل بندورة مرتين. عندما قال له المعلم راغب لاضرورة لإرسال هذه الأشياء، قال له:

- ولكنني شربت الشاي عندكم كثيراً، وأكلت معكم.

بعد إرساله العنب بقليل ذهب إلى مهجع السياسيين. كان يريد أن يحكي كل ماسمعه من الشيخ عبد الرحمن. يريد هذا من كل قلبه. ولأنه لايستطيع أن يدخل في نقاش مثلهم، ولايستطيع تحضير حديث يقدمه لهم، فإنه يستطيع أن يحكي تلك الحكاية الجميلة والمعبرة.

كان فرحاً بداخله لأنها المرة الأولى التي سيحكي لهم جميعاً حادثة كهذه.

ـ حكى لي الرجل الذي ينادونه الشيخ عبد الرحمن عن حادثة تؤخذ منها عبرة كبيرة... ويالها من حادثة معبرة، ومؤثرة ويؤخذ منها درس... وحسب قوله فإن هذه الحادثة وقعت حقيقةً.

سأل المعلم قائلاً:

ـ ماهي؟

بدأ خيري بقصها. والسياسيون السبعة يستمعون إليه. وبالشكل الذي حكاه الشيخ عبد الرحمن فقد دخلت الكلمات واحدة واحدة إلى رأسه، وحكاها كما شي

«في يوم من الأيام، كان هنالك اتحاديون، وهؤلاء حزب يدعى حزب الاتحاديين. وفي قديم الزمان، أي قبل أن تنفجر الحرب العالمية الأولى... كان هناك حكومة تحكم، شكّلها هؤلاء الاتحاديون. وكان هناك شيخ إسلام قريب من الاتحاديين يدعى موسى كاظم أفندي.

لشيخ الإسلام موسى كاظم أفندي هذا صديق يعيش في الريف، ولصديقه هذا كثير من الأولاد، ولايستطيع الإنفاق عليهم جميعاً. أعطى مصروف سفر لأذكى أولاده، وقال له:

ـ هيا يابني، اذهب أنت إلى اسطنبول، اقصد عمك شيخ الإسلام موسى كاظم أفندي، وبلغه سلامي. هذا رجل لامطالب له، ولاينسى صديقه القديم. قل له إنني لم أعد أستطيع تعليمك. واشرح له وضعنا. وليدلك على طريق...

جاء الشاب إلى اسطنبول، وسأل وبحث، ووجد بيت شيخ الإسلام موسى كاظم أفندي، وذهب إليه، وقال له إنني ابن الشخص الفلاني. وحسب التقاليد القديمة، عندما يدخل الشخص من الباب يخلع حذاءه، ويضعه في خزانة الأحذية. وصل إلى غرفة موسى

كاظم أفندي، وقبّل يده، وبلّغه كلام والده. إثر هذا سأل موسى كاظم أفندي الشاب بعض الأسئلة ليعرف أي الأعمال يريد القيام بها. فهم مايريده الشاب، وسيجد له عملاً مناسباً. قال له عن ذاك العمل، فلم يحببه الشاب. قال له عن عمل آخر، لم يحببه الشاب أيضاً.. كان الشاب يعطي أجوبة لامبالية دائماً. ولم تؤخذ أية نتيجة من هذه الأحاديث. كيف يمكن إيجاد عمل لإنسان لارغبة لديه كهذا. طلب الشاب الإذن من موسى كاظم أفندي، وقبّل يده، وأثناء لبس حذائه عند الباب، قال له موسى كاظم أفندي:

ـ قف يابني. لم أستطع إيجاد عمل مناسب لك، ولكن على الأقل سأحكي لك حكاية لعلها تنفعك في أحد الأيام...

وعندئذ حكى له هذه الحكاية:

أحد الشيوخ كان يعطي دروساً في مدرسة المكان الذي يقيم فيه من جهة، ويعمل قاضياً من جهة أخرى. في تلك الفترة كان القاضي الذي يُصدر حكم الإعدام يتواجد أثناء التنفيذ. في أحد الأيام قال الشيخ للأولاد الذين يتعلمون في المدرسة:

ـ غداً سأكون في ساحة الحكومة كقاض أثناء إعدام أحد المجرمين، لذلك لن آتي إلى دروس قبل الظهر، ولكنني سآتي بعد الظهر. اقرؤوا دروسكم وحدكم حتى أعود.

صباح اليوم التالي لم يأت شيخهم إلى الدروس. فذهب طلاب العلم إلى ساحة الحكومة بفضول رؤيتهم تنفيذ حكم الإعدام. نصبت المشنقة، وكل شيء جاهز. أشاروا للقاضي نحو الرجل الذي سيعدم، وسألوه:

ـ أهذا هو الذي حكمتموه بالإعدام؟

قال القاضي:

ـ نعم، إنه هو!

وضع الجلاد حلقة الحبل المزيّت في رقبة المجرم. وعندما رفس الجلاد الكرسي الذي تحت قدمي المجرم، تأرجح المجرم بالحبل. وسقطت إحدى فردتي الحذاء الممزقة من قدم الرجل المشنوق على الأرض. كانت القدم عارية، ومنتفخة وقذرة. هرع السيد القاضي بسرعة نحو الرجل المعلق على الحبل، وقبَّل قدمه العارية التي سقطت منها فردة الحذاء. حين رأى طلاب العلم أن شيخهم قد فعل هذا، قبّلوا بعد شيخهم قدم الرجل المعلق على الحبل. فغضب القاضي من طلابه، وصرخ بهم قائلاً:

ـ آه منكم ياقوادين! لماذا تقبلون قدم جثة سافل معلقة على المشنقة.

فقالوا له:

ـ رحمتك ياسيدنا، عندما رأيناكم تقبلون قدم تلك الجثة، قلنا لأنفسنا لابد أن في هذا الأمر كرامة، وأن هناك قداسة لهذا الرجل المشنوق، ولابد أن هناك معنى سرياً خلف مظهره الإجرامي ليقبّل شيخنا قدمه، فعملنا كما عملت.

إثر هذا قال الشيخ لطلابه:

ـ ليجازكم الله! سأشرح لكم سبب تقبيلي قدمه، وافهموا... كان علي أن أحكم على هذا الرجل بالإعدام قبل مدة طويلة. ولعل هذا سبّب لي ذنباً عند الله. منذ أن كان هذا الرجل ولداً سرق من خم الجيران بيض الدجاج. ومنذ ذلك الوقت قبض عليه، وجُلب إلي. قلت له: «لاتعد إلى ذلك يابني، إذا سرقت مرة أخرى سأجعلهم يجلدونك في الساحة..» ذهب. مرة أخرى جلبوه إلي بسرقة دجاج. أمرت بجلده في ساحة الحكومة، وقلت له: «احذر يابني من السرقة مرة أخرى. ليكن هذا درساً لك. إذا عدت للسرقة سأنفذ فيك حكم الشريعة، وأقص أصابعك..» ذهب. بعد مدة أخرى جُلِب إليّ مرتكباً جريمة السرقة. أمرت بحكم الشريعة وهو قصّ أصابعه، وقلت له:

«يابني أنا قلت لك يجب أن تتخلى عن السرقة. إذا قبض عليك بجريمة السرقة مرة أخرى سأقطع لك يدك من الرسغ..» لم ينفع كلامي هذا كله، ولانصائحي. مرة أخرى سرق، قُطعت يده. قلت له: «تخلَّ عن السرقة، بعد هذا أمامك المشنقة. ستدفع روحك ثمناً. سآمر بإعدامك..» ولكنه سرق مرة أخرى. وهاهو كما ترون قد شُنق. كيف لاأقبّل قدم هذا الرجل، وهو يعرف أن نهاية الطريق الذي يسلكه هو الشنق، وكأنه قال: «هذا هو طريقي..» وأخذ الشنق بعين اعتباره، ولم يَحد عن طريقه، وذهب في هذا الطريق إلى نهايته. لهذا السبب قبلت قدم تلك الجثة. أما أنتم فلماذا تقبلون أيها القوادون قدم جثة هذا السافل...».

سكت خيري الحلاق. ابتسم. كان يأمل أن يُعجَب من في مهجع السياسيين كثيراً بهذه الحكاية التي رواها الشيخ عبد الرحمن، والتي أعجبته، ولكن لم يصدر صوت عن أحد. فوق هذا كان يشعر أنه بقص هذه القصة يدفع ديناً مقابل ماسمعه منهم طوال الوقت، ولكنهم سكتوا. حزن خيري. ومن أجل أن يقول كلاماً ما، سأل:

- كيف وجدت هذه الحكاية يامعلمي؟

قال المعلم راغب:

- يبدو أنك أحببت هذه الحكاية كثيراً.

- نعم..

- لنتحدث حول هذه الحكاية إن أردت.. ماذا وجدت في هذه الحكاية حتى أحببتها؟

- رجل لايعود عن طريقه. حتى الموت أخذه بعين الاعتبار، وماعاد عن طريقه.. هذا ماجعلني أحبها.

قال المعلم راغب:

- فهمت أن هذا قد حببك في الحكاية. أمر جميل ألا يعود

الإنسان عن طريقه الذي اختاره، وماأجمل أن يأخذ الموت بعين الاعتبار، ولايحيد عن طريقه... ولكن تعال لنر، هل هو الذي اختار هذا الطريق؟ هل اختار الرجل المشنوق بجريمة السرقة هذا الطريق بإرادته؟ أم أنه انحرف إلى طريق السرقة دون إرادته؟

قال الطالب الجامعي:

- لو كان الخيار بيده، فلابد أن أمام الإنسان كثيراً من الخيارات التي يمكن له أن يختارها، ولاأحد يختار السرقة...

قال الصحافي إثر هذا الكلام مضيفاً:

- ماعدا المرضى النفسيين..

قال العامل الطباخ:

- هنالك أمر آخر، ذلك السيد القاضي يكرر دائماً: «لاتسرق يابني، إذا سرقت، سأعمل كذا، وكذا..» وينصحه، ولكن أليس لديه فضول ليسأل: «يابني لماذا تسرق؟ انظر ها أنا قطعتك، فرمت أصابعك، قطعت كفك.. لماذا مازلت تسرق؟»،

قال المعلم راغب:

- هناك الكثير من الحكايات الجميلة التي ترينا الأخطاء لأول وهلة صحيحة، وهذه واحدة من تلك الحكايات.

قال الصحافي:

- يسمى هذا النوع من الحكايات (ديماغوجية).

تدخّل الموظف بالحديث على الرغم من عادته بقلّة الكلام:

- اسمع ياصديقي خيري، في هذا السجن كثير من المحكومين. هل ارتكب هؤلاء جرائمهم باختيارهم، وبإرادتهم؟ الإنسان يعمل على ألا يعيد الخطأ الذي يرتكبه بحق الإنسان الآخر. الإنسان الذي يعود عن أخطائه هو إنسان حقيقي. أما بالنسبة إلينا، أي نحن

السبعة في مهجع السياسيين، فإن مافعلناه، وأدخلنا السجن، عملناه باختيارنا.. يمكن لنا ألا نفعله، ولكننا أردنا فعله. هذا طريق، ونحن نؤمن بصحة هذا الطريق، لأنه.. أنا أتكلم عن نفسي، إذا أدركتُ خطأ هذا الطريق سأتغيّر.

قال المعلم راغب:

- الإنسان أكثر المتغيرات تغييراً، من الضروري أن يتغير..

ولخّص ماتحدث عنه سابقاً في يومين أو ثلاثة.

فهم خيري مايجب أن يفهمه من هذه الكلمات.

شكره المعلم من أجل العنب، وتمنى ألا يقدم على أعباء مثل هذه في المستقبل، وفي المساء كان وقت شرب الشاي. شرب الشاي معهم، وخرج خيري من مهجع السياسيين.

قال المعلم راغب لأصدقائه:

- أي رجل سافل هذا المدعو الشيخ عبد الرحمن، ليحكي حكايات كهذه لشاب محكوم بالإعدام... تفووو!

قال الجامعي:

- ماذا يريد أن يقول؟ على كل شخص ألا يحيد عن طريقه، وهذا المسكين خيري يجب أن يستمر بخنق الأولاد؟!

قال المعلم:

- اسكت يابني، اسكت...

عندما خرج خيري من مهجع السياسيين، قال له الحارس المناوب الذي التقى به:

- السيد المدير طلبك!...

وصل خيري عند المدير، وقال:

- طلبتني أيها السيد المدير..

ـ اجلس يابني خيري.. أنا أحبك. أنت لاتشبه الآخرين.. بعد عدة أيام ستُسلم صالون الحلاق إن شاء الله.

ـ تسلم أيها السيد المدير..

ـ مقابل هذا لي عندك طلب.

ـ تفضل.

ـ لن تذهب بعد الآن إلى مهجع السياسيين.. هذا أمر قطعي أصدره الادعاء العام..لقد اشتكوا عليّ..

ـ وهل هذا مقابل استلام صالون الحلاقة؟ سأله ثم أضاف:

ـ وإذا لم آخذ صالون الحلاقة؟

ـ ستأخذه.. ذاك أمر، وهذا أمر آخر.. ستقع لنا المشاكل بسبب هذا الأمر.. يابني خيري، ستبلوني أنا أيضاً..

أثناء حديثه مع خيري، كان المدير يقول لنفسه: «آه لو أتى كتاب نقل هذا إلى سجن السلطان أحمد، وأتخلص من هذه البلية..».

خرج خيري من غرفة المدير دون أن يجيبه، ومعنى هذا أن لاأحد يعرف ماسيفعله.

بعد خروج خيري من غرفته، اعتقد المدير أن السياسيين قد سمموه جيداً.

كان رحمي الكبش يعمل على إكمال التحضيرات من أجل محو خيري من الوجود، وكل ذلك بسبب خوفه منه.

لم ينتظر مدير السجن كثيراً. في النهاية وصل الكتاب الذي كان يدعو ربه من أجل مجيئه. في ذلك اليوم استدعي خيري بسرعة إلى غرفة المدير، وضرب القيد على معصميه، وسُلّم لاثنين من الجندرمة كانا ينتظران في الغرفة. جُمعت أغراضه التي كانت في المهجع، ووضعت في حقيبة خشبية، وجلبت له. قيل له إنه سيرسل إلى سجن السلطان أحمد لأنه طعن رجلاً هناك، ودعواه بهذا الخصوص

ستتابعها المحكمة في اسطنبول. مع أن الحقيقة ليست كذلك. لقد صادق المجلس على عقوبة الإعدام التي كانت محكمة التمييز قد وافقت عليها، وبعد ذلك وقع عليها رئيس الجمهورية. كان خيري الحلاق يسير نحو المشنقة خطوة خطوة. إنهم يلفقون للذين سيعدمون حجة، ويوضعون في زنزانة منفردة، وبعد ذلك، في صباح باكر يؤخذون إلى المشنقة مع شروق الشمس. يجب ألا يعرف من سيُشنق، ولابقية المحكومين بالشنق. في أوضاع كهذه، إذا فهم المجرم، وشعر أنه يُرسَل إلى الموت، ولم يبق عنده أمل بالخلاص سيحاول القيام بتصرفات، وصراعات، ويهاجم كل من يأتي أمامه، ويفتعل ضجيجاً، وصرعة، والأسوأ من هذا سيحاول جرح نفسه، أو قتلها، وهكذا سيؤخَر تنفيذ حكم الإعدام من أجل معالجة المحكوم، وهذا تأخير لا مبرر له لأن المحكوم بالإعدام يجب أن يُنفذ فيه الحكم وهو بصحة جيدة، فمن المؤكد أنه من غير الإنساني أن يُشنق إنسان وهو مريض، أو جريح. كيفما كان فإن إيجاد المجرم لطريقة يقتل فيها نفسه يخلِّص عدداً من البشر من زحمة أعمال الإعدام المتعبة بعمله هذا، ولكن عندئذ لن يرى الناس المجرم معلقاً على المشنقة، ولن يأخذوا درساً للعبرة، أي لن يتحقق الجانب الاجتماعي لعقوبة الإعدام. لهذين السببين لايُعطى الذين سيُعدمون حرية قتل أنفسهم بأنفسهم، ومن جهة أخرى يُعدمون بعد مداواة أمراضهم وجراحهم، وإيفاء المهمات الإنسانية نحوهم، فيعدمون وهم في غاية السلامة الجسدية.

عندما أنهى مدير السجن كلامه، اكتفى خيري الواقف مقابله مقيد اليدين بقول:

ـ فهمت ياسيدي..

الذين كانوا هناك لم يعرفوا إذا كان ماقاله خيري الحلاق يقصد به أنه فهم كلام المدير، أم أن هذه الكلمات حجة، أم أدرك أنه مُرسل إلى الإعدام.

أبلغ مدير السجن خيري الحلاق إن كان له طلب ما، فليرسل له، وهو سيلبي هذا الطلب، فقال له إن لديه أمنية أخيرة. وعندما سأله المدير عن أمنيته أجابه بأنه يريد مقابلة أصدقائه في الداخل.

شعر المدير بالألم، وتبدى ذلك في ملامحه الخارجية، فاغرورقت عيناه بالدموع. لقد سفّر خلال إدارته السجن، على مدى كل هذه السنوات، العديد من المجرمين إلى الإعدام، ولكنه لم يتألم لأي واحد من أولئك كما يتألم لخيري الحلاق. لقد بقي هنا تسعة أشهر، ولم يزعج نملة، وكما يقال عنه، فقد أصبح سيداً، وعاقلاً. ولكن ماذا يمكنه أن يفعل، لايمكن إرسال من يذهب إلى الإعدام، والقيد في يديه إلى المهاجع. قال وهو مسحوق من داخله:

- يابني خيري، من تريد أن تقابله، أنا أجلبه إلى هنا.

قال إنه يريد مقابلة المعلم في مهجع السياسيين، ويحدّثه. استُدعي المعلم. وحين رأى وجه المعلم الضاحك، انفرجت أساريره. قال له إنه سيُرسل إلى سجن السلطان أحمد. فقال المعلم:

- إلى اللقاء ياصديق...

قال خيري:

- لا، إلى عدم اللقاء يامعلمي...

عانق المعلم خيري بكلتا ذراعيه. ولأن معصمي خيري مقيدان لم يستطع معانقته بذراعيه.

قال خيري الحلاق خجلاً، كما كان في اليوم الأول لمجيئه إلى السجن بعد أن طغى على وجهه لون زهري، متسائلاً:

- هل يمكن أن أرسل لك دفتر أشعاري يامعلمي؟

دفتر الشعر!.. إنه الأثر الوحيد الذي يمكن أن يتركه خيري الحلاق في هذا العالم. والمعلم هو الشخص الوحيد الذي يثق به ليترك له هذا الأثر.

قال المعلم جاهداً في عدم إظهار حزنه، ولكن بصوت مرتجف:

- بالتأكيد ياصديقي خيري، أرسله..

رفع خيري الحلاق يديه المقيدتين في الهواء، وكأنه خارج في رحلة استجمام قائلاً لمن هناك:

- مع السلامة!..

استدار داخلاً بين رَجُلَي الجندرمة اللذين سيقتادانه إلى سجن السلطان أحمد، وركب في سيارة السجن الحمراء اللون. في الطريق فكر بكلمات المعلم التي تأثر بها أكثر من غيرها، لقد قال له: «ستساعد الآخرين دائماً». «الذهب لايصدأ، ولايتسخ» وقال «وهذا الجوهر موجود ومختبئ داخل الإنسان الذي يعتقد أنه الأسوأ» وقال: «ليس لعمل الخير مكان، أو زمان، عليك أن تعمل خيراً، أينما كان، ولمن كان»... وقال: «أليس للإنسان جوهر لايصدأ أو يتسخ، ولايقف عليه غبار أو قذارة؟ لهذا ستعمل خيراً». لقد أجابه عن كل الأسئلة المتشكلة في رأسه. لماذا اضطر أن يعمل مالايريد في هذه الدنيا؟ لماذا لم يستطع فِعل مايريد؟ لقد شرح له المعلم هذا بالخطوط العامة وبالشكل الأبسط. قال له: «نحن بشر.. كلنا، وكل خلية من خلايانا مربوطة بمليارات الخيوط غير المرئية بالمجتمع. نحن مرتبطون بشريحة اجتماعية»، وقال: «ولأننا لانعرف أن هذه الخيوط هي التي تقودنا فنعتقد أننا أحرار، مستقلون»، وقال: «لو كنت مستقلاً هل كنت سترتكب هذه الجرائم؟ ولو كنت حراً هل ستطعن إلهامي الطوبهاني؟»، وقال: «طالما الأمر هكذا...».

وبينما كانت سيارة السجن الحمراء في العبّارة تعبر البوسفور، كان يتحدث في داخله مع المعلم، وكأنه مقابله: «لم أجد زمناً لأعمل خيراً لنفسي، أو للآخرين يامعلمي...».

أشاح بوجهه كيلا يرى رَجُلا الجندرمة، اللذان على جانبيه، الدموعَ في عينيه.

وصلت شهرة خيري الحلاق إلى سجن السلطان أحمد قبل وصوله إلى هناك. وهنا ازدادت شهرته القديمة ألف مرة. وشاعت حكايات خيري الحلاق من لسان إلى لسان، ومن أذن إلى أذن، فهو لم يعط الأمان حتى للفتوات المشاهير في سجن باب الباشا. وقال عن هؤلاء الذين يلقون ببلائهم على الآخرين: «ماقيمة سافل كهذا لتخافوا منه!» وسار نحو تلك البلايا، فرأوا كلهم مهارة طعنه بالسكين، وربطه المسعورين، وأغنياء السوق السوداء، والآغوات الذين لايؤمن جانبهم بالأتاوة. ووزع الأتاوة المجموعة على من لادخل لهم، وعذّب نفسه العفيفة، وكسر من لايسمع الكلمة، ولايطيع، واستهلكهم، ولوّح بسيخه الذي صنعه بيده، والذي يقدح الشرر عند سحبه في وجه عدد كبير من خصومه حيث أنهى أمرهم جميعاً. وعندما لم تستطع قوة الحراس والجندرمة مواجهته أسّس في السجن مملكته الخاصة، وجعل الذين يضعون الفسفس في القفص، ويركّضون القمل وراء السيارة يبيعون أمهاتهم، ثم جعلهم مطيعين. وضرب بالعصا لاحقي الأولاد، وأرعب الأولاد المخنثين، وصبيان الصفعة، والأولاد الذين يتبعونه بالذات، وغير الشاعرين بمن حولهم، والمنحرفين، والمستبدين، وبمختصر الكلام لايوجد مثله في العالم، ولايمكن تقديره في هذه الدنيا الفارغة. وقد أصبح آغا عادلاً إلى حد عدم فرض كلمته في سجون باب الباشا، وحجر المدفع، والسلطان أحمد، وسجون سينوب، وتشوروم، وتحت الجامع الشهيرة فقط، بل فرض كلمته على شياطين سجون البلاد وملائكتها كافة، والدنيا العاهرة، والأنس والجان، والصين والهند، وجعل الآخرين يلبّون مايقوله، وينفّذون رغباته.

حتى الذين كانوا يقولون عنه في زمن ما: عدو الشرف والعرض، ويقولون: إنه ذو نفس وحشية، ويريدون تقطيع لحمه إلى قطع صغيرة جداً، ورميها للكلاب المسعورة، ويجدون حكم الإعدام قليلاً عليه، ويتمنون وضعه على خازوق مزيّت، حتى هؤلاء بدؤوا

يراؤونه قبل مجيئه إلى سجن السلطان أحمد، ويتحدثون لعل أحاديثهم تنتقل من أذن إلى أذن حتى تصل إليه على النحو التالي:

«الإنسان فقط هو الذي يستفيد من حديث خيري الحلاق، ويشعر بالسعادة. وعلى السيئين الذين يريدون تخليص أنفسهم وأرواحهم من بين يديه ألا يتوانوا عندما يأتي إلى هنا، ولايترددوا بالارتماء على يديه وثيابه لتقبيلها».

«بالنسبة إلي، من الأفضل تقبيل يده وثيابه، والتمني له بالسلامة والسعادة، ثم الهرب، وعدم الوقوع تحت ناظريه»».

وصل خيري الحلاق إلى سجن السلطان أحمد. آه من الزمن آه! فكّرْ بما حل بخيري الحلاق عندما أتى إلى هنا قبل ثلاث سنوات ونصف، وانظر الآن إلى الخارجين من أجل مراسم استقباله، والمتدافعين للتقرب منه! استقبال خيري الحلاق في السجن منظر مدهش، وأمر يستحق المشاهدة.

أحدهم يقول مرائياً:

ـ اللهم احمِ شهم الشهوم من العيون السيئة يارب!

وبعضهم تذكر تقييد خيري الحلاق في زمن ما بالسلاسل في الزنزانة، فيقول:

ـ لاتري الأرض يوماً سيئاً كذاك..

المقطوعون مرّغوا وجوههم على الأرض حيث وطِئت قدماه، ثم قبلوا يديه، وبعد ذلك ساروا بتظاهرات التعبير عن الفرح بقدومه.

مكان خيري الحلاق في المهجع خُضّر قبل مجيئه، وزيّن بمختلف الزينات. هذا خيري، آغا السجون، وكأنه أتى من آخر الدنيا، ولكي يتخلص من تعب الطريق قُدم له شاي السجن المخمر مثل دم الأرنب في كؤوس خصر البنت بشكل متتابع. وإزاء كل كلمة

تخرج عن لسان خيري، يرائي له من حوله قائلين:

ـ على كيفك ياآغا!

ـ كما تُسرّ ياآغا!

ـ مثلما ترغب ياآغا!

وإذا كان يريد شيئاً، يقولون له مبتسمين:

ـ تفضل على رأسي من فوق!

ـ تفضل من عينيّ!

ـ تفضل على رأسي!

هناك الكثير ممن رموا أنفسهم على قدميه فور رؤيتهم له قائلين: «آه، أرجوك».

لم يبدُ خيري الحلاق مسروراً من كل هذه الاستقبالات، وعندما جلس مكانه في المهجع قال:

ـ تحية لكم ياأخوتي، نحن مثل المرساة التي تلقيها السفن إلى البحر عندما تتعرض للعاصفة كيلا تغرق، هكذا رُمينا خارج المجتمع. لقد ألقى بنا هنا أولئك الذين لم يتسخوا، كأننا براز المجتمع لكي يتنظفوا هم.. لقد قُدمت أرواح كثيرة في السجون، وسُلبت أرواح. إن أخطاءنا لاتزنها موازين، ولاتستطيع دفنها أرض. وجدتُ في السجن الذي أتيت منه معلماً لي. كان معلمي يقول لي دائماً: «لاتتناوم!. طالما لديك الفرصة تعلّم الجيد من الجيدين، والشهامة من الشهمين» وأنا أردد الدرس التي تلقيته من معلمي على مسامعكم: لايمكن أن يكون هناك إنسان سيء، يكفي أن تجد جوهره الداخلي الذي لاتعلق به قذارة، ولاصدأ! لنتعلم الجيد من الجيدين، والشهامة من الشهمين.. علينا أن نستيقظ من اللامبالاة، ونصحو، ولنعرف لماذا وقع لنا كل ماوقع...

سكت.

لولا أنهم يخافون من خيري الحلاق الذي تدور حكاياته على الألسن لقهقهوا ضاحكين لهذه الكلمات. لماذا تعلم خيري الحديث هكذا مثل الكتب، وممن تعلم؟!

ولأن إداريي السجن لايريدون إعلام خيري الحلاق بأنه سيعلّق على المشنقة، أعطوه عمل بيع الماء في الحمام من جديد. فراح خيري يبيع صفيحة الماء البارد بخمسين قرشاً، والساخن بليرة كما كان في السابق، لمن احتلم ليلاً، أو وجد طريقاً يجعله يضطر للاغتسال. ولكنه هذه المرة كان يأخذ النقود التي يكسبها كلها. ولأنهم يعرفون أن هذا العمل سيستمر فترة قصيرة جداً فلم يطلب منه أحد حصة. جلب خيري الحلاق ولدين ضخمين من مهجع الصبيان ليعملا معه في الحمام. شغلهما من جهة، وعمل على جلبهما إلى الطريق الصحيح من جهة أخرى. وفي أوقات فراغه كان يكتب شعراً، يكتب دون توقف.

خيري الحلاق المقترب يوم إعدامه يكتب الشعر. والسيد ذو النظارة لايتوانى عن تنوير من حوله في موضوع الانحراف الجنسي أحياناً، وفي موضوع إلغاء أحكام الإعدام أحياناً، وفي موضوع حقوق الإنسان أحياناً أخرى، ويقدم المعلومات لمن حوله في المهجع عن هذه القضايا. مرة أخرى يقرأ مقطعاً من كتاب:

«وُقِّعت اتفاقية الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في 12 كانون الثاني 1948 ونشرت هذه الاتفاقية في الجريدة الرسمية في تركيا بتاريخ 27 أيار 1948».

يروي هذا الفصل ماعُمل في اليوم الأول من احتفال إعدام خيري الحلاق

حددت الجهات المسؤولة يوم إعدام خيري الحلاق بعد أن صادق مجلس الأمة الكبير على قرار إعدامه الذي صادقت عليه محكمة التمييز، ثم بعد ذلك وقعه رئيس الجمهورية، وأرسل إلى مكتب التنفيذ التابع للادعاء العام الجمهوري في اسطنبول. إثر هذا بدأ الادعاء العام التنفيذي مع مدير السجن بتحضيرات الشنق.

حسب تقاليد احتفال الإعدام، وعادات السجن، يوضع المحكوم بالإعدام في زنزانة منفردة قبل شنقه بيومين أو ثلاثة. يُزج يوماً أو يومين في المنفردة لتتمم في هذه الأثناء أمور الشنق. تؤمن أدوات الشنق، وتخرج خشبات المشنقة من المستودع، ويُبحث عن البراغي والصمن، والأشياء الأخرى المستخدمة في تثبيت الخشبات ـ وعلى الأغلب لاتوجد، ويُشترى بدلاً عنها ـ إضافة إلى أنه تُشترى مسبقاً صفيحة زيت زيتون من أجل شنق المحكوم بالإعدام. يجب ألا يكون هناك نقص، وأن تسير وقائع الاحتفال دون تعثر. ويفكر مسبقاً حتى بالكرسي الذي يرفسه الجلاد بعد أن يصعد فوقه المجرم لتوضع رقبته في حلقة الحبل المزيّت، ويحضّر. والأهم في كل هذه التحضيرات مشاركة الناس في حفل الإعدام، وتعليق ملخص قرار الإعدام على صدر المشنوق، بشكل يغطي صدره كله، مكتوباً بحروف كبيرة تُقرأ من بعيد جداً، فيراه الناس ويأخذون عبرة ويتعظون برؤيتهم الشخص معلقاً على المشنقة، فلا يُقدم أي شخص

على الاعتداء على عرض طفل في السادسة من عمره، أو على الأقل لايخنقه بعد ذلك. وكيل النيابة للتنفيذ هو الذي سيملي دعاية درس العبرة هذا، وهو الذي سيعلّق ملخص القرار على صدر الشخص الذي سيعدم. يجب على الجلاد أن يربط العقدة التي سيمر منها الحبل لتشكيل الحلقة التي ستطوق رقبة الشخص الذي سيشنق، وأن ينقعها بالزيت قبل يوم لكي تضغط على النقطة الحيوية في الرقبة فجأة عندما يرفس الجلاد الكرسي الذي يقف عليه المجرم، ذلك كي لايتخبط طويلاً أثناء تقديمه لروحه، أو يشعر بالألم ـ انظروا كم يُفكّر بدقائق الأمور في الشنق، وكم يُتصرف بإنسانية ـ وهكذا فإن الحبل الذي يمتص الزيت مبيّتاً طوال الليل يغدو ألين، وأكثر مرونة، وبالتالي تسهل عملية الشنق، ولاتطول آلام الشخص الذي تُنتزع روحه.

اسطنبول بطولها وعرضها لايوجد فيها سوى جلاد واحد. وهو شخص مشهور. ولأنه الشخص الوحيد الذي يقوم بهذا العمل في هذه المدينة الكبيرة، فقد علّق كثيراً من المشاهير والشخصيات المعروفة على حبل المشنقة. ولديه غنى في الذكريات عن المشنوقين. لهذا السبب نشرت الجرائد والمجلات لقاءات معه. هذا الشخص والجلاد الوحيد هو علي الأسود. وهو من المواطنين السمر الغامقين، أي غجري.

لاأحد يعرف إن كان علي الغجري يحب عمله أم لا، لكنه من القلة النادرة التي تؤدي عملها بعناية ورغبة. عندما كان شاباً لم يشأْ القيام بعمل آخر غير عمل الجلاد. رفسه للكرسي تحت قدمي مَنْ سيشنق، يجعله يعتقد أن صلاحيّة إعدام شخص هي بيده، وهو يفخر بهذا. ولكنه لايُمنح نقوداً كافية لمعيشته عند إعدامه شخصاً ما، كما أنه لايُشنق كثير من الناس ليحقق له هذا العمل دخلاً جارياً يعيله. ودعاء الجلاد علي الغجري لربه أن يزيد عدد الزبائن، وأن تكثر أعماله لايقبل دائماً. يريد علي الغجري أن يصبح موظفاً عند الدولة

ويتقاضى راتباً شهرياً لأنه شخص يُحتاج إليه، وليس ثمة من يقوم بهذا العمل سواه. وإثر كل مرة يُشنق فيها شخص يتقدم بطلبه شفهياً، وخطياً للنيابة العامة، ولكنه لم يصبح موظفاً حكومياً براتب شهري. ليس ثمة مهنة جلاد في الكوادر الوظيفية. لهذا السبب سقط علي الجلاد في هموم المعيشة مع تقدمه في السن، وفقدانه الأمل. وهو لايريد القيام بعمل آخر غير هذا العمل الذي يقوم به برغبة واعتياد منذ سنوات طويلة، على الرغم من أنه لابيت له ولامأوى، أي أنه من الذين يحملون بيوتهم على أكتافهم، ويُمضي صباحه ومساءه أينما حل به المقام. كان يشرب العرق في البداية، وغدا بعد ذلك يشرب النبيذ لأنه أرخص، وفيما بعد سقط بين شاربي الكحول الملوّن. ولكي يحصّل ثمن الكحول الملوّن صار يهرع لخدمة القائمين بأعمال قذرة. ومن المؤكد أن البحث عن رجل كهذا ليس سهلاً.

كان الموسم هو نهوض عصافير الدوري عن بيوضها، وقد ثقبت فراخ العصافير قشور بيضها، وخرجت إلى ضوء الحياة. تحمل العصافير، الآباء والأمهات، الطعام في حوصلاتها، وتزق به فراخها. بعض فراخ العصافير كبرت، وتتحضّر للطيران. وتبذل آباء وأمهات العصافير جهدها من أجل تدريب فراخها التي غدت جاهزة للطيران. ثمة فراخ للعصافير الثرثارة، في زمن التدريب على الطيران، في ثقوب الجدران، والأمكنة المتساقط منها الطلاء الإسمنتي، وفراغات البلوكات المتساقطة، وثقوب النوافذ المتشكلة مع الزمن، وفجوات السقوف القرميدية، وفراغات السقائف، والفجوات التي أحدثتها الأمطار الغزيرة. ونتيجة زقزقة العصافير من الآباء والأمهات الثرثارات، أثناء تدريب فراخها على الطيران، لايستطيع المتحدثون التفاهم مع بعضهم البعض في باحة السجن. تهم فراخ العصافير بالطيران إزاء تشجيع آبائها وأمهاتها، ولكنها لم تستطع بأي شكل أن ترتفع، وتترك نفسها في الفراغ. هي مترددة

بين أن تطير أو لاتطير. فتزقزق آباء وأمهات العصافير لكي تحرض فراخها الجبانة على الطيران، وتخفق ضاربة بأجنحتها فوقها، لكن الفراخ لم تثق بأجنحتها بعد.

كان العمل الأهم لخيري الحلاق في تلك الأيام مساعدة العصافير، آباء وأمهات. ولأن التدريب على الطيران هذا يتم صباحاً على الأغلب، يخرج خيري الحلاق إلى الباحة كل يوم في الصباح الباكر، ويرفع رأسه نحو فراخ العصافير، ويتفرج عليها وهي تتهيّأ للطيران. تدور آباء وأمهات العصافير فوق فراخها مثل (فرارة) وهي تشجعها على الطيران بزقزقات تبدي الانهماك والتحريض. وعندما تخفق فراخ العصافير، بأجنحتها غير المتدربة يزداد إلى مالانهاية انهماك العصافير من الآباء والأمهات، وتصبح زقزقتها شبيهة بالعويل. وحين يترك أحد الفراخ نفسه في الهواء مجرِّباً الطيران تطير العصافير من الآباء والأمهات تحته وفوقه، وبجانبه، وتدور حوله كأنها تخشى عليه من السقوط، وستلتقطه إن سقط، وهي تدله على اتجاهه ليقف فترة ويرتاح، ثم تعيده إلى العشّ.

كان خيري الحلاق رافعاً رأسه، فاتحاً فمه مشاركاً العصافير من الآباء والأمهات انهماكها الفرح، ومشاركاً الفراخ الخوف وهو يتفرج عليها. أحد فراخ العصافير في إحدى تجارب الطيران ارتبك كثيراً فاصطدم بالجدار، وسقط. هرع خيري، وتناول فرخ العصفور من الأرض. كان يحس بخفقان قلبه بأصابعه. أبو الفرخ وأمه يدوران حول رأسه. كأن زقزقتهما صياح، وهما يفتحان حرباً على خيري. فتح خيري أصابعه ببطء. انتفض فرخ العصفور، ثم طار فجأة في الهواء... جعل أبو العصفور وأمه فرخهما بينهما واقتاداه إلى العش وسط زقزقة فرحة.

السيد ذو النظارة جالس على الكرسي في الظل عند قسم تحت الباب، وهو ينظر إلى خيري المهتم بالعصافير، ويعطي معلومات لمن حوله، وينوّرهم كما يفعل دائماً. يشرح لهم سبب اهتمام وحش

بالعصافير، هذا الوحش الذي اعتدى على عرض طفل في السادسة من عمره، ولم يكتف بهذا فخنقه بعد ذلك. هل اهتمامه بالعصافير لأنه صاحب نفس حساسة؟ (ضحك السيد ذو النظارة ضحكة ذات معنى، وهو يسأل هذا السؤال) وهل يمكن أن يكون ثمة مشاعر حساسة للوحش؟!

«هؤلاء أشخاص مرضى ياسادة. وقد جاء في الكتب أن الضباط النازيين الذين قتلوا آلاف الأشخاص بكوا لرؤيتهم طائراً مكسور الجناح».

يجب ألا يعلم المحكومون، والموقوفون الآخرون في السجن بأمر تنفيذ الإعدام. لأنهم إذا سمعوا بإرسال أحدهم إلى الإعدام، وخاصة إذا أحدث المحكوم بالإعدام ضجيجاً، فسيشعر الآخرون برائحة الدم وهم في طريقهم إلى المذبح، وسيقدمون بفعل غريزي على اهتياج كما الثيران، ويقلبون السجن رأساً على عقب، ويخربون الانضباط، ويضعون المدير والسجانين في موقف صعب. لقد أظهرت التجارب المعيشة، والأحداث القديمة أن الناس في مجموعة ما لايحتملون أخذ أحدهم، وإعدامه، ويعرضون مختلف ردود الفعل، ويقومون بتصرفات مضادة، حتى إنهم يتمردون. غير هذا، هناك محكومون بالإعدام في السجن ينتظرون دورهم، وإبلاغهم أن الدور اقترب منهم تصرّف غير إنساني. بعد ذلك، إذا أُعلم الشخص مسبقاً بإعدامه، فإنه سيقدم على بعض التصرفات غير المناسبة، أي أنه لايريد أن يعدم. من يريد هذا؟... ولإزالة هذه المحاذير كلها يجب تلفيق ذريعة معينة لزج المحكوم بالإعدام في المنفردة قبل عدة أيام من شنقه، بدلاً من القول له: «هيا إلى الشنق». أما إذا سمعوا بشنق المحكوم بالإعدام بعد إعدامه، وبعد انتهاء كل شيء فلاينبس المحكومون ببنت شفة، وعلى العكس، يدخلون حالة من الصمت. وإثر كل عملية إعدام يخيم على السجن سكون عميق.

لاتدخل الجرائد إلى السجن يوم نشر خبر الإعدام، ولاصور

الجسد المعلق على حبل المشنقة، للحيلولة دون إثارة من في السجن، واستفزازهم. أما في اليوم الذي يليه فيخيم على المحكومين المتلقين الخبر الصمت الحزين مدة ساعتين من الزمن لأنهم لايستطيعون عمل شيء، فالأمر تم وانتهى، بعد ذلك تبدأ حياة السجن المتلاطمة الخاصة تلك، وهذا مايحدث إثر كل عملية إعدام.

تبادل مدير السجن والشرطة والحراس الحديث فيما بينهم لإيجاد ذريعة من أجل وضع خيري الحلاق في الزنزانة، وفي النهاية وجدوها: على خيري الحلاق أن يبيع صفيحة الماء البارد بخمسين قرشاً، وصفيحة الماء الحار بليرة حسب التسعيرة التي وضعها مدير السجن، ولكنه يقبض عن صفيحة الماء ليرتين ونصف، وثلاثة، ويأخذ أحياناً المبلغ المدفوع مهما كان، لذلك فقد صدر بحقه حكم إداري، وسيزج بالمنفردة... هذه هي الذريعة.

لكن رئيس الحرس الذي يحب خيري الحلاق، ولم يستطع تقبل إعدامه وخاصة عندما نظر إلى لطفه وطيبة قلبه في الأيام الأخيرة، لم تعجبه هذه الذريعة. كان خيري الحلاق لايأخذ نقوداً نهائياً من الفقراء مقابل الماء. هذه ليست ذريعة، هذا افتراء. وإذا سمع به خيري سيشعر بالقهر.

قال كاتب السجن الذي أوجد الذريعة، حتى يُثبِت خيري الحلاق أنه لم يبع الماء بسعر أغلى فهو يحتاج إلى ثلاثة أيام، وخلال هذه الأيام يكون قد أعدم وانتهى أمره...

«الذريعة اسم على مسمى، ذريعة...»

بينما كان مدير السجن، والكاتب، ورئيس الحرس، والموظفون الآخرون يتناقشون في موضوع الذريعة، سُمع صراخ، وضجيج يصدر من مهاجع السجن. الضجيج والصراخ ينبعث أكثره من مهجع السادة. ماذا حدث؟ ماذا يحدث؟ هل سمع المحكومون بشنق خيري وتمردوا؟ على الرغم من قفزهم جميعاً، وخروجهم من الإدارة نحو

الباب المنفتح على الحديقة، إلا أن المدير كان في المقدمة، ووراءه الكاتب، وبقية الموظفين. وقبل أن يدخل رئيس الحرس باحة السجن، وجد اثنين من مهجع المقطوعين يحملان رجلاً من يديه ورجليه يتدفق منه الدم، ويتجهان به نحو قسم تحت الباب. ولأنهما يحملان الرجل من يديه ورجليه، وظهره إلى الأعلى لم يُر وجهه الذي يتلوى. كان الرجل الذي يتدفق منه الدم هو السيد ذو النظارة. بدت أزرار بنطاله مفكوكة، وبنطاله ساحل إلى فخذيه، والدم يتدفق من بين فخذيه. كاد يغمى على السيد ذي النظارة عندما كان محمولاً إلى عيادة السجن. في اليوم التالي أُرسل السيد ذو النظارة إلى مهجع المعتقلين الذي يرابط أمامه اثنان من عناصر الجندرمة في أحد مشافي المدينة الكبيرة. وجاء في تقرير عيادة السجن المرسل إلى النيابة العامة حول السيد ذي النظارة:

«لقد جُلب المحكوم س.ب. من مواليد عام... 192 الموجود في السجن بجريمة تزوير أوراق رسمية، وإيقاع الضرر بالدولة، بسبب قطع قضيبه من جذره. ولدى معاينتنا له، وجدنا أن قضيبه مستأصل تماماً. وقد أدخل المحكوم عيادة السجن، وأخيط له مكانه، وأوقف النزف بعد تضميد الجرح. وقد أُدخل في مثانته أنبوب لإفراغ البول إلى الخارج. وحسب إفادة الجريح: في حوالى الساعة الخامسة من بعد ظهر يوم... /.../... عندما كان المدعي يتبول في إحدى مبولات دورة المياه، دخل المدعو ج.غ. وهو في السابعة عشرة من عمره وأحد نزلاء مهجع الصبية بشكل مفاجئ إلى دورة المياه، وأمسك قضيبه، وقطعه له بشفرة حلاقة. في هذه الأثناء حاول أخذ الشفرة من يد الولد، ولهذا جُرح من يده اليسرى، وحدث نزيف قوي. ونعلمكم بفائق احترامنا أننا أرسلناه إلى مشفى... لمعالجته في قسم الأمراض البولية والتناسلية. الدكتور م.أ.».

فيما بعد غيّر السيد ذو النظارة إفادته، وقال إنه قطع ذكره

غضباً من نفسه نتيجة الانهيار المعنوي الذي أصابه بسبب دخوله السجن ظلماً.

وحسب الأطباء فقد شوهد بعض المرضى النفسيين الذين قطعوا أعضاءهم الجنسية الخارجية، وأنه من الممكن ملاحظة هذه الظاهرة المتجلية بجرح الذات لأسباب دينية، أو عقائد باطنية. والسجن كالشتاء أو مثل الرحلة البحرية الطويلة، فلعدم وجود الجنس الآخر، ونتيجة الحرمان من العلاقات الجنسية الطبيعية مدة طويلة، شوهد أن البعض يدخلون في علاقات جنسية شاذة، ثم يندمون على هذه العلاقة فيقطعون أعضاءهم الجنسية الخارجية للتكفير عن فعل محرّم كبير تحت تأثير مرض نفسي.

أما الولد الذي في السابعة عشرة من عمره الذي قال السيد ذو النظارة في إفادته الأولى بأنه قطع له قضيبه، فيقول إن السيد ذا النظارة يلحق الصبيان، وأنه دخل في علاقة جنسية منحرفة معه منذ فترة طويلة مقابل وعده بالنقود، ولكنه لم يدفع ماستحقه من نقود، ولم يستطع الشكاية لأحد بأن حقه قد هُضِم، فغضب لهذا الوضع كثيراً، وقطع قضيب السيد ذي النظارة.

إزاء التناقض في الإفادات، أُرسل ج. غ. الذي في السابعة عشرة من عمره إلى الطب الشرعي، وجاء من الطبيب الشرعي حول الولد التقرير التالي:

«لدى معاينة... ابن.. المحوّل بموجب مذكرة الادعاء العام في اسطنبول برقم.. وتاريخ... تبين أن:

الولد طويل جداً، وضيّق الجبهة، وأسنانه غير نامية جيداً، وطوله بالنسبة لعمره يبين أنه نما طولياً بشكل مبكر. يداه ورجلاه مزرقة، ومن الواضح أن الولد سيء التغذية، وبعد معاينة شرجه لوحظ أن عضلاته شبه مرتخية، ومتهدلة إلى الداخل قليلاً، وحول

الشرج...وهذا يؤكد أنه تعرض للواطة بكثرة جداً، وعنده هذه العادة».

لقد أدهشت هذه الحادثة التي تعرّض لها السيد ذو النظارة، المجرمين والمتهمين وحتى الذين تطفح ملفاتهم بالجرائم، الذين ملؤوا السجن. إنهم لايستطيعون تقبل مثقف كهذا لديه كل هذه المعلومات العميقة حول حقوق الإنسان، وعدو الانحراف الجنسي، في هذا الوضع. إنه عدو للمنحرفين جنسياً إلى حد أنه يريد العفو عن خيري الحلاق لأنه خنق طفلاً بسبب حبه للإنسان والإنسانية، ولكنه يطالب بضرورة حرقه لأنه منحرف جنسياً. فيندهشون قائلين: «تفو.. تفو... سفالة لايمكن أن تحدث».

سيطول الحديث كثيراً حول قضية قطع قضيب السيد ذي النظارة من جذوره حتى يظهر مجدداً ماهو غير عادي، ويحرك سكون السجن، ويبعث الحيوية في توازنه.

صباح اليوم التالي لإرسال السيد ذي النظارة من عيادة السجن إلى المشفى خرج خيري الحلاق مجدداً إلى باحة السجن، وكان يتفرج على استفزاز آباء وأمهات العصافير لفراخها كي تطير. ولأن خيري الحلاق منشغل بالعصافير منذ عدة صباحات، فقد جاء معه ذلك الصباح عدد من المحكومين، وشاركوه فرحه، وهيجان عصافيره. كان في أعشاش العصافير مهرجان طيران. إذ تبدو على حافة الأعشاش فراخ مرعوبة، وفراخ مترددة بين أن تطير أو لاتطير، وتخفق بجناحيها حيث هي واقفة. وتحوم العصافير من الآباء والأمهات حولها مزقزقة بانهماك شديد لكي تطيّرها.

بدأ خيري الحلاق يشعر أنه مكان فراخ العصافير، وسيطير، فيرفع ذراعيه ويضربهما على فخذيه كأنهما جناحان. وهو بهذا يشارك العصافير من الآباء والأمهات جهودها لتحفيز فراخها. ثم بدأ يثني ركبتيه ويفتحهما، ويرتفع وينخفض على رؤوس أصابع قدميه منادياً فراخ العصافير:

ـ طر ياصغيري، طر!... طر ياروحي طر!... هيا، هيا طر، هيا!... طر ياصغيري طر!..

وكما يسري بين الناس التثاؤب، والضحك، انتقل خبر تحفيز خيري الحلاق فراخَ العصافير على الطيران لمن كان بجانبه. هم أيضاً بدؤوا يخفقون بأذرعهم وكأنها أجنحة، وراحوا ينبضون إلى الأعلى والأسفل على أقدامهم مثل خيري الحلاق، وينادون أيضاً:

ـ طر ياصغيري، طر!.. هيا طر ياصغيري، طر!...

كان خيري يقف أمامهم مثل قائد جوقة، وهم ينبضون مرتفعين إلى الأعلى، ومنخفضين إلى الأسفل، ويقفزون معاً، وكأن مجموعة من المحكومين في ذلك الطرف من باحة السجن ترقص الباليه، بينما يطلق أفراد هذه المجموعة أصواتهم كجوقة من جهة أخرى.

ـ طر ياصغيري، طر!.. هيا طر ياروحي طر!. هيا، هيا طر! طر ياصغيري، طر!..

وعندما يطير أحد الفراخ تتحول أصوات المتصايحين إلى صرخات فرح، ويشارك بصرخات الفرح هذه المحكومون، والموقوفون في باحة السجن كافة. يشعرون مع طيران كل عصفور من الفراخ كأنهم سيطيرون هم أيضاً، ويحظون بحرياتهم. وخاصة عندما يطير عصفور إلى ماوراء جدران السجن فيأخذ معه توقهم ويطير به إلى الحرية.

شكّل ثلاثة من الأشخاص الواقفين في الباب الذي ينفتح من الباحة على قسم الإدارة، وهم كاتب السجن ورئيس الحرس وحارس، مجموعة تتابع المنادين للعصافير صياحاً. قال كاتب السجن:

ـ إنه الوقت المناسب، لن يفهم ماسيحدث، اذهبوا وأحضروه!

سار رئيس الحرس، والحارس نحو خيري الحلاق.

سقط فرخ آخر من فراخ العصافير غير الناجحة على الأرض. حوّل العصفور الأب، والعصفورة الأم زقزقتهما إلى صراخ وهما

يهبطان نحو الأرض في محاولة لإنقاذ الفرخ. اقترب خيري الحلاق بهدوء نحو فرخ العصفور الجريح الساقط على الأرض كيلا يخيفه، ولحظة مدّ يده للإمساك بالفرخ، قال له رئيس الحرس المقترب منه.

ـ السيد المدير يطلبك..

جهد رئيس الحرس على أن يكون صلباً، فجعل صوته حاداً.

إما أن خيري الحلاق لم يشك فيما سيحدث له نهائياً، أو أنه فهم، ولم يرد إشعار الآخرين هناك بأنه فهم. نهض من حيث كان منحنياً. طلب من أحد أصدقائه أن يعتني بالفرخ الجريح، وسار خلف رئيس الحرس.

عندما وصل إلى قسم تحت الباب، وضع رئيس الحرس، والحارس خيري بينهما. كان بقية الحراس على أهبة الاستعداد خشية حدوث أمر ما. وكيلا يصرخ، ويستفز بقية الموقوفين عند سماع صوته إذا فهم ماسيحدث له، قال رئيس الحرس لخيري:

ـ تعال معي!

واصطحبه نحو الحمام.

شك خيري بالأمر. ماهو عمل المدير في الحمام؟ بشكل عام يُضرب المعتقلون علقة في الحمام، لأن صوت الذين يأكلون العلقة في الحمام لايسمع من المهاجع.

عندما وصل رئيس الحرس إلى مكان لائسمع فيه صراخه من المهاجع، قال له:

ـ هنالك شكاية ضدك يابني خيري، وستعاقب عقوبة انضباطية.

التفت خيري خلفه ورأى الحراس الذين ينتظرون وراءه، فقال متسائلاً:

ـ ماهي الشكاية يابابا؟

ـ اشتكوا عليك للمدير أنك تبيع صفيحة الماء بليرتين ونصف.

تمتم خيري بإمكانية أن يكون السافل الذي جلبه من مهجع

المقطوعين يبيع الماء غالياً. فهم خيري الحقيقة، ولكنه حاول أن يتجاهل، كان يريد أن يخدع نفسه. أصبح وجهه بلون الرماد. فسأل قائلاً:

ـ من هم الذين اشتكوا يابابا؟

ـ هيا تعال الآن... سيواجهك السيد المدير بهم فيما بعد.

وضعوا خيري الحلاق في المنفردة، وأقفلوا عليه الباب. المكان الذي يسمونه المنفردة هو غرفة صغيرة بسوية الزنزانات تحت الأرض، لها نافذة بعرض شبر قريبة من السقف، ولكنها لاتدخل ضوءاً، ولأنها تطلّ على الممر فإن رائحتها هي رائحة عفونة وبول، وهي رطبة.

رئيس الحرس على الرغم من كل سنوات الخدمة هذه، بدا كأنه يُقْدم على هذا العمل لأول مرة، وكأنه ليس هو الذي اعتاد على هذا. ولكثرة رؤيته الضرب، والجنايات، والطعن، والإعدامات سيطر عليه انفعال داخلي لم يفهمه، وكأن عقدة سدّت بلعومه. «تفوو!..» بصق على الأرض. جمع في هذه البصقة كل المشاعر التي لايستطيع التعبير عنها، وأكثرها لايفهمها حتى هو.

ثمة ثلاثة أيام لإعدام خيري الحلاق. في هذه الأيام الثلاثة ستنفذ الإجراءات اللازمة لعملية الإعدام كلها، وستؤمن الأدوات واللوازم الضرورية كافة، وسيعثر على علي الجلاد، ويُطلب إلى المهمة.

هل تُسمع الأصوات المنبعثة من الباحة، أم أن خيري بدأ يسمع أصواتاً غير موجودة؟ هل كان الذين ينادون لفراخ العصافير هم أصدقاؤه، أم هي أصوات داخله لايعرفها؟ لن يعرف خيري هذا في أي وقت.

«طر ياصغيري طر!. هيا طر ياصغيري، هيا، هيا طر، طر ياصغيري طر...».

يروي هذا الفصل كيف نُظّمت الأعمال الرسمية لليوم الثاني لاحتفال الشنق، وكيف كُتبت الدعوات وأرسلت لمن يجب أن يحضر مراسم الشنق

بما أن الحديث وصل إلى ماجرى في اليوم الثاني من مراسم احتفال شنق خيري الحلاق، وهو اليوم الأكثر حركة وحيوية، فلنتحدث قليلاً عن الأعمال التي تناولت احتفالات الفترات القديمة. كما أوضحنا في قسم المدخل لسرنامة عصر الجمهورية هذه، فهي سيرة، أو وقائع احتفال، أو عمل يحكي عن تفاصيل احتفالات الأعراس، وعلى الأغلب مزدان بالمنمنمات. أي أن تلك الأعمال تحكي عن احتفالات ختان أولاد السلاطين، وأعراس السلطان، وتوضح هذا بالمنمنمات. وإذا كان أحد هذه الأعمال يحكي عن ولادة أحد الأطفال للسلطان يسمى: «ولادة نامة» (وقائع الولادة).

وقد كتب شعراؤنا المشاهير أمثال نوي، ونابي، وعبدي، ووهبي، وهشمت، سرنامات. وتحدث الشاعر نوي في الوقائع التي قدمها عن ختان محمد الثالث ابن السلطان مراد الثالث. وقد استمرت تلك الاحتفالات من بداية حزيران لعام 1582 حتى الثاني والعشرين من تموز، أي ثلاثة وخمسين يوماً. بينما لم يستمر احتفال شنق خيري الحلاق سوى ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع علقوه على المشنقة، وأرسلوه بطرد عاجل إلى العالم الآخر.

زينت الوقائع التي تروي احتفالات ختان الأمير ابن مراد الثالث بمنمنمات النقّاش عثمان. ويظهر في هذه المنمنمات الباعة على البسطات المغلقة بالزجاج، والمنصوبة تحت الأقواس، ومهنيو تلك

الأيام. لقد خلّد النقاش عثمان الاحتفال الممتد إلى اثنين وخمسين يوماً بمئتين وخمسين منمنمة على صفحتين متقابلتين. وتعرض هذه المنمنمات حياة اسطنبول في القرن السادس عشر بكثير من جوانبها.

والسرنامة التي كتبها نابي نظماً شهيرة جداً. وتروي هذه السرنامة احتفال ختان ولدي السلطان محمد الرابع المقام في أدرنة عام 1675 ، وعرس ابنة السلطان على المحاسب مصطفى باشا. وحكى نابي عن ركوب السلطانة خديجة في العربة الفضية التي صنعت خصيصاً لهذا الأمر، وذهابها إلى قصر المحاسب مصطفى باشا. ونحن في سرنامة الجمهورية هذه سنحكي عن ركوب خيري الحلاق في سيارة السجن الحمراء، وذهابه إلى المشنقة في ساحة السلطان أحمد.

حسب مارواه نابي فإن المئة والخمسين طباخاً الذين في القصر، لم يسدوا حاجة طبخ الطعام في عرس السلطانة خديجة، فاستؤجر ثلاثمئة طباخ من الخارج. ونعلم من سرنامة نابي أنه استُخدم في العرس مئتا حامل سفرة، ومئة وخمسون سقاء، وأكثر من ألف حامل مشعل، ونعلم منها أيضاً أنه ذبح 3700 فرخ دجاج، و5000 فرخ إوز، و6000 فرخ بط.

وبما أن الحديث هنا جاء على الطعام، فلنقطع ادعاء العلم بالسرنامات مؤقتاً، ولنحكِ عما يأكله خيري الحلاق ويشربه وهو سجين المنفردة. عندما ألقي في الزنزانة للمرة الأولى إثر طعنه إلهامي الطوبهاني بالسيخ، كان يطعمه آغوات السجن أفضل الأطعمة التي يجلبونها من المطاعم خارج السجن، لخوفهم من مجيء بلية تدعى خيري الحلاق على رؤوسهم. كانوا يجلبون له سفرة طعام لاينقصها سوى حليب العصفور، ولو طلب خيري الحلاق حليبَ العصفور لوجدوا من يحلب العصافير، ويجلب الحليب له. ولكن هذه المرة تغير الوضع. لقد علم المحكومون والموقوفون في السجن أن

خيري الحلاق باع صفيحة الماء للمسلمين الذين سيؤدون فريضة الاغتسال في الحمام بسعر كبير بلغ ليرتين ونصف، ولهذا فُرضت عليه عقوبة انضباطية، وألقي في المنفردة، وتجاهلوا حقيقة الأمر، متظاهرين بأنهم صدقوا هذه الذريعة الملفقة. كانوا قد قرؤوا في الجرائد التي لم يرها خيري الحلاق أن حكم الإعدام قد صادقت عليه محكمة التمييز، كما صادق عليه مجلس الأمة الكبير، ووقع عليه رئيس الجمهورية. ويعرفون أنه كيفما كان سيعدم خلال يومين أو ثلاثة. ولكنهم إذا عبروا عما يعرفونه فلا بد لهم من الالتزام بتقاليد السجن، والتحرك بتصرف مضاد، والقيام بتظاهرة، أو أخذ أحد السجانين رهينة، والتمرد. ولكن الآغوات الذين ينظمون هذه الأمور في أوضاع كهذه، ويستفزون الآخرين، لاينوون جلب البلاء على رؤوسهم من أجل خيري الحلاق. لهذا السبب ناسبهم التظاهر بالتصديق بأن خيري الحلاق يعمل سوقاً سوداء على المسلمين الذين سيؤدون فريضة الاغتسال، وأن هذا هو سبب إلقائه في المنفردة. ولإقناع أنفسهم بهذه الكذبة تحدثوا فيما بينهم على النحو التالي:

- ياناس، هل يمكن أن يُقدم إنسان على هذا؟.. وللمسلمين الذين لايريدون التجول وهم جُنب... عفوك يارب.

- لايفكر بأنه سيذهب إلى المشنقة غداً أو بعد غد.. آه منه.. في هذه الدنيا الفانية... يريد هذا السافل جعل المسلمين يتجولون مجنبين...

- يمكننا تفهم كل شيء، أما هذا فلا يمكن الإقدام عليه. لايمكن وضع ماء الاغتسال في السوق السوداء..

- تفو.. لم أكن أتوقع هذا من خيري الحلاق...

بما أنه سيعدم خلال عدة أيام، وليس هناك احتمال لعودته إليهم، فلم يبق لديهم سبب للخوف من خيري الحلاق. وعندما لم يبق سبب لخوفهم منه، أو أمل يحققونه من خلاله، أو مصلحة لهم به،

فليس ثمة ضرورة لإرسالهم سفر الطعام، وكولونيا عطر قشر الليمون التي يمكن شربها. لأنه ليس هناك فرق بين إعدام إنسان تغذى في أيامه الأخيرة على البقلاوة، ورقائق العجين المحشوة بالبندق والفستق، وإنسان ملأ معدته بالخبز الجاف، كما أنه لافرق لو أُعدم بمعدة خاوية. حياتهم الفاسدة والمؤلمة جعلتهم واقعيين بحدة. المهم إيجاد ذريعة من أجل إسكات الإنسان لضميره، ثم إيمانه بالذريعة التي أوجدها هو. كما لفقوا له هذه الذريعة. ألفوا أكواماً من الذرائع، كثيرة لو تم وضعها أمام حيوان وأكلها لانفجر من أكلها.

لأول مرة خلال حياتهم المهنية هذه لم تطاوع الحراس ضمائرهم لمقابلة محكوم بالإعدام وجهاً لوجه. حتى أن أحد السجانين الذين أدخلوا خيري الحلاق إلى الحمام بنية ضربة علقة، ثم عاد عن ذلك، يشعر الآن بحزن داخلي. لأنه فيما بعد، عندما غدا خيري الحلاق رأس بلاء في السجن، ويفعل مايريد فعله، بحيث أن إدارة السجن لاتستطيع فرض كلمتها عليه، ذهب واعتذر عن تقصيره السابق. وهكذا ولدت تدريجياً حكاية خيري الحلاق.

كان الحراس يتجنبون قدر الإمكان مواجهة خيري الحلاق، فينتظرون عند باب قسم المنفردات الخارجي، ويرسلون الطعام مع أحد المساجين المقطوعين إليه. ولكنهم يراقبون بأنفسهم اقتطاع جزء من أفضل أجزاء طعام الهلال الأحمر لإرساله له. طعام الهلال الأحمر المقدم للفقراء هو فاصولياء جافة في يوم، وحمّص في يوم آخر، إضافة إلى شوربة الماء الساخن الملون بالأحمر كثيراً لتحل محل رب البندورة. وعلى سطحه هنا وهناك تطوف بقع صغيرة من السمن. يغط الرجل المقطوع قلب الخبز الإسفنجي الموضوع في حضنه بماء طعام الهلال الأحمر، الذي يجلبه، فيمتصه مثل الاسفنج، ثم يصطاد بأصابعه حبات الفاصولياء والحمّص، ويبتلعها. والباقي يدفعه من فتحة الباب الصغيرة إلى الداخل لإعطائه لخيري.

لم يستطع أحد معرفة إن كان خيري الحلاق قد عرف السبب الحقيقي لوضعه في المنفردة أم لا. حسب البعض لقد صدّق خيري حكاية بيع الماء بسعر أغلى، أو أنه ذهب ضحية افتراء. وحسب الذين يفكرون بهذا، لاأحد من الذين يوضعون في المنفردة كان يؤمن قبيل إعدامه بأنه سيعدم، أو أنه لايريد أن يؤمن بهذا. أما بالنسبة للذين يعرضون هذه الفكرة فإن خيري الحلاق لم يبع الماء لأحد بسعر أعلى، وهو نفسه أعرف بهذا، وبالتالي لم يصدّق هذه الذريعة. وهو يعرف أن وضعه في المنفردة كان بسبب إعدامه، ولكنه لايظهر هذا جرّاء الوعي الذي كسبه في السنّة الأخيرة وغير المتوقع ممن في سنّه.

لم تُعرف فكرة خيري الحلاق الحقيقية حول هذا الموضوع، ولكن فُهم مما تبقى في المنفردة بعد ذهابه للإعدام، أنه لم يمد يده لوجبة الطعام التي كانت ترسل إليه كل يوم، وأنه لم يتناول شيئاً من الخبز المخصص له كل صباح.

في كل مرة يأتي الرجل من مهجع المقطوعين لإعطائه ماعون الطعام والخبز من نافذة الباب، يطلب منه خيري مقابلة رئيس الحرس، فيقوم الرجل المقطوع بنقل رغبة خيري هذه لرئيس الحرس. ولكن رئيس الحرس يشيح بوجهه كيلا يرى على الأقل اختناق إنسان لايستطيع إنقاذه، لذلك لم يذهب إلى خيري الحلاق بأي شكل. مع ذلك ولأنه مكلف بمراقبة خيري الحلاق كيلا يقتل نفسه، أو يجرحها أو يمرض، فقد أرسل سجاناً مرتين، خلال الأيام الثلاثة التي أمضاها في المنفردة، ومرة ذهب بنفسه، ووقف في الباب، وانتظر أحد الرجلين المقطوعين لأخذ صفيحة البول والبراز لتفريغها. لم يستطع رئيس الحرس النظر في عيني خيري الحلاق الذي سيرسل إلى الإعدام، وهربت عيناه منه أثناء الحديث معه. كان لدى خيري الحلاق نقود. سأله رئيس الحرس هل تريد جلب أغراض ما من خارج السجن، أو الندوة؟ إذا أراد فسيجلب له. هل كان يشعر

بضرورة جلب شيء ما من الخارج؟ كان خيري الحلاق يردّ على السؤال في كل مرة أنه لايريد شيئاً، وأن له طلباً واحداً. طلبه الوحيد ذاك هو فتح حقيبته التي في المهجع، وإخراج الدفترين السميكين منها، وإرسالهما إلى الشخص المعتقل في مهجع السياسيين في سجن باب الباشا في اسكودار، والذي ينادونه معلمي.. هل يرسلونها؟ سأل هذا وكأن عينيه تتوسلان. رئيس الحرس فهم هذا من صوته. دفتراه.. دفتران... فيهما أشعار... إنها الأشعار التي كتبها في السنة الأخيرة.. هل يرسلونها؟

لم يكن لدى رئيس الحرس هذه الصلاحية. كان يعتقد لسبب لايعرفه أن طلب خيري الحلاق هذا لن ينفذ. ولكنه سيوصل مطلب خيري لمدير السجن، ويخلّص نفسه من المسؤولية.

عندما ألح خيري مرة أخرى على الطلب، قال رئيس الحرس بكلمات فيها محاولة للتأجيل:

ـ ممكن، ممكن. من المؤكد أن إرسالها ممكن...

ولأن للمنفردة نافذة دون زجاج تطل على الممر فهي ليست مظلمة كالزنزانة. ولبقائه الطويل داخلها، اعتادت عينا خيري الحلاق على الظلمة. لأن فَتْحَ الباب الخارجي للمنفردات مرتين، وانتظار الحارس في الممر، وجلب أحد الشباب من مهجع المقطوعين طعام الهلال الأحمر في فترتي الظهيرة والمساء، يلغي الحاجة للنظر إلى الساعة.

لقد لاحظ في تلك الظهيرة أن الشاب ترك شيئاً آخر بجانب ماعون الطعام، استطاع تمييزه على الرغم من الظلام القاسي. عندما خرج الشاب من المنفردات، وأغلق الحارس الباب الخارجي بالمزلاج وأقفله، ولم يعد يسمع وقع الأقدام، مدّ خيري جسمه نحو الزاوية التي فيها ماعون الطعام. كان ثمة كيس ورقي إلى جانب ماعون الطعام. صُنع الكيس من ورق الجرائد. أدخل يده فيه: عنب..

من يمكن أن يكون قد أرسله؟ سيسأل عن الذي أرسله عندما يأتي الشاب بالطعام في المساء، هذا بالتأكيد إن كان الشاب سيجلب طعاماً من جديد، وإذا كان سيعيش في الغد.. لم تقبل نفسه الطعام، ولكنه أكل عنقودي عنب. أفرغ العنب الباقي على الأرض. وفتح الكيس باذلاً جهده كيلا يتمزّق، وأعاد الجريدة كما كانت، وفتحها، ومسّدها. كان بإمكانه أن يقرأ حتى في تلك الظلمة. ولكي يقرأ أفضل فتح الجريدة أمام النافذة المطلّة على الممر وانبطح على الأرض. لم يعرف أية جريدة هي، وما أهمية هذا.. بدأ يقرأ: «مثال عن الاستطلاع الجنسي الذي أجري في سبع مناطق من تركيا..».

فتح صفحة أخرى. في صفحة الجريدة كلها ثمة صور مغنين، ومغنيات: «ثلاث شقق فخمة، وألف هدية وهدية... كان السحب رائعاً».

قلب الصفحة على ظهرها. لأن الجريدة لُصقت بالصمغ البلدي من أجل أن تصنع كيساً، فقد تمزقت من عدة أمكنة، والكتابة في هذه الأمكنة ممحوة بحيث لايمكن قراءتها. قرأ في الأمكنة التي لم تسمح بالقراءة: إعلان من «إدارة السجل التجاري في اسطنبول».. «خزنة»، «بنوك»، «ديون»، «أصحاب الاستحقاق المشتبه بهم»، «أثاث»، «سند ادخار»، «رأسمال».. قرأها عدة مرات ولم يفهم شيئاً.

في أعلى العنوان وضعت صورة كبيرة لامرأة. امرأة جميلة تصافح رجلاً. وفوق الصورة هذا العنوان: سينفذ إعدام المرأة القاتلة بإبرة سامة. ازداد اهتمامه. قرأ كلمة كلمة، وانتبه لمعناها:

«تم البدء في ولاية تكساس في أمريكا بتنفيذ أحكام الإعدام بالإبرة لتكون أكثر إنسانية. لقد جرّب المسؤولون الذين توصلوا إلى قناعة أن الإعدام بواسطة الكرسي الكهربائي، وغرف الغاز، غير إنساني، لقد جربوا الإعدام بالإبرة لأول مرة على خمسة محكومين بالإعدام قبل ستة أشهر. ويتم هذا عبر زرق السم المسمى صوديوم ثيوبونتال في عِرق المحكوم بالإعدام. وبوساطة المادة المحقونة

في أوردة الذراع عبر فتحة في جدار غرفة الموت التي يجلب إليها المجرم، ينام، وهكذا يذهب إلى موت مريح. والمحكومة (ميري لو أندرسن)المنتظرة إعدامها بهذه الطريقة قابلت الصحافي الانكليزي المدعو جون كويت أول مرة بعد وضعها في الزنزانة. وميري لو في الرابعة والثلاثين من عمرها».

توقف خيري الحلاق، وفكر. لقد عاشت المرأة الأمريكية أكثر منه. تهيأ له أن فرق العمر ليس عشر سنوات فقط، بل مئة سنة.

«المرأة الشابة تزوجت مرتين، وطُلّقت، ولديها ولد».

قال خيري لنفسه: «على الأقل لديها ولد».

«لم تلتقِ (ميري لو) ابنها منذ دخولها في السجن. وتقول للذين يسألونها عن السبب: لاأريد رؤية ابني تحت هذه الشروط».

لم يلتق خيري الحلاق أمه منذ دخوله في السجن. فكّر كالمرأة تلك تماماً. لم يرد رؤية أمه «تحت هذه الشروط». أتت أمه مرتين لزيارته، إحداهما في المحكمة، والثانية أبلغها أنه في المستشفى، ولم يخرج للوقوف أمامها. لم يستطع الخروج. فكر في بيع أساور أمه وقرطها الذهبي لتأمين الرأسمال اللازم من أجل فتح دكان الحلاق. وعندما فكر بهذا ثنى رجليه نحو بطنه، وتقوقع تماماً بوضعية الجنين في بطن أمه، وبدأ البكاء. بكى مدة وهو هكذا.

«أجابت (ميري لو) عن سبب ابتسامتها إزاء مقابلة الصحافي الإجابة التالية: من أجل الإمساك بدموعي. أنا منذ أشهر في زنزانة لاترى ضوء الشمس. أنتم أول من أقابل من غير السجانين. أحلم بالإبرة تنغرز في ذراعي، فأستيقظ هلعة. أحياناً تصرخ المحكومات في الزنزانات المجاورة لي، ويُسمعنني أصواتهن. ويلكمن الجدار، ويناديني بصوت مخنوق: «اصمدي ياميري لو» من أجل تشجيعي.

ليس هناك من يرغب بالقيام بمهمة الجلاد. لاأحد يريد حقن إبرة السم. لهذا السبب كلفوا ثلاثة أشخاص بهذه المهمة كيلا يُعرف

من الذي قام بهذه المهمة. بعد أن تتمدد ميري لو في غرفة الموت، وهي ترتدي لباس الموت، وعند إعطاء مدير السجن أمراً: نحن جاهزون، سيفرغ الجلادون الثلاثة المتواجدون في الغرفة المجاورة المحاقن الثلاثة المملوءة بالسائل في الخرطوم البلاستيكي. سيكون السم في واحد من المحاقن الثلاثة فقط، ولن يعرف الجلاد نفسه في أي وقت، وهكذا سيتخلص الجلادون الثلاثة من شعور أنهم جلادون».

لقد قرأ خيري تلك المقالة مراراً وحين أعتمت عليه الزنزانة كلياً، ولم يعد يستطيع رؤية الكتابة كان بإمكانه قراءة هذه المقالة غيباً في عقله. وإذ يستعيد المقالة غيباً فإنه يبكي حين يصل إلى عدم رغبة ميري برؤية ابنها.

فُتح الباب الخارجي. اقترب وقع الأقدام عبر الممر. انتظر السجان في الخارج. دخل الشاب من مهجع المقطوعين إلى المنفردة. الجو معتم. وضع ماعون الطعام على الأرض، وأشعل عود ثقاب. وفي ضوء الثقاب رأى أنه ترك ماعون الطعام وعلبة كونسروة في الزاوية التي يضع فيها الطعام دائماً. سأل خيري ذاك الشاب الذي لم يكلمه أبداً حتى ذلك الوقت:

ـ من أرسل العنب ياأخي؟

قال الشاب هامساً وكأنه أمر سري كيلا يسمع الحارس المنتظر في الممر:

ـ رئيس الحرس أرسله يا أخي خيري.

فهم خيري أن من ينتظر في الممر هو رئيس الحرس.

وحسب تقاليد السجن قال الشاب قبل أن يخرج:

ـ بخلاصك!

سمع صوت المزلاج والقفل.

لنترك خيري الحلاق في المنفردة وحده، ولنعد إلى موضوع السرنامة. نعم، لدينا سرنامات بمثابة أمهات كتب على صعيد الكتابة النثرية، والموزونة أو المنمنمات. إحداها ماكتبه سيد وهبي نثراً عام 1720 ، ويروي فيها وقائع حفل الختان الذي أقامه السلطان أحمد الثالث لأولاده الأربعة مع خمسة آلاف ولد فقير. وفيها يروي العادات والتقاليد، والمراسم، والحفلات الخاصة باسطنبول في تلك الفترة. على الرغم من وجود نسخ كثيرة لهذه السرنامة، ولكن أجملها تلك التي في متحف (الطوب قابِ)، ولسبب ما لم يستطع الأجانب أخذها وتهريبها. وقد زين لوني سرنامة وهبي الموجودة في المتحف بمئة وسبع وثلاثين منمنمة. وعَرَضَتْ تلك السرنامة من خلال نصها، ورسومها، الاستعراضات في الشوارع، ومختلف الألعاب، والمسرح الشعبي لتلك الأيام، والمهرجين، والحفلات الليلية على ضوء المشاعل، ومرور الباعة بعرباتهم المزججة، والمسرح الجوال لتلك الأيام، إضافة إلى شخصيات ذلك الزمان، وألبسته.

وفي أثر الشاعر هشمت المسمى ولادة نامة، رُويت وقائع الاحتفالات المستمرة عشرة أيام بلياليها، واستعراضات المفرقعات الملونة المقامة من أجل ولادة السلطانة هبة الله ابنة السلطان مصطفى الثالث.

في الحقيقة لقد دهش وكيل النيابة الذي سينفذ عقوبة الشنق بخيري الحلاق كثيراً جداً، لعدم تنفيذ كثير من عقوبات الشنق، فهذه المرة هي الأولى التي ينفذ فيها حكم الإعدام.

أما بالنسبة لرأي وكيل النيابة التنفيذي القانوني الصرف، وصاحب الرؤية الواسعة، فهو مع مناقشة إن كان حكم الإعدام مشروعاً وضرورياً أم لا، وإن كان ثمة ضرورة لإلغائه أم لا. من الممكن أيضاً مناقشة شكل تنفيذ حكم الإعدام الذي لدينا وهو الشنق. لعله من الأكثر إنسانية تنفيذ حكم الإعدام بالكرسي الكهربائي، أو غرف الغاز كما هو الحال في الولايات المتحدة. من الممكن أيضاً

مناقشة قتل المجرم بقطع رأسه بالبلطة، فهو أكثر إنسانية من تعليقه على المشنقة من زاوية تحقيق الموت المفاجئ. ولكن من الواضح جداً أن المشنقة التي لدينا هي أفضل وسائل عقوبة الإعدام من ناحية أخذ الناس درساً، وعبرة. من المؤكد أن الشعب عندما يرى الجثة تتأرجح بفعل الهواء على حبل المشنقة سيأخذ درساً وعبرة، ولكن حسب رأي وكيل النيابة فإن هذه المناقشات كافة يجب أن تتم بشكل علمي، وأن تبقى في إطار العلم. وإلا فإن وكيل النيابة لاشك لديه، ولو بمقدار شعرة، بأن عقوبة الإعدام مشروعة. أما النقاش فأمر آخر، من الممكن أيضاً مناقشة إمكانية إلغاء حكم الإعدام، لأن وكيل النيابة يؤيد حرية الفكر، ولكنه يؤيد تطبيق القوانين أيضاً. لابدّ من شنق المستحق عقوبة الإعدام، فهذا يجعل الأفراد يعون لما هم فيه، ويجعل الدولة تحافظ على النظام، ومن جهة أخرى تستمر المناقشات، ولتكن هناك حرية.

هذه هي قناعة وكيل النيابة، ولكنه يشعر بالحياء والقلق لأنها المرة الأولى التي يكون فيها مشرفاً على إجراءات إعدام شخص. من المؤكّد أنه سيعتاد في المرة الثانية أو الثالثة، وسيقوم بعمله بسهولة كبرى، وإلا لماذا قال الأولون: «الجسارة مثل البكارة، لتتمزق مرة...».

قبل كل شيء قرأ وكيل النيابة الأقسام المتعلقة بالموضوع من كتابَيْ قانون أصول محاكمة العقوبات، وقانون تنفيذ العقوبات، والنظام المتعلق بتنفيذ الأحكام، وحسب ماتبين له من قراءته، فإنه مكلف بمهمة إعداد التحضيرات المتعلقة بالشنق وتنفيذ الشنق كافة، ويجب إنهاء هذه الإجراءات قبل يوم من تاريخ شنق خيري الحلاق. لابد من شنق خيري الحلاق قبل شروق الشمس، وظهور النور.

ولأن كلمة «الإسلام» مكتوبة إلى جانب كلمة «الدين» في هوية خيري الحلاق، ولأنه سُجّل مسلماً عندما ولد بقرار من والده، ودخل قوائم النفوس بهذه الصفة دون أن يكون له حق الاختيار، فقد أبدى

وكيل النيابة عناية خاصة كيلا يكون الإعدام في أيام الأعياد الدينية مثل عيدي الفطر والأضحى، أو وقفتي هذين العيدين، أو صباح ليلة القدر، أو المناسبات الدينية الأخرى. كتب تاريخ، وساعة، ودقيقة تنفيذ الإعدام التي حددها، وأبلغ الجهات المسؤولة بهذا. ولأنه شخص متعلّق جداً بوظيفته، كان يريد إعداماً دون نقص، يُتخذ مثالاً يحتذى به. لقد تعب وكيل النيابة إلى حد أنه رأى مدى صعوبة شنق حتى مجرم اعتدى على عرض ولد في السادسة من عمره، وخنقه، ودهش، وكان يتشاكى لمن حوله تعبيراً عن مقدار تعبه فيقول:

ـ ماأصعب أن ينجز الإنسان عملاً في هذا البلد!

حسب القانون والأنظمة يجب شنق خيري الحلاق أمام هيئة، وبعد شنقه يجب أن ينظم أعضاء هذه الهيئة تقريراً يحددون من خلاله حادثة الشنق. أعلم وكيل النيابة أعضاء هيئة الشنق بمكان الشنق وزمانه، وأرسل لهم دعوات رسمية للتواجد في زمن الشنق. إحدى هذه الدعوات وجهت إلى رئاسة محكمة العقوبات الثقيلة التي أصدرت حكم الإعدام بحق خيري الحلاق، لإبلاغها ضرورة تواجد أحد قضاة المحكمة التي حكمت على خيري في الهيئة، لكي يُشنق أمام عينيه.

يجب أن يكون في الهيئة الحاضرة لمراسم الشنق طبيب باثولوجي مهمته الأساسية تحديد أن المشنوق قد فارق الحياة، وبشكل علمي، ويوقع على محضر الشنق. فأرسل وكيل النيابة دعوة إلى مديرية الصحة من أجل إيجاد هذا الطبيب، وتواجده في الوقت المناسب في مكان أداء المهمة. وأرسل نسخة من الدعوة إلى إدارة السجن لأن مدير السجن هو أحد أعضاء الهيئة التي ستتواجد عند تنفيذ الإعدام. من المهم عدم تخريب حالة الأمن، وحمايتها. ولأن وكيل النيابة حقوقي يحترم العلم، تصفح الكتب التي وقعت تحت يده في موضوع التنفيذ حسب الأدبيات الحقوقية، وقرأ الحادثة التالية في أحد هذه الكتب:

«يمكن للانفعال والعنف أثناء تنفيذ حكم الإعدام أن يولِّدا أحداثاً غير متوقعة. إذ من الممكن أن يكون هناك متعاركون. ففي عام 1807 مثلاً خرجت عن طورها وبشكل مفاجئ كتلة بشرية، تتألف من أربعين ألف شخص جاؤوا للفرجة على إعدام هولو وي، وهاغيرتي في انكلترا، وعندما انتهى الشجار كان يتمدد في الساحة قرابة مائة قتيل».

اتخذ وكيل النيابة الذي قرأ هذه الحادثة، وماشابهها، التدابير كافة لكي لاينفلت الأمن من عقاله، وتمتلئ الساحة بالأموات. إنما يعدم شخصٌ من أجل أن يعي الأفراد، وتؤمّن الدولة النظام والانضباط.

وحسب ماعرفه من قراءة الكتب هذه، أنه في العصور التي كان يعدم فيها النشالون في انكلترا، كان الكثير منهم يفرغون جيوب الناس المزدحمين للفرجة على إعدام زميلهم، تماماً كما يحدث عندنا في الانتخابات عندما يفرغ النشالون جيوب المتجمهرين الذين يرفعون أيديهم للتصفيق في الخطب الحماسية.. حسناً، ماذا عن الدرس والعبرة؟ ألا ينظر هؤلاء إلى المعلّق على المشنقة، ويأخذون درساً ويتعظون؟ قال أحد المؤرخين الكبار: «أكبر الدروس المتخذة من التاريخ هو أن الناس لايأخذون الدروس من التاريخ».

وقال الشاعر عاكف في هذا الموضوع:

يقال إن الإنسان يأخذ عبرة من الماضي.. يالها من حكاية!

وهل أعطى تاريخ خمسة آلاف عام نصف عبرة؟

يقولون: «التاريخ يكرر نفسه»

فهل يكرر نفسه لو أُخذت منه عبرة؟

مهما يكن فإن مهمة وكيل النيابة هي العمل مابوسعه من أجل أخذ عبرة من عقوبة الإعدام بما يناسب روح القانون. لهذا السبب،

وكيلا يخرب النظام، ولكي يعاد تحقيقه إن خُرب، أرسل كتباً ودعوات إلى مديرية الأمن، وقيادة الجندرمة.

وحسب العادة في الإعدام يجب أن يتواجد موظف ديني، أي إمام، لأن أبا خيري سجله مسلماً عندما ولد. ولكي يتواجد إمام في هيئة الشنق، أرسل دعوة إلى دائرة الإفتاء.

لن تبقى الجثة تتأرجح على المشنقة. ثمة ضرورة لوجود سيارة جنازة من أجل أخذ الجثة إلى المقبرة بعد أن يأخذ منها الشعب درساً وعبرة. لهذا السبب أرسل وكيل النيابة كتاباً إلى إدارة المقابر.

وحسب النظام الداخلي، يجب أن يتواجد محامي الشخص المشنوق في مراسم الشنق لرؤية نجاحه. بحث في ملف خيري الحلاق لمعرفة محاميه. وإذا كان ثمة محام في بداية الدعوى، فإن هناك في الملف استدعاء يُعلم أن المحامي ينسحب من توكيل خيري الحلاق له. هذا يعني أنه لن يكون ثمة محام في مراسم الشنق، وهكذا تخلص وكيل النيابة من إرسال دعوة للمحامي.

حسب النظام الداخلي أيضاً ثمة ضرورة لوجود الأقرباء المقربين في مراسم الشنق. والشرطي الذي ذهب للبحث عن أقرباء لخيري الحلاق عاد بنتيجة سلبية. عندما سمعت أم خيري الحلاق بخبر تصديق محكمة التمييز لعقوبة الإعدام توقف قلبها وماتت، وهكذا حُرمت من حضور الحفل الوحيد الذي سيقام لابنها في حياته القصيرة. وإذا كان لخيري الحلاق أقرباء آخرون، فإما أنهم لم يوجدوا، أو أنهم لايريدون المجيء إلى مراسم احتفال كهذا.

لم يكن من السهل القيام بهذه الأعمال كلها، وكتابة هذه الدعوات، وإرسالها. ولأنه ليس للكاتبات في النيابة العامة تجربة سابقة في هذا الموضوع، فهن لم يعرفن كيف تكتب الدعوات لأعضاء الهيئة. لم يمرّ على رؤوسهن أمرٌ كهذا. وأول نص كتبنه

جاء مثل دعوة الأعراس. لهذا السبب اضطر وكيل النيابة لكتابة مسودات الدعوات بنفسه. وهذه الأعمال ليست مثل بقية الأعمال العدلية تؤجل ليُنظر بها في أي وقت. وحسب النظام الداخلي فإن جميع أعضاء هيئة الشنق يجب أن يتواجدوا قرب المشنقة في الوقت المناسب، بالساعة والدقيقة والثانية. وإذا لم يأت أحدهم مثلاً؟ دهش وكيل النيابة عندما فكر بهذا. لأنه لم يُكتب في النظام الداخلي ما الذي يفعل في حال غاب أحد أعضاء الهيئة. وإذا كان لسبب ما لم يُكتب ما الذي يمكن فعله، فيمكن الحصول على نتيجة من كتب قانون التنفيذ. الموت عقوبة شديدة جداً. ماذا تعني شديدة جداً؟ أي إنها أشد العقوبات. وعندما يكون الأمر على هذا النحو فليس من الصحيح وضع الشخص الذي سيشنق حتى الموت قانونياً في مواجهة موقف مؤسف. سيكون مؤلماً جداً للشخص المحكوم بالإعدام جعله ينتظر بجانب المشنقة، أو إعادته وتأجيل الإعدام إلى يوم آخر بسبب تأخير أحد أعضاء الهيئة، أو تغيّبه. حتى لو كانت مهمتنا قتل إنسان التزاماً بالقوانين فعلينا تنفيذ هذه المهمة قدر استطاعتنا دون تعذيبه، أو تعذيبه بالحد الأدنى، وبشكل إنساني جداً. حتى يقول الشخص المشنوق الذي أخذ عقوبته، إذا أمكنه التحدث بعد الشنق، للذين شنقوه بشكل حضاري وإنساني: «ليرض عنكم الله!. تسلموا، لم تؤلموني، يالجودة شنقكم لي!..».

أثناء اهتمام وكيل النيابة بقصة شنق خيري الحلاق تعمّق في هذا الموضوع لدرجة فكّر فيها بكتابة كتاب حوله عند انتهاء عملية الشنق هذه. لقد فكّر حتى بعنوان الكتاب: «القضايا المحتمل مواجهتها أثناء تنفيذ الإعدام من وجهة نظر قانوننا». إنه اسم جميل لكتاب دراسة. لقد تأمل بكيفية بيع الكتاب الذي فكر بكتابته بالتفصيل. سيبيع الكتاب بشكل مباشر، وسيرسل لكل وكيل نيابة، صديقه، في مدينة بعيدة عشر نسخ أو عشرين. وبما أن تنفيذ حكم الإعدام يمكن أن يواجه كل وكيل نيابة فإن الكتاب سيحقق مبيعات

كبيرة. وسيكتب إهداءً في أول الكتاب، وعلى صفحته الأولى يقول فيه: «إلى زوجتي ب.ك التي منحتني قوة العمل، وسبب نجاحي».

عمل وكيل النيابة على تنفيذ كل التدابير لقتل خيري الحلاق المحكوم بأشد عقوبة، أو العقوبة الأشد بين العقوبات، وهي عقوبة الموت بشكل قانوني، وبأقل إيلام وبالطريقة الأكثر إنسانية. أُرسلت الكتب إلى حيث يجب في الزمن المناسب. ولكن لايمكن الاكتفاء بإرسال الكتب. راح يتابع شخصياً فيما إذا كانت تلك الدعوات وصلت أم لا، وفي هذه الأثناء فجأة فهم أنه نسي أهم مافي الأمر ـ تفو، هذا مايحدث في كثير من الأحيان ـ ياهذا، من سيضع حلقة الحبل المزيت في رقبة خيري الحلاق؟ ومن سيرفس الكرسي من تحت قدمي خيري لجعله يتأرجح على حبل المشنقة؟ كاد أن ينسى إرسال خبر للجلاد. وبسرعة كتب إلى مديرية الأمن لإيجاد الجلاد فوراً، وجلبه قبل الشنق بيوم إلى النيابة. والدعوة المكتوبة بسرعة قصوى أُوصلت إلى مكانها بالسرعة القصوى.

يروي هذا الفصل كيف تم البحث عن الجلاد الشهير علي الذي سيشد حبل خيري الحلاق، وبعد ذلك جلبه إلى رأس عمله بالقوة

إنه اليوم الثالث لوضع خيري الحلاق في المنفردة من أجل نقله إلى المشنقة. ولأن الهيئات العدلية لاتريد جعله ينتظر أكثر، وبالتالي تعذيبه أكثر، فهي منهمكة بإعداد كل مايلزم من أجل إعدامه في أقرب فرصة ممكنة. وجاء الدور الآن على تأمين الأدوات واللوازم الضرورية من أجل الشنق. أولاً يجب إيجاد المشنقة. أين المشنقة؟ هبَّ وكيل النيابة في وجه مدير السجن قائلاً: «مشنقة هالقدّ قدّها، أين تضيع؟ أما شُنِق أحد من هذا السجن الكبير حتى الآن؟ حسناً، إذا كان قد شنق، فبماذا شنق؟ لم يشنقوا هؤلاء بكلابة قصاب ياه، أليس كذلك؟ آخر شخص شنقتموه قبل أربع سنوات؟ حسناً، إذا كان الأمر هكذا، فأين المشنقة؟ عليكم أن تجدوها بسرعة!».

قال مدير السجن بأنه وجدت قائمتان من قوائم المشنقة في المكان الرطب جداً المستخدم مستودعاً خلف الزنزانات. وعلى الرغم من البحث الطويل لم توجد القائمة الثالثة، إحدى القائمتين الموجودتين تعفنت كثيراً من الرطوبة، ونمت عليها الفطور، ولايمكن أن تحمل شخصاً سيشنق، وخاصة إذا تحرك قليلاً. يمكن أن تتكسر، والأفضل شراء قوائم جديدة للمشنقة، كما وجدت قطع الحديد مثل البراغي والصمن، و(الرنديلات)، والمحاور صدئة جداً.

قال وكيل النيابة الغاضب: «ستلزم دائماً هذه الخـ...» كاد أن يقول: «الخرية» ولكنه ابتلع الكلمة الأخيرة، ولم يستطع إخراجها من

فمه. هل يمكن أن تضيع قائمة مشنقة ضخمة ياعزيزي، وأين؟ في سجن لايمكن أن يخرج منه الطير.. من الواضح أنهم أحرقوها.. ماذا سيحدث الآن؟ ستُصنع مشنقة جديدة، ولكن ليس لدينا الوقت الكافي.. الله، الله، كل شخص وضع قدميه في الماء البارد. قبل كل شيء يجب شراء خشبة مناسبة لقائمة مشنقة. لا، لاتصلح مجرد خشبة، يجب أن تكون تربيعة. لاياعزيزي، حتى إنها ليست تربيعة، يجب أن تكون أكبر، لا، يجب أن تكون (لاطة)، والأفضل أن تُشترى ثلاثة أعمدة...

ماذا يلزم أيضاً؟ أفضل من يعلم مايلزم هناك هو الجلاد علي. فالجلاد علي هو معلم في هذا العمل. وكما يوجد ختّانون فنيون مهرة، ولسرعة يدهم وخفتها لايشعر الطفل أن جلدة عضوه قد قطعت، ويوجد مختصون بقلع الأسنان لايُشعرون صاحب السن أنه قلع، فالجلاد علي شخص هكذا ياسيدي وكيل النيابة. يده خفيفة وسريعة، ويكاد يُشعِر الرجل المشنوق بأنه لم يشنق، بل يمزح معه...

حسناً ياعزيزي فهمنا..

- ياناس، أين الغجري المدعو علي الجلاد؟ ألم يأتِ بعد؟

قال كاتب الضبوط:

- راسلنا مديرية الأمن ياسيدي...

- دع المراسلة. إنك تعرف ياه، لايمكن أن يأتي الجواب على كتاب قبل ستة أشهر. لن ينتظر الرجل المسكين ستة أشهر من أجل أن يشنق.. أية بيروقراطية هذه؟!.

- ولكي تكون مستعجلة لم نرسلها بإحالة، لقد أخذها المباشر باليد.

قال المباشر:

- أنا أخذتها، وسلمتها باليد ياسيدي.

- وماذا بشأن تسجيلها؟

إذا لم يؤخذ رقم قيدها، اللهم احمنا، لن يظهر مسلِّم، ولامستلم. وليس بالإمكان إيجاد ذلك الكتاب حتى يوم القيامة.

ـ سجلتها ياسيدي، وأخذت رقمها وسجّل في دفتر الذمة.

ـ أحسنت، حسناً جداً.. لماذا لم يرسلوا إذن هذا الجلاد حتى الآن؟ سيشنق الرجل وليس هناك جلاد... حسناً، ماذا سيحدث؟ من سيشد الحبل؟

اتصل وكيل النيابة بمديرية الأمن هاتفياً. الجواب المرسل من هناك هو أن الشرطة تبحث عن علي الغجري على عدة محاور، ولكن حتى الآن مع الأسف لم يوجد له أي أثر، ولكن يُبحث عنه بجدية. وعندما علم وكيل النيابة أنه من غير الممكن إيجاد جلاد آخر، رجاهم أن يجدوا علي الغجري.

أغلق وكيل النيابة الهاتف وغاص في أفكاره. في دولة بكل هذه الضخامة لايوجد فيها سوى جلاد واحد... أي أنه ليس ثمة من يريد شنق رجل حتى مقابل أجر... ويشتكون من البطالة. العمل كثير لمن يريد ياسيدي، يكفي أن يريد الإنسان!..

نتيجة تعب وكيل النيابة في تحضيرات الإعدام، وأرقه، بدأ يفكر بشكل معاكس. ماذا يحدث إذا لم يوجد الجلاد؟

«سيدي يلزم حبل. أنا تواجدت في إعدامات ثلاثة أشخاص. كنت مكلفاً بمهمة رئيس حرس».

«حبل؟ أي حبل؟ نعم، فعلاً يلزم حبل..».

«أنا أعرف ياسيدي يجب أن يكون غليظاً..».

«ماذا يعني غليظ؟ هل بغلظ حبل السفينة؟ أليس له مقاس معين؟».

«إذا كان بتلك الغلاظة فلا يطوّق رقبته.. رفيع..».

«ياعزيزي، ماذا يعني رفيع؟ ليس مرسة ربط طرود ياه.. كم هو ثخين، وكم هو رفيع؟..».

«لاتقلقوا ياسيدي، نحن نتخذ قرارنا بالنظر. يكفي أن يتحمل وزن رجل..».

«ليكن بطول مناسب.. احذروا أن يكون قصيراً. إذا كان طويلاً وزاد منه فلا ضرر من هذا، أما إذا كان قصيراً، ولم نستطع شنق الرجل سيكون الأمر بشعاً.. ياناس في أي جهنم غاب هذا المدعو علي الغجري؟».

«إذا اشترينا خمسين متراً من الحبل يكفي ياسيدي..».

«ماذا أيضاً.. بحبل طوله خمسون متراً يمكن شنق خمسين رجلاً».

«في المرة الماضية طلب علي الغجري خمسين متراً».

«حسناً، ماذا حدث لذلك الحبل الذي استخدمتموه؟ أين هو؟».

«الحبل.. هل الحبل؟ الحبل..».

«ماذا غير الحبل؟».

«هذا الأمر يتطلب زيت زيتون ياسيدي. صفيحة زيت زيتون..».

«صفيحة؟ وماذا أيضاً؟.. نحن لن نغطّس الرجل في زيت الزيتون ياناس، سنشنقه بالحبل».

«ليكن ياسيدي.. عندما لايكون زيت الزيتون موجوداً.. حتى أن صفيحة واحدة لاتكفي، من الأفضل أن يكون هنالك صفيحتان. سينقع علي الأسود الحبل في زيت الزيتون قبل ليلة. وسيمتص الحبل زيت الزيتون جيداً».

«حسناً، حسناً.. اكتبوا كل مايلزم على ورقة، وجهزوا قائمة!».

تحدث وكيل النيابة مطولاً مع مدير السجن عن مصدر الإنفاق على شراء هذه الأدوات، واللوازم، وكيفية إيجاده. كانت الوزارة قد أرسلت إلى النيابة قبل مدة قصيرة تعميماً يقول فيه: «... بشرط مراعاة الحد الأعظمي من التوفير». والأهم في هذا الأمر، من أية

ميزانية سيؤمن ثمن الأدوات اللازمة للشنق. المصاريف التي ستدفع في مؤسسات التنفيذ، والنفقات الأخرى مدونة بالقوانين، وبتعميمات الوزارة. وبما أنه لم يُذكر فيها مواد، مثل شراء قوائم المشنقة، والحبل، وزيت الزيتون، وأجرة الجلاد، فيجب شراؤها مما يشار إليه في المادة ذات الرقم 15129 من قانون الميزانية تحت بند «نفقات مختلفة».. لايوجد نقود! وعندما لايكون ثمة نقود ماذا سنشتري، وبماذا؟ لقد وصل العام المالي إلى نهايته، وصرفت الميزانية، واستهلكت. ذكر كاتب السجن الذي يقوم بمهمة معتمد الصرف أيضاً ـ وهو الذي أوجد الذريعة لإلقاء خيري الحلاق في المنفردة ـ بإمكانية تأمين هذه النفقات عن طريق الاستلاف. حسناً، ولكن كيف سيتم هذا الأمر؟ لماذا فضل كاتب السجن، الذي يُعتبر شيطان الشؤون المالية، تواضع البقاء في عمل صغير مثل هذا بينما لديه مهارة تؤهله أن يكون محاسباً عاماً في بنك كبير على الأقل، وحتى وزير مالية. لعله وجد طريقاً لكسب نقود أكثر. ومن خلال دفعه أجرة بيت تساوي ثلاثة أضعاف راتبه يتبين أنه من الماليين السحرة. شرح كاتب السجن ماذا يجب أن يفعل، وكيف أبلغ مدير السجن خطياً وكيل النيابة الذي بجانبه أنه عيّن شخصاً معتمداً لقبض السلفة اللازمة من أجل نفقات أعمال الشنق. ووكيل النيابة ـ أي السيد المحترم ـ أضاف اقتراحه ليقدمه إلى آمر الصرف. عندما يصادق عليه آمر الصرف ـ وهو السيد محافظنا ـ سيكون قد كلف شخصاً بمهمة المعتمد المالي. إثر هذا سيسحب المعتمد المالي، وليكن من يكن، من خزينة المحاسبة العامة السلفة، ويصرفها حسب الضرورة. بعد ذلك ستقدم بيانات الصرف للمحاسبة العامة، وهذه الأعمال بسيطة وسهلة إلى هذا الحد.

«ياسيدي، هذه الأمور مدونة في قانون المحاسبة العامة بهذا الشكل».

«أشكرك».

هيه ياالله، إنسان له كل هذه المواهب، تعال واستهلكه في قلم السجن!. ما أكبر هذا الظلم! «هل تحسب قيمة الزيت و(الميت)، والحبل و(المبل) واللوازم كلها لمعرفة كم يلزمنا من النقود لو سمحت؟ أي كم سنطلب سلفة؟».

«ياسيدي حسب قانون المحاسبة العام يمكن أن يُعطى ألف ليرة على الأكثر».

«ماذا، ألف ليرة؟! إيه وماذا سنعمل؟.. لو أنكم لاتشترون حبلاً بكل هذه الغلظة، كل ماهنالك رجل سيعدم. كم وزنه؟ هل هو سمين؟ يعني أنه ضعيف..حسناً ياه..حسناً، ثم إنه من الممكن ألا تكون نوعية زيت الزيتون جيدة، لن نستخدمه في السَلَطة ياه..حسناً أنني تذكرت، ياناس ماذا جرى للجلاد علي الغجري؟ اتصلوا بمديرية الأمن. ألم يجدوه حتى الآن؟ إذا لم يجدوا علي الغجري فافهم ماذا سيحدث... هذا الجلاد الوحيد في تركيا بكل كبرها وضخامتها...».

وكما تكتب الجرائد دائماً أن «الشرطة استنفرت» من أجل العمل الفلاني، استنفرت شرطة اسطنبول وهي تبحث عن الجلاد علي الغجري في كل الأمكنة التي من المحتمل أن يتواجد فيها. كأن الأرض انشقت وابتلعت علي الجلاد، فلم تستطع إيجاده بأي شكل. بعد ذلك لجأت الشرطة إلى قوتها الكبيرة تلك، واستخدمت المخبرين وبتقييم المعلومات الواردة إليها وجدت علي الغجري في مكان ما من أسوار اسطنبول المهدمة بين (طوب قاب/ باب المدفع)، وباب أدرنة، في مغارة شكلتها تلك الأسوار، يذبح فيها الحمير المريضة والجربانة، والبغال الهرمة بشكل غير قانوني لتباع سراً لجزاري اسطنبول على أنها لحوم عجول. قبضت الشرطة على علي الغجري هناك في وضع «سلطنة»، أي أنه شرب الكحول الملون، وملأ رأسه في كهف أسوار اسطنبول هذا، حيث تذبح البغال والحمير تهريباً، ويتقاضى علي الغجري مقابل جهده الكحول الملون المستخدم في طلاء أخشاب المفروشات. وبالخبرة التي اكتسبها من شنق الآخرين

على مدى سنوات طويلة، يساعد في ذبح الحمير والبغال الهرمة والمريضة. بصعوبة، وبكثير من النَهْر استطاعت الشرطة إيقاظ علي الغجري من نومته الملوكية التي رقدها بعد أن شرب الكحول الملون، ودخن وراءه سيجارة حشيشة تسمى «مزدوجة الورق». استيقظ ولكنه لم يفهم شيئاً مما قيل له. بعد قليل استطاعت الشرطة التي تُفهم الحجر إفهام علي الغجري ماتريده منه. قيل لعلي الغجري إنه سيؤخذ حالاً إلى النيابة لأن هناك شخصاً سيعدم في اليوم التالي. ودون أن يعدّل علي الغجري جسده الممدد على أحجار جدار السور المتهدمة، أعلمهم أنه لن يخطو خطوة واحدة من مكانه. شُرِحَ له بأن هذه مهمة. نعم مهمة. ومنذ سنوات طويلة يقوم علي الجلاد بهذه المهمة وحده.

«ياأخوتي الشرطة، أنتم أيضاً تقومون بمهمة، إذا أتى أول الشهر ولم تتقاضوا رواتبكم فهل تنفذون مهماتكم؟».

حكى علي الغجري بكثير من الجهد غير المفيد أنه لم يقبض أجرة آخر شخصين شنقهما، ومضى على إعدام أحدهما سنتين، والثاني ثلاث سنوات. ذهب إلى النيابة للمطالبة بنقوده فأرسلته النيابة إلى مديرية الأمن، ومديرية الأمن أرسلته إلى النيابة، وبعد ذلك أرسلته النيابة إلى إدارة السجن. واهترأت قدماه لكثرة ماذهب إلى هذه الأمكنة الثلاثة. وهذا حقّه، وعرق جبينه. كانوا يمطمطون الأمر ويؤجلونه قائلين: «لايوجد نقود»، «لم يبق شيء من الميزانية!»، «في السنة القادمة»..

«إذا لم يكن لديكم نقود، فلماذا تشنقون البشر؟ وهل يُشنق إنسانٌ مجاناً؟ لو كانت حسنة لتفهمنا الأمر. اشنق رجلاً لاتعرفه أبداً، وليس بينك وبينه حتى الخبز والملح، ولاتقبض أجرته..هل هذا ممكن يا أخي؟.. دولة طويلة وعريضة تأكل حق علي الغجري المسكين. أمعقول هذا؟».

قال علي الغجري إنه لن يقوم بهذا العمل حتى لو شنقوه مكان

الذي سيشنق. وقال وقتها لوكيل النيابة الذي طرده عندما ذهب للمطالبة بنقوده: «إيه، هذه دنيا.. سيأتي يوم تحتاجون فيه علي الغجري.. وتنبشون بالأربع بحثاً عن علي الغجري».

من الصعب عليهم إيجاد جلاد تمرّس في عمله مثل علي الغجري. يقول المثل: «كل شخص يستطيع عمل ملعقة، ولكن لايستطيع جعل المقبض يتوسطها..» وماذا قال المثل أيضاً: «كل شخص يمكنه أن يعلك علكة، ولكن لاأحد يستطيع فرقعتها مثل عائشة» كل شخص يمكنه أن يشنق رجلاً، ولكن لاأحد يستطيع شنقه مثل علي الجلاد.

«لو قتلتموني فلن أذهب يا أخوان.. إذا لم آخذ أجرتي عن شنق الرجلين السابقين، وأجرة شنق هذا سلفاً فلن أخطو خطوة واحدة..».

لاتعملها يا علي الغجري.. يمكننا أخذك جرّاً ولاه علي الغجري..

«عندئذ سيختلف الأمر.. يمكنكم أخذي ياأخوان، تأخذونني جراً، ولكنني لن أذهب تلقائياً.. يمكنكم أخذي جراً، ولكنكم لاتستطيعون إرغامي على شنق رجل تحت الضرب ياه..».

وتحت تأثير السلطنة التي حققها له الكحول الملون الذي شربه، والحشيشة المدعوة البنت الشقراء التي دخنها، صرخ علي الجلاد قائلاً: «أليس مؤسفاً أن يُشنق هؤلاء الرجال مجاناً. لتُدفع نقود الجلاد على الأقل، بالتالي لينفع شنقهم بشيء...».

إذا ترك رجال الشرطة علي الغجري الذي وجدوه في جحر من جحور السور بعد بحث دام يومين، لسؤال النيابة عما سيفعلونه كونه لايريد المجيء، سيهرب من هنا، وجِدْهُ إن كنت تستطيع. مع أن خيري الحلاق سيعدم في اليوم التالي. الأفضل أخذ علي الغجري إلى النيابة العامة بالحسنى أو بغيرها، محبة أو إكراهاً، بالمدح أو

بالضرب، أو بأية وسيلة ممكنة. لملموا علي الغجري المستمر بالسلطنة كما يلملم الطرد، وحملوه في سيارة الشرطة، وسلّموه للنيابة. بدأ علي الغجري كلامه في النيابة حيث لم يكن قد صحا بعد: «قلت لكم إذا كانت دولة طويلة عريضة لاتستطيع دفع حق الجلاد علي المسكين، لتعطني على الأقل أغراض الشخص الذي أشنقه. لم تعطوني إياها. أنا لم يبق عليّ ذنب، لقد قلت لكم هذا في وقته».

السلطة الرابعة التي تأتي بالترتيب بعد السلطات التشريعية، والتنفيذية، والقضائية، وتسمى بالنسبة للبعض الثالثة والنصف وهي الصحافة، وقسم الجرائد اليومية منها، تقوم بما يقع على عاتقها في موضوع تعليق خيري الحلاق على المشنقة. لقد أعلنت على الشعب يوم وساعة إعدام خيري الحلاق. وهي تعيد نشر وقائع الجريمة التي ارتكبها خيري الحلاق صاحب الروح الوحشية، من بدايتها. إنها تنشر وبالتفصيل كيف وقعت الحادثة، وكيف سارت المحاكمات، وكيف شرح خيري الحلاق الحادثة أثناء المحاكمات. ونشرت الجرائد أيضاً صور خيري الحلاق الملتقطة خلال المحاكمات. وإزاء هذه المنشورات التحريضية المستمرة تهيّج بعض المواطنين، وأرادوا تطبيق الشريعة، أي القصاص وبحساب الدم بالدم، والروح بالروح، أي يجب أن يُعمل لخيري الحلاق ماعمله لضحيته تماماً، ثم يخنق. وهناك من المتهيجين إثر قراءة الجرائد من قال: «لو يتركوني أخنقه بيدي»، وهناك كثير ممن تطوع للقيام بعمل الجلاد قائلين: «لو أشد حبله أنا».

لم تقتصر مقالات الجرائد حول خيري الحلاق على الاستفزاز، واستغلال العواطف فقط، بل نشرت بعض الجرائد مقالات وأبحاثاً علمية حول هذا الموضوع. فكتب أساتذة الطب، والحقوق، والاجتماع وخبراؤها، وعلماء الجريمة مقالات تفتح عقول الشعب وتنبّهُه. وعن طريق المقالات المنشورة تحت عناوين: «العقوبات الجزائية لفعل اللواطة في قوانيننا»، «الأسباب النفسية للانحراف

الجنسي»، «مؤسسة الزواج بين أفراد الجنس الواحد»، «حقوق الزواج بين مثليي الجنس» تفي القوة الثالثة والنصف بمهمتها، رافعة سوية قرائها الثقافية.

كان لدى الشعب في اسطنبول إرادة منقطعة النظير للفرجة على شنق خيري الحلاق. ليس الاسطنبوليون، وسكان اسطنبول وحدهم من يتهافت للفرجة على تعليق عدو العرض والشرف هذا، بل الذين يسكنون في المناطق البعيدة أيضاً. كثير ممن يسكنون في نواحي اسطنبول البعيدة مثل يالوفا، وقرطال، وتشاطلجا، والجزر، وشيلة، تدفقوا إلى اسطنبول للتواجد في مراسم احتفال الشنق. لهذا السبب امتلأت وفاضت فنادق اسطنبول ماعدا الفخمة السياحية منها. أما من لم يجد مكاناً في الفنادق أو يريد رؤية هذه الفرجة التي لانظير لها دون مصروف، فيبحث عن فرصة استضافته ليلة في بيوت أقربائه أو أصدقائه. وأما الذين يسكنون الأرياف، ولكي يستفيدوا من هذه الفرصة التي لاتسنح في أي وقت، ويأخذوا درساً، ويعتبروا، فقد أبرقوا، أو هتفوا، أو أرسلوا رسائل لأقربائهم وأصدقائهم في اسطنبول لحجز أمكنة لهم في الفنادق، وإذا لم يتمكنوا فيرجونهم تأمين مكان يستضيفونهم فيه لليلة واحدة. والجواب على هؤلاء كان بشكل عام بهذه الكلمات أو ماشابهها: «آه..والله.. لو كان عندنا علم من قبل.. في تلك الليلة سيأتي إلينا أربعة أصدقاء للنوم.. وإلا ماقيمة هذا..مكانكم على رأسنا.. فوق هذا ستأتي حماتي وابن حمي.. أنا آسف جداً.. كل فترة طويلة.. الله الله..وبيتنا أصلاً يتألف من غرفتين وصالة.. تسمى صالة، ولكنها بصعوبة تستوعبنا وحدنا..».

الموضوع الوحيد المُحكى به في تلك الأيام في البيوت، والمقاهي، ومحلات العمل، وخصوصاً في دوائر الدولة، وفي وسائط النقل، والأزقة، والأمكنة كلها، هو كيفية اعتداء عدو العرض والشرف المدعو خيري الحلاق على ولد في السادسة من عمره،

وبعد ذلك خنقه. والأولاد الصغار المهرة في فهم مايخفى عنهم جيداً، يتحدثون متهامسين بهذه الحادثة بكل تفاصيلها، آخذين الدرس المناسب لهم.

اسطنبول تغلي من أجل رؤية مراسم غير عادية كهذه، والناس يتدافعون. كثير من الأشخاص يريدون رؤية شد الحبل على رقبة المجرم بأعينهم لأخذ العبرة والدرس بالشهادة العينية. غير هذا سيحكون لغيرهم بعد ذلك عن مراسم الشنق بتشويق شديد لانتزاع إعجابهم.

كلما اقتربت ساعة إعدام خيري الحلاق يزداد انهماك وكيل النيابة الجمهوري. لقد انتبه متأخراً جداً أنه نسي تكليف أحد الموظفين بكتابة حكم الإعدام بأحرف كبيرة جداً بحيث تُرى من بعيد لتعلق على صدر المحكوم وتغطيه. وبسرعة أصدر أوامره لذوي العلاقة لاتخاذ اللازم. بعد حوالى عشر مسودات أعجب بملخص الحكم الذي سيعلق على صدر خيري الحلاق. وكيل النيابة شخص دقيق وصاحب اهتمام. ولكن عمله ليس الاهتمام بشنق خيري الحلاق فقط.. وهل من السهل أن يكون الإنسان نائباً عاماً جمهورياً لشؤون التنفيذ في مدينة كبيرة! لقد تعب وقلق حتى كاد يصل إلى وضع يقول فيه يجب إلغاء عقوبة الإعدام على الرغم من تأييده لها لأنها تحافظ على النظام الاجتماعي، والراحة الفردية. يجب إيجاد أسلوب يتحقق من خلاله عمل مراسم احتفالات الشنق هذه بشكل أسهل.

مرة أخرى ذهب وكيل النيابة إلى السجن من أجل التفتيش إن كانت تحضيرات الشنق قد تمت أم لا. لله الشكر تم إيجاد الجلاد علي الغجري، وجُلب، وأدخل قسم إدارة السجن، وبهذا تمت الحيلولة دون هروبه قبل إنجاز عمله. كان يقسم كأنه يشتم خالطاً ألفاظاً حول الأمهات والأعراض بأنه لن يمد يده إلى الحبل دون أخذ أجرة شنق الشخصين السابقين، وأجرة هذا الثالث سلفاً. كما أنه لايمكن

أن يشنق هذا الجديد بالسعر القديم. الحياة صارت غالية، وازدادت أسعار كل شيء، وجاء وراء ارتفاع الأسعار ارتفاع آخر، حتى أن رواتب الحراس، والمدير، ووكيل النيابة زادت مرتين، لذلك فهو لايمكن أن يشنق رجلاً بسعر قبل خمس سنوات، بتلك النقود اليوم لايشنق رجل، بل لايذبح فرخ دجاج. إنه لن يزيد أجرة هذين الشخصين الذين شنقهما ولم يتقاض أجرتهما، ولكن يجب رفع سعر الذي سيشنقه في الغد، ثم إنه يجب دفع النقود فوراً مع دينه القديم.

لم يستطيعوا بأي شكل من الأشكال إقناع الجلاد علي الغجري بأنه لم تبق أية ميزانية بسبب نهاية العام المالي، وأنه لم يبق لديهم نقود من السلفة التي أخذوها، ولايمكن أن يدفع وكيل النيابة من جيبه نقوداً للجلاد من أجل شنق مجرم... أصدر وكيل النيابة أمراً حازماً لمدير السجن ليفعل مايفعل لجعل علي الجلاد يقوم بمهمته بالحسنى، أو بالقوة. في هذه الأثناء قال كاتب السجن، الساحر المالي، الذي كان بجوارهما: «اتركوا هذا الأمر لمحسوبكم ياسيدي. أنا أدخل منخريه، وأجعله يقتنع».

ـ ماذا حدث بشأن المشنقة؟

ـ جاهزة ياسيدي.

ـ ومكان الشنق؟

ـ تنظَّم ياسيدي.

ـ الحبل؟

ـ اشتُري.

ـ زيت الزيتون؟

ـ اشترينا صفيحة، وهي في الحمام.

ـ جميل!..

كُتب ملخص الحكم على قطعة كرتون كبيرة، ووضع لها خيط

لتعلق في رقبة خيري. كل شيء، كل شيء جاهز. ليأت الغد، ولينته هذا الأمر على خير، وليخلصوا هم أيضاً.

ذهب النائب العام إلى بيته يسيطر عليه شعور الراحة لإنجازه كل التحضيرات. تبعه مدير السجن ذاهباً إلى بيته. لم يستطع الكاتب الذهاب إلى بيته إلا في وقت متأخر لأنه عمل على إقناع علي الجلاد بعمل الغد، ولكنه نجح بإرضائه. وكما قال فإنه دخل من فمه وخرج من منخريه، فقد أعطاه كثيراً من الحشيش الذي أحضره آغوات السجن، ووضع أمامه سفرة لم ير مثل أطعمتها في حياته. كما قدم للجلاد علي الغجري إكراميات لايمكن الكتابة عنها. وفي النهاية دقّ اقتصادي السجن الساحر بيده على صدره قائلاً: «نقودك مني، اعتبر أنك ستأخذ نقودك مني!.. أنجز عملك، وتعال خذ نقودك مني!».

تناول وكيل النيابة طعام العشاء مع زوجته وأولاده في بيته، ثم أخذ كتاباً دون أن ينظر إليه، وما إن قرأ سطرين أو ثلاثة، لم يفهم منها شيئاً، حتى ثقل جفناه. كان قد حجز مكاناً جيداً تُرى منه مراسم الإعدام لزوجته وأولاده بوضوح. ولن يكتفي أولاد وكيل النيابة بأخذ العبرة عند رؤية الشنق في اليوم التالي، بل سيرون قوة أبيهم الكبيرة التي تمكنه من شنق رجل.

ياللعثرة، فقد جاء إلى بيت مدير السجن بعد تناوله طعام العشاء ضيفان من الجيران، ورجواه أن يؤمن مكاناً خاصاً لهما في مكان الشنق. كان قد سئم، واشمأز من مجيء المترجّين له ولزوجته منذ عشرة أيام من أجل الحصول على مكان فرجة جيد في ساحة الشنق. ولأن وظيفته ستبدأ في الغد باكراً جداً ويريد النوم باكراً ليستيقظ باكراً، قال المدير الذي يريد صرف الضيوف باستعراض ديمقراطي، بأنه لم يستطع حجز مكان حتى لأسرته.

لم يحصل أي من السجانين على إذن في تلك الليلة.

كانت ليلة منقشعة الغيوم، تتلألأ فيها النجوم، باردة قليلاً،

وذات نسمات، تستر الغيوم فيها وجه البدر وتنقشع كما تستر أطراف غطاء رأسٍ رقيق وجه امرأة جميلة. كان خيري الحلاق شبه نائم في المنفردة المظلمة التي تخيم عليها رائحة التبن المتعفن والبول، دون معرفة إن كان الوقت ليلاً أو نهاراً. يحلم باسطنبول، التي ولد فيها وترعرع، وبحارته، وأصدقائه.. كم من النساء في هذه الساعة المتأخرة من الليل ينتظرن عودة أزواجهن، وثمة من يكتب رسائل غرام... وكم من فتيات حاملات من شبان غير متزوجات منهم، وممارسي الحب في الفراش.. فكر خيري الحلاق بطالب يقرأ كتاباً في علم الجنس وهو متمدّد في فراشه، وبفتاة تشعر بسعادة نزف دم بكارتها. الآن تشتعل أضواء الإعلانات التي تلوّن الشوارع العريضة بالضوء، إنه لم ير أضواء الإعلانات تلك منذ أربع سنين، وهل يتوق لأضواء الإعلانات لعدم وجود مايتوق إليه! فكر بالنساء المعانيات من آلام الطلق، والولادة، وبالأزقة الفرعية التي تفوح منها رائحة الهيجان الجنسي وتعقد فيها مساومات بيع الهوى، وبعمال الورديات الليلية الذين يتصببون بالعرق. وبعمال الورديات الثالثة للمناجم مثله الذين لايعرفون الليل من النهار، والذين يتلوون بآلام السرطان، المتفائلين وهم على عتبة الموت..

في ذلك الوقت من الليل كان خيري الحلاق يفكّر بأوضاع إنسانية لاتحصى وبالتفصيل. الشاربون في الخمارات... المخططون للجرائم.. قارئو الكتب. نعم كان ثمة موظف خرج إلى التقاعد قبل ستة أشهر يقرأ ذكريات فيكتور هيغو، وقد خطّ بقلم جاف تحت هذه السطور التي وجدها مهمة:

«أرسل مدير الأمن للجلاد خبراً. ولكن جلاد باريس كان قد غيّر بيته. إذ اعتقد أن يدّه كُفت عن العمل مع مقصلته، فغاب عن الأنظار.

مرّ زمن طويل حتى وُجد بيت الجلاد الجديد. وهذه المرة وجدوا أنه غير موجود في البيت. كان الجلاد في دار الأوبرا، لقد ذهب لرؤية أوبرا (كمان الشيطان).

راحت الساعة تقترب من منتصف الليل. والجلاد غير موجود. فاضطر لتأجيل التنفيذ يوماً.

في هذه الأثناء عفا رئيس الجمهورية عن المجرم الذي سيعدم بتوسط أحد نواب البرلمان.

في اليوم التالي كان مدير الأمن يؤنب الجلاد لعدم تواجده في البيت في تلك الليلة.

قال الجلاد سانسون:

ـ ماذا يمكنني أن أفعل؟ بينما كنت أسير في الشارع في ذلك اليوم، رأيت على أحد الجدران ملصقاً كبيراً. كتب عليه (كمان الشيطان) قلت لنفسي لابد أنه أمر مضحك، فذهبت إلى المسرحية.

وهكذا فقد أنقذ ملصق مسرحية حياةَ إنسان. وعندما أُنقذ أحد الأشخاص الخمسة الذين سيعدمون بقي الأربعة الآخرون في الزنزانة ذات الرقم 13 في قلعة فانفوس. ولعدم وجود حبل كان عليهم الانتظار، فأذن لهم بالنوم. في الساعة الخامسة من الصباح جاءت الأدوات واللوازم الضرورية للجلاد.

دخلواإلى الزنزانة المشكلة من إحدى متاريس القلعة. استيقظ المحكومون الأربعة. قيل لاثنين منهما: «اخرجا أنتما إلى الخارج» فهما بسرعة، وانتقلا إلى المتراس الثاني فرحين خائفين في آن واحد. أما الباقيان فلم يفهما الوضع. كان لأحدهما المدعو دايكس بنت صغيرة عوراء، عرجاء، كتعاء في الثامنة من عمرها، يحبها حتى العبادة. الثاني لاهر ولدت زوجته في اليوم التالي لإصدار الحكم بحقه.

جلس دايكس ولاهر في فراشيهما، ينظران فيما حولهما بعينين خائفتين. قفزوا إليهما، وربطوا أيديهما، وأذرعهما بقوة. لم يكن أحد يتكلم بكلمة. يبدو أن برقاً التمع في رأسي المحكومين، فبدأا بالصراخ الشديد.

قال الجلاد:

ـ لو لم نربطهما لأكلا لحمنا نيئاً.

بعد ذلك انهار لاهر. وعندما قرئ الحكم عليهما بدأا بالدعاء.

كان دايكس مستمراً بالتخبط وسط شهشهة وضحك مخيفين. صرخ: «النجدة»، نادى الجنود للمساعدة، رجاهم، توسل إليهم، وعندما نظر ولم يجد نتيجة، قذفهم بأثقل الشتائم.

قال المساعد أول:

ـ اسكت ياخوّاف!».

اندفع علي الجلاد للقيام بعمله بعد أن وعده كاتب السجن. تناول طعامه مريئاً، شرب سيجارة الحشيشة، وملأ رأسه. مكانه جاهز، وكذلك ديوانه في غرفة السجان المناوب. بما أنه سيشنق رجلاً في صباح الغد الباكر فعليه أن يقوم بعمله منذ الآن. قبل كل شيء يجب أن ينقع الحبل بزيت الزيتون في وعاء كبير، أو جرن حمام. والحبل عندما يبيت منقوعاً في زيت الزيتون يمتص الزيت، ويلين، ويغدو حبل شنق. كان يشرح للسجان المناوب أهمية عمله من أجل امتداح نفسه. يجب ألا يستهان بقضية شنق رجل. الأكثرية لايعرفون هذا الأمر، ويعتقدون أنه مجرد رفس كرسي. ليس في هذا الأمر فوضى! لو كان الأمر سهلاً إلى هذا الحدّ لعمل كلّ شخص جلاداً. لماذا لايوجد سوى جلاد واحد في اسطنبول هذه بكل كبرها؟ العقدة، أتعرف العقدة؟ عقدة الحلقة التي تحيط برقبة المحكوم بالإعدام ـ العقدة التي سترتكز على حفرة الرقبة من الخلف ـ إن عقد العقدة هذه بحد ذاته مهارة. علي الغجري يعرف إحدى عشرة طريقة لعقد العقدة. هل هنالك من يعرف هذا غيره؟ علي الغجري يضع البحارة المعتبرين في جيبه بعقد العقد. هناك عقد تجعل الرجل المشنوق يتخبط خمس دقائق على المشنقة، ويسلم روحه بصعوبة. وهناك عقد تجعل الرجل يموت بلحظة، وقبل أن يفهم ماحدث. علي

الغجري يحدد نوع العقدة التي ستربط وحَسْبَ الرجل الذي سيشنق، ولاأحد يستطيع التدخل في هذا الأمر. إذا دخل الرجل الذي سيشنق قلبه فسيعقد عقدة مناسبة، ويميته دون أن يتلوى. إذا لم يحببهُ، يعقد الحبل عقدة تجعله يتخبط ويتلوى، ويقول المتفرجون: «يالكثرة ذنوبه، هذا مايجعله لايستطيع تسليم روحه بأي شكل».

إذا لم يتصرّف السجّان المناوب سيستمر مديح علي الغجري لنفسه حتى الصباح.

ذهبا إلى حمام السجن. كان الحبل هناك، ولكن زيت الزيتون غير موجود. مع أنه قد اشتُري صفيحة زيت زيتون، وهي مغلقة، ووضعت هناك في النهار. عندما لم يجدا الصفيحة حيث هي، تجلت أولى ردود فعل السجان المناوب. التفت إلى علي الغجري معتقداً أنه أحد قادته، وصرخ قائلاً: «والله أنا لم آخذها!» وهذا يعني أن أحدهم أخذها.

أعلما رئيس الحرس، ثم عاد الجميع مرة أخرى وبحثوا عنها. كان رئيس الحرس يردد قائلاً إنه قبل ساعة فقط رآها هناك. لم تطر صفيحة زيت الزيتون ياه! المحكومون والموقوفون لايأتون إلى هنا ليشكّوا بهم. بعد إدخال المساجين كلهم إلى المهاجع، وإجراء التفقد، وضعت في مدخل الحمام أمام أعين الحراس. حتى أن السيد وكيل النيابة، والسيد المدير رأياها.

كانت أيام غلاء الزيت بحيث يباع في السوق السوداء. وثمن صفيحة زيت الزيتون أكبر من راتب سجان. وعندما يكون ثمن صفيحة زيت الزيتون أكبر من راتب سجان فلن تطير صفيحة واحدة فقط، بل يطير برميل بغمضة عين.

ظاهرياً كان رئيس الحرس أكثر الغاضبين والصارخين إزاء سرقة صفيحة زيت الزيتون لكنه لم يكن يبحث عنها بإرادة حقيقية.

هذا يعني أنها كيفما كان لن توجد، ولاضرورة لإيجادها. أما السجانون الذين رأوا موقف رئيس الحرس، وفهموا أنه لاجدوى من البحث عنها، فإنهم لم يبحثوا عن صفيحة زيت الزيتون التي وصلت إلى مكانها منذ فترة طويلة. حسناً، ولكن كيف سيزيت حبل المشنقة؟ وفي حالة عدم وجود زيت زيتون في السوق والبقاليات حتى في النهار، من المستحيل إيجاده في هذه الساعة من الليل، وبافتراض أنه وجد فلا يمكن شراء واحدة لأن الميزانية التي تم الحصول عليها سلفة قد نفدت. ثم إن الأمر ليس حسنة لتطرق الأبواب، «غداً سيشنق رجل فإذا كان لديكم زيت زيتون اعطونا قليلاً».

شرح رئيس الحرس ضرورة عدم إخبار أحد بسرقة صفيحة زيت الزيتون، لأن الإخبار غير مفيد، بل على العكس، إن قول هذا، والعمل على وشك الإنجاز، سيغضب السيد وكيل النيابة، والسيد المدير. والسجانون لايرفضون له طلباً.

بعد أن حكى رئيس الحرس عن مهارة الجلاد علي الغجري بالشنق ممازحاً بأنه يمكن أن يشنق إنساناً بحبل دون زيت، وحتى دون حبل، وحتى دون مشنقة، وأضحك المستمعين، سأل الجلاد الشهير كيف يمكنه شنق إنسان بحبل دون زيت. انتفخ علي الجلاد من هذا المديح حتى إنه كاد يقول: «أشنقه بالبصاق على الحبل» ولكنه لم يقل هذا بل قال: «حتى لو شنق بحبل غير مزيت فلا تهتم لشنق إنسان بهذا الشكل، لأنه لاطعم لشنق كهذا» ثم شرح الأمر قائلاً: أولاً لايمكن للحبل مقاومة تخبّط الرجل المعلق في حلقة الحبل غير المزيت فينقطع، وثانياً لأن عقدة الحلقة لن تركب على حفرة خلف الرقبة لذا لن يسلّم الإنسان المشنوق روحه بسهولة. ثم إن الأمر الذي يدركه، ودار لسانه دون أن يستطيع المسكين قوله هو أن الإنسان إذا شنق بحبل غير مزيّت فإنه سيتألم كثيراً، لهذا لابد من تزييت الحبل.

أدهش رئيس الحرس كل من كان هناك عندما قال إن زيت الزيتون غير متوافر في كل مكان من العالم، فكيف يشنق الإنسان في تلك الأمكنة إذن؟ اقترح سجان من السجانين تدليك الحبل بالصابون طالما أن الغاية من تزييته تحقيق سهولة الانزلاق. واقترح رئيس الحرس نقع الحبل بالماء بدل زيت الزيتون. على الرغم من عدم اقتناع علي الغجري بترطيب الحبل بالماء، ولمعرفته عدم فائدة الرفض، لم ير مناصاً من نقع الحبل بوعاء كبير من الماء. ولكنه حالما تناول الحبل بيده، ووجده أغلظ قليلاً من حبل الغسيل، وطوله لايكفي لأكثر من ربط معزاة قال لنفسه: «آه منكم ياأشباه الدواب، شفطتم زيت الزيتون، فهل يؤكل حق الرجل الذي سيشنق بالحبل؟» ولم يعرف ماذا سيفعل. إذا انقطع هذا الحبل نتيجة تخبط المشنوق فلن يعرف المتفرجون حقيقة الأمر، سيقولون لم ينجح جلاد له كل هذه الخدمة الطويلة، وستتزعزع شهرته. كان علي الجلاد يتحرق من هذا. فهو يحب عمله، ويرتبط به، ولايريد تدنيس شرفه المهني، وهو بقدر مايريد كل إنسان أن يساهم بشنق خيري الحلاق يحب عمله، ويرتبط به. على الرغم من معرفة أن الإنسان يتخلص من الشنق، حسب التقاليد، إذا انقطع حبل المشنقة به ثلاث مرات، إلّا أنهم يعرفون أن هذا ليس صحيحاً، إذ لابدّ من ربط الحبل ليس ثلاث مرات فقط بل ثلاثين مرة، وشنق المحكوم. الجلاد علي الغجري يثق بنفسه، ولكنه لايثق بالحبل. ولأنه لاسبيل لعمل شيء في هذه الساعة المتأخرة من الليل نقع الحبل الأثخن قليلاً من حبل الغسيل، الذي لايكفي لأكثر من ربط معزاة، في الماء. كاد الفجر ينبلج، وأمام علي الغجري كثير من الأعمال. عليه تفقد المشنقة مرة أخرى. نظر إلى المشنقة التي تحمّل على الشاحنة، فوجد أن قائمتين من قوائمها مناسبة، ولكن الثالثة تفسخت، ونما عليها الفطر. وعندما سيشنق خيري الحلاق، إذا لم ينقطع الحبل بإذن الله، ستتكسر هذه القائمة المهترئة من عدة أمكنة، وتسقط المشنقة.

ذهب السجانون للنوم ساعة أو ساعتين. أما علي الغجري فقد اكتفى بكبوة، لأنه سيعقد العقدة أثناء نصب المشنقة. سيعقد الحبل بحيث تركب العقدة في حفرة خلف الرقبة وتخنق خيري وتميته قبل أن ينقطع الحبل، أو تنكسر قائمة المشنقة، أو يتخبط. كان يقول لنفسه: «هيا ياعلي الغجري، ارحم نفسك». هذا وقت عرض مهارتك عليهم.

يروي هـذا الفصـل كـيف عُلّق خيري الحلاق عـدو الشـرف والعـرض عـلى المشـنقة، ومـاذا حـدَث فـي احتفالات آخـر يـوم من وقائع حفل الشنق، وكـيف أخذ الناس درساً ليعتبروا

عندما حُملت جميع أدوات المشنقة التي ستنصب في المكان المعدّ مسبقاً في ساحة السلطان أحمد في الساعة الخامسة صباحاً، شوهد جمع كبير من الناس جاء من أجل الفرجة على مراسم الشنق. ولأن الشمس لم تشرق بعد فالمكان مظلم. ولكن بعض القادمين حمل مصابيح يدوية، وبعضهم حمل مصابيح (لوكس)، وبعضهم حمل مشاعل. ويُفهم من خلال ارتداء كل هؤلاء الناس معاطف، والتفافهم بالبطانيات أنهم جاؤوا منذ المساء من أجل الحصول على مكان قريب من المشنقة مثلما يمضون ليلتهم على أبواب الملاعب من أجل الحصول على مكان.

رجال جندرمة مخفر السجن ينصبون المشنقة.

الزحام يتزايد إلى أقصى الحدود. حين بزغ الفجر كانت الساحة ممتلئة بالناس. في هذه الساعة من الصباح راح سائقو سيارات الخدمة في مواقف (التقسيم) و(شيشلي) و(آقصراي)، و(بيازيد)، و(بشكتاش) وحتى في مواقف الأماكن البعيدة مثل (بكركوي) و(زيتين بورنو) ينادون على الركاب من أجل نقلهم إلى حفل الشنق:

ـ ياالله، واحد على الإعدام..

ـ ماشي، واحد، واحد، على الإعدام واحد..

ـ يالله، اثنان على الإعدام، اثنان على الإعدام..

أصحاب الحافلات الصغيرة أيضاً ينادون من أجل نقل الركاب إلى مراسم الشنق التي ستقام في ساحة السلطان أحمد.

كل خمس أو عشر دقائق يزيد جمع الناس في الساحة بمقدار ألفين أو ثلاثة آلاف شخص. إذا كان لابد من الحقيقة فإن الاحتفال قد بدأ قبل يوم، واتخذ في الساحة كل أنواع الباعة، والباحثون عن طريق للكسب مكاناً لهم. وإذا وضعنا الازدياد غير المتوقف للجمع بعين الاعتبار، فهذا يدل على أن الاحتفال سيكون مطنطناً. حسناً أن نُقلت مراسم الشنق إلى هذه الساحة الكبيرة. كانت مراسم الشنق تتم عند أول الجسر في (أمينونو) قديماً، ولأن الجموع الفضولية التي تهرع إلى هناك لاتتسع لها الساحة، فَكّروا بأن ساحة السلطان أحمد الأوسع والأرحب، والأكثر ملاءمة لمراسم الشنق. ولكن يُرى الآن أن ساحة السلطان أحمد صغيرة من أجل مراسم شنق. لو كان الكثير من الناس يُشنقون لتمّ التفكير بإنشاء ساحات إعدام خاصة على غرار ساحات صراع الثيران، أو كرة القدم، ولن يأخذ الناس الدرس والعبرة بالمجان، بل مقابل النقود ـ وأي درس يؤخذ مجاناً؟ ولكن لأنه لايُشنق أكثر من شخص أو شخصين في العام فإن نفقات مشروع كهذا أكبر من دخله، لهذا السبب لايمكن أن تكون هذه الاستثمارات الضخمة رابحة، واقتصادية. كان سبب اختيار ساحة (إمينونو) قديماً هو مرور كثير من الأشخاص على الجسر، واضطرار هؤلاء لرؤية المعلّق على المشنقة. فمن أهداف إيقاع العقوبة الأشد هذه بالمجرمين كما هو معروف، إعطاء درس العبرة لمن لم يرتكب جريمة بعد، وإخافتهم، وبالتالي الحيلولة دون وقوع الجريمة.

ثمة وقت طويل لإحضار خيري الحلاق، ولكن هناك أربعين ألف شخص، ويمكنكم القول إنهم خمسون ألفاً ملؤوا الساحة. أوقف

سير وسائل النقل من الساحة، وسدّت الطرق. لايوجد شبرُ فراغ، أو حتى مقدار إصبع، لقد ازدحمت أرجاء المكان كافة وأصبحت كما يقال إذا رميت الإبرة فلن تقع على الأرض. لم تشرق الشمس بعد، وعندما انقطع التيار الكهربائي فجأة، وانطفأت المصابيح خيم الظلام على الساحة الكبيرة. عندئذ شوهد الباعة وقد اتخذوا احتياطاتهم من أجل هذا الطارئ في الاحتفال. فقد أضاؤوا، وبسرعة، القناديل الورقية، والمصابيح اليدوية، ومصابيح اللوكس، والشموع، ومصابيح البطاريات، وأغرقوا الساحة بضوء ساحر. تحول المكان إلى ساحة مدينة خيالية. أشاع البعض أن البلدية قطعت التيار الكهربائي بشكل مقصود، فالظلام يزيد التدافع، والسقوط، والدحرجة، والتصادم، لأن البلدية تريد أن يغدو الاحتفال أكثر حيوية بهذه الفوضى. بعد قليل عندما انقطع الماء شاعت إشاعة أخرى مفادها أن البلدية تحمي بائعي الماء، والشرابات، و(الليمونادة) لذلك قطعت الماء عن قصد. ولأن الجو حارّ منذ تلك اللحظة، ستكبس الحرارة بعد قليل وتغلي قلوب كل هذا العدد من البشر، وسيضطرون لشرب كل ما يوضع أمامهم من مشروبات. نشر عدد من المخربين إشاعة أن باعة المشروبات من مياه غازية، وعصير فواكه، ومياه ملونة، وجميع أنواع المشروبات أعطوا رشوة لمسؤولي البلدية من أجل قطع الماء لتحقيق مبيعات أكبر. ليست الساحة فقط هي المزيّنة، بل جهود الباعة أدت إلى تزيين الطرق المؤدية إليها. فقد خيمت على العربات اليدوية، والبسطات، وبسطات البيع المزججة وماشابهها، البالونات الملونة، والأعلام الورقية، وأوراق الزينة، والأعشاب المزهرة. نصبت المطاعم الجوالة عدتها، حتى أنها بدأت البيع منذ زمن. حِلل السحلب تغلي، ومواقد الشاي الجوالة تشتعل. باعة الكعك والفطائر هم الأكثر بيعاً، ونداءات المديح ببضائعهم هي الأكثر تردداً. أشعل بائعو (كفتة البصاق)، ومحضّرو السمك المشوي والمقلي مواقدهم، ومناقلهم. خيّم دخان

الكفتة المشوية العابق بالرائحة الفاتحة للشهية على المكان. ونصب باعة فتّة رؤوس الغنم، وباعة الرز بالحمّص في البسطات المزججة، وبائعو العاشوراء، وسلطة الفاصولياء، والمهلبية وغيرها سفرهم الصغيرة على صناديق الليمون والسكر. قدور عرانيس الذرة الصفراء تغلي من جهة، وعرانيس أخرى تشوى من جهة أخرى، إضافةً إلى الذرة المنفوشة. شوّاؤو الكستناء أيضاً يهوّون على مواقدهم.

في هذا الزحام أيضاً لم يغب الأجانب. مراسلو الجرائد الأجنبية ووكالات الأنباء والإذاعات والتلفزة يبحثون عن الأمكنة التي يلتقطون منها أفضل الصور، ويمشّطون الساحة. من جهة أخرى يصوّرون الباعة والازدحام وهم يتفرجون مندهشين. أكثر ماأدهش هؤلاء الأجانب عائلة مؤلفة من أب وأم وطفلين تقدم استعراضات تفوق استعراضات السيرك الكبيرة. وبعد كل فقرة يجمع الولد البالغ السابعة من عمره النقود من المتفرجين، وخلال هذا يحكي كيف سقط أخوه الأكبر، بهلوان القفز على الحبل، في إحدى الاستعراضات، ومات. وحاوٍ يدهش العقول بمهارته.

أصوات بائعي المخلل غير المصابة بالرشح تخيّم على أصوات البائعين كافة. وفي تلك الساعة من الصباح هنالك من يشرب ماء المخلل بالفلفل، ومنهم من يقرط مخلل الخيار، ومن يقضم مخلل الباذنجان. يحاولون إطفاء حريق دواخلهم بماء المخلل البائت من المساء السابق، أو بالمشروبات المثلجة.

انفجرت نداءات رنانة جذبت كل هذه الجموع فجأة، وجعلت ضجيج الساحة ينقطع فجأة أيضاً. مصدر هذه النداءات هو باعة الجرائد الذين اختطفوا جرائدهم الطازجة وجاؤوا بسرعة.

ازدحم الناس من طبقتي الأغنياء والفقراء، واجتمعوا في مكان واحد، وهكذا أزيل الفارق الطبقي، وتحققت العدالة الاجتماعية.

ولضرورة الديمقراطية رؤي أن يكون احتفال الإعدام هذا مفتوحاً للشعب كله، وكل مواطن حرّ بأخذ درس العبرة الذي يريد، إن أراد. لنجلس باعوجاج ونتكلم باستقامة، فالحقيقة، الحقيقة، الحقيقة أن احتفالات منطقة (كاغت هانة) في العصر الزنبقي للعثمانيين لاتساوي شيئاً أمام هذا الاحتفال. واحتفالات الشنق هذه تضاهي حكايات ألف ليلة وليلة، إذ تعرض أمام الأعين عالماً خيالياً ساحراً. إن الباعة والناس الذي يظهرون في منمنمات السرنامات التي تحكي عن احتفالات العصر العثماني مختلفون عن الذين في هذا الاحتفال، إذ ليس هناك غنى في التنوع، والأمثلة. كان يرى في الاحتفالات القديمة، التي من هذا النوع، بين الناس خدم، وأجراء، وأقزام، وحدبان، وأولاد، وعبيد، وأولاد هاربون من بيوتهم، وأطفال متشردون، وعاهرات شوارع، وساقطات، وداعرات خصوصيات، وسفلة، ولكن يُرى الآن أنواع من المتسولين أغنى مما كان في ذلك الزمان. لو أحصينا متسولي الشوارع لوجدنا أكثر من ألف نوع بين الذين يلونون احتفال الشنق من مختلف أنواع المتسولين: المغنون، ودعاة الأدعية، والمغنون كالدعاء، والداعون كالمغنين، والذين يتسولون كأنهم يتلون آيات قرآنية، ومتسولون حقيقيون، ومتسولون يتظاهرون بالعجز ومتسولون مرتبطون برب عمل مقابل مبالغ يومية، أو مقابل جلب مبلغ معين.

وبسبب صعوبة شروط الحياة لدى شعب اسطنبول، وخاصة في السنوات الأخيرة، وارتفاع الأسعار، والغلاء، وعدم إيجاد وسائط نقل، وزحمة الطرق، وصعوبة الانتقال، وعدم وجود النقود، وصعوبة العيش، والأنواع العديدة من الأزمات، لم يعد الناس يستطيعون الذهاب إلى أمكنة اللهو مثل السينما والمسرح، والمقاصف، والنزهات إلى الحقول، والرحلات. لذلك لم يريدوا تفويت هذه التسلية وسط اسطنبول، وهذا ماسبب الازدحام.

كل أنواع الباعة، مثل باعة اللحم بالعجين، والرقائق، والمعمول، ولقمة القاضي، والحلويات، متواجدون في خدمة أهالي اسطنبول. حتى إن هناك بائعي كباب سيّارين، منهم من يبيع الكباب في عربات مزججة، ومنهم من لديه فرن داخل عربته يقدم الكباب الطازج باللبن، وكباب أضنة، وكباب اسكندر (الشاورمة) ساخناً. بائعو الشنينة أيضاً يدورون حول آكلي الكباب بالبصل والفلفل، ينقرون بكؤوسهم.

النساء، والرجال، والأولاد، والمسنون يتدلَّون مثل العناقيد من شرفات الأبنية والبيوت وأسطحتها، ومن الفنادق المطلّة على الساحة، أو التي تشرف عليها من بعيد. البعض زينوا إطارات الأبواب والشبابيك بالأوراق الخضراء، والأعشاب، والزهور. بعض الأشخاص من أبناء البلد الواحد تجمعوا في الأطراف هنا وهناك يدبكون، أو يؤدون بعض الرقصات الشعبية، أي تُقدّم هنا وهناك عروض فولكلورية. كما يُرى معجون ملون يباع للأطفال، ومعجون مقو للعجائز. وينادي دون انقطاع باعة ألعاب الأطفال، والبالونات والصفارات، وأدوات تصدر صوتاً وحركة عند النفخ. باختصار لايوجد هنا ماهو غير موجود. أو أن البعض جاؤوا كأسرة. وهؤلاء جلبوا معهم أطعمتهم في السلال، وفي لفّات أو أكياس نايلونية أو ورقية، أو قماشية، أو شِباك. ومنذ الآن بدأوا بتناول لحم الخروف المسلوق، ولفائف ورق العنب بزيت الزيتون، والمحاشي، ولفافات رقائق العجين، والبيض المسلوق، وحلويات السميد بالحليب.

يتناثر في ساحة احتفال الإعدام أنواع البشر كافة، وكأنهم البيدر فيمكن أن يُرى بين هؤلاء البشر من يسبل أجفانه، ويرفع رأسه إلى الأعلى مباهياً، ونساءُ شوارع يرجفن صدورهن، ومتبرجات، وثرثارون جوالون يبرمون شواربهم، ويغمزون بأعينهم، ووسطاء بيع هوى، وقوادون، ومروجو دعارة، وأرباب

أعمال الجنس، وجائعون بمظهر سادة، وأكابر لاعمل لهم سوى صرف مامعهم على مظاهرهم، لايكتفون بغمز النساء والتعرض لهن بالكلام، بل يقدمون على التحرش بأيديهم فيدلكون أفخاذهن، ويبعصونهن؛ ويمكن أن يرى أيضاً الذين ينتهزون فرصة الازدحام ينهرون الذين أمامهم ويديرون رؤوسهم إلى جهة أخرى متظاهرين بعدم وجود علاقة لهم في هذا التصرف، متلذذين بطعم الاحتفال. ينبعث الدخان من مداخن مواقد عربات بائعي المكسرات مثل البندق الطازج والفستق، واللوز المحمّص مرتين، والحمص الهش. بائعو حلوى الكتان، والحلوى السمسمية، والحلوى المورّقة، واللقم الصغيرة، وغزل البنات يتجولون وفي أيديهم صناديق زجاجية، وعلى رؤوسهم طاقيات طويلة بيضاء.

فتيات برائحة الزنبق، يتمايلن كالحجل، ويقفن كالمها، منهن من تحمل وردة بيدها، ومنهن من على خصرها زنبقة، ومنهن من على ياقتها منكشة أو قرنفلة. بعض الشباب المتباهين أدخلوا بين آذانهم وقبعاتهم إما عرق ريحان، أو قرنفلة حمراء.

ثمة ولد يحمل قفصاً كبيراً بيده، داخله عصافير أطواق ريشها حمراء. ومن يدفع ليرة واحدة يطير له إحداها في الجو لكسب الثواب. والذي يريد الذهاب إلى الجنة بدخولية مقدارها ليرة، يدفعها ويأخذ العصفور من القفص، ويقول: «انطلق حراً، ولاتنسني غداً في الآخرة يارب» بعد أن يؤمن على مكانه في الجنة بوساطة العصفور الذي يطلقه في الهواء. ليس هناك أرخص من الحصول على الثواب في ساحة الاحتفال هذه، فهو أرخص من زجاجة ماء. لكن قبل أن تنتهي عصافير القفص يكون أبوه قد التقطها بالشرك، وأرسلها له بسرعة مع أخيه الصغير.

يتجول وسط الزحام بائعو السجائر الأمريكية المهرّبة، وحاملو أكياس ألعاب الحظ للمقامرة، وبينما يغمض رجال الشرطة أعينهم

عن بائعي السجائر الأمريكية قائلين: «إيه، من الممكن أن يحدث هذا في يوم احتفال كهذا..» فإن هناك شرطياً آخر لاأحد يعرف سبب غضبه، أمسك بأحد بائعي السجائر الأمريكية المهرّبة، ولم يستطع إخراجه من وسط الزحام، فأخرج سيجارة أمريكية مهرّبة، وأشعلها.

الأولاد الصغار يبيعون سكاكر النعناع، وسكاكر الليمون، وهم ينادون: «منعش، ورائحة طيبة». بائعو الروائح العطرة ولترويج بضاعتهم يعملون دعاية ببخ مادة سائلة لاتُزال عن الجسد نهائياً وهي من الروائح الزيتية مثل زيت الحجاج أو زيت الورد أو زيت القرنفل.

على الجدار القريب من الرصيف علق باعة أجزاء القرآن بضاعتهم، وكتب الدعاء، ولوحات الآيات القرآنية، وأدعية الصلاة لكي يخاف الناس من الله ولايرتكبون جرائم مخجلة كتلك التي ارتكبها الرجل الذي سيعدم بعد قليل، ودعاء النمل من أجل تحسين أوضاع أصحاب الدكاكين، ودعاء العودة لإرجاع الأزواج الذين هربوا من بيوتهم إلى أعشاشهم السعيدة، ونماذج من رسائل الغرام للشباب، وكتب الحكايات الشعبية، وإلى جانب هذا كله ثمة كتب تعلم الجنس تطبيقياً.

يعمل باعة البضائع الأمريكية، واليابانية، وحتى الصينية الحمراء على جذب الزبائن بالمناداة علناً أن بضائعهم مهربة. وهناك رجل يحكي لآخر بجواره أنه اشترى قلماً جافاً من إحدى البسطات المشابهة لهذه على أنه تهريب، ولكن ظهر أنه غير مهرب، وأن هؤلاء يحتالون دون خجل ببيع البضائع المحلية على أنها مهربة، أي يرتكبون مخالفة المخالفة.

وقد وجد لاعبو الثلاث ورقات، والذين يلقون في الأرض ظرفاً ثم يتبلّون من يجده بأن في داخله نقوداً محاولين ابتزازه، والذين يلعبون بكرة صغيرة يخفونها تحت أظافرهم، وألعاب حظ الأرقام،

ولاعبو الزهر، طريقاً ومكاناً لهم. ولكن النشالين لايعملون الآن، فهم يراقبون الأشخاص الذين سينشلونهم، أي يلاحقون الأغبياء الذين سيركّبون عليهم مقالبهم، ويكمنون لهم. وعندما سيُشد خيري الحلاق إلى الحبل، أي في اللحظة التي يصل فيها الهياج، والتوتر إلى الذروة، سيبدأ النشالون بالعمل، وسيفرغون محافظ الجيوب. يمسكون بين أصابعهم شفرات الحلاقة، أو بأيديهم أمواس حلاقة متحفزين ينتظرون الفرصة المناسبة. في لحظة التوتر تلك سيشرطون الجيوب من الخارج بالأمواس، أو الشفرات، ويأخذون المحافظ، أو النقود المطبقة على بعضها البعض. وهؤلاء بتجربتهم يعرفون جيداً أن هؤلاء الأغبياء في لحظات كهذه لايشعرون، ليس بشرط ستراتهم ومعاطفهم فقط، بل حتى بعملية جراحية تستأصل أكبادهم، ولكنهم بعد فترة يشعرون بخفة، ونتيجة المعاينة الشعاعية يفهمون أن أكبادهم استؤصلت، هذا إذا لم تسحب لغيرهم صور شعاعية على أنها لهم.

وفي قلب هذه الألوان البرّاقة، ومختلف الجماليات، هناك رجل حافي القدمين يردد صارخاً أبياتاً من الغزل الرخيص، وهو يبيع كلمات أغان شعبية مطبوعة على أوراق.

وكأن ثمة متسعاً، فاندست بين الناس الكلاب الفلتانة.

تتجول نساء غجريات من فاتحات الفأل أيضاً. وثمة غجري يلعّب دباً، يتجول مع ابنه، وهو يضرب على الدف مرقصاً الدب، ويتركه يقلد النساء العجائز كيف ينمْنَ على بلاط الحمام الساخن، مسلياً القادمين إلى الاحتفال.

بائعو الحظ غير متغيبين. ينادون: «النية والنصيب» ويجعلون المدرب أو الأرنب يسحب ورقة ملونة مكتوب عليها حظ الشخص. وتباع دواليب الهواء المشغولة يدوياً، والقناديل الكرتونية أيضاً. ولأن أحد الأرذال يبيع المفرقعات، يطلقها الأولاد جاعلين قلوب النساء تقفز من صدورهن رعباً.

بائعو أمعاء الحيوانات المتبّلة المشوية، والشطائر، و(السجق) الملفوف بالخبز الطازج ينادون للزبائن.

رجل عجوز يحكي لصديقه أنه يهرب عند ذبح دجاجة كونه لايحتمل رؤية الدم، ولكنه يستطيع الفرجة على شنق الإنسان لأنه لن يراق دم، ولذلك لم يفوت أي مراسم شنق قط.

باختصار ياسادة يامستمعين، وياسادة ياقراء، لعل هنالك ستين ألف شخص، أو سبعين ألف شخص ملؤوا ذلك المكان، وسط ضجةٍ وصراخ. ومن كل طرف تُسمع أصوات فرقة عازفين. في هذه الفرق آلات موسيقية مثل المزمار، والطبلة المزدوجة، والطبلة المنفردة، والقصب، والملقط ذو الجرس، وتُعزف رقصة السروال. وهناك فرقة عازفين أخرى تعزف رقصة شعبية أخرى، وثمة امرأة تهزّ خصرها بمهارة منقطعة النظير، ورجلان ربطا على خصريهما ربطتين يراقصان المرأة التي تهز خصرها، وهما يصرخان: «اجعلينا نتصبب»، يرافقهم لاعب بالنار يلفظ اللهب من فمه.

ثمة عالمان، مهرّجان ملونا الوجه، جاءا ليبحثا في الحدث الاحتفالي غير العادي هذا، أحدهما يشرح للآخر بشكل علمي ومفصّل بأن مهرجي الملوك يحملون آثار قوم آلطاي، وجذر التهريج هذا هو الطاي، والصين، وتم التوصل إلى أن بعض المهرجين يعودون إلى تاريخ 900 ـ 600 قبل الميلاد، وهؤلاء فيما بعد أطلق عليهم اسم (مسخرة)، وجذر الكلمة المستخدمة الآن من الناحية الإيتمولوجية هو (مسخرة باز)، واسم (مسخرة باز) كان يطلق على الذين يصبغون وجوههم بالطحين والفحم، ويقومون بمختلف الألعاب. وخلال هذا تدخل رجل كان يستمع بالمصادفة إليهما في الحديث، فحاولا إقناعه أنهما ليسا (مسخرة)، أو مهرجين، وعلى الرغم من قولهما بأن هذه الأقذار على وجهيهما نتيجة الغبار، والطين، والأقذار، ولكثرة ماوقعا في الطريق المحفّر،

ونهضا وهما في طريقهما إلى هذا الاحتفال، لم تنطل عليه أقوالهما هذه لعدم علميتها. الأولاد القادمون وحدهم، وضعوا عصياً، أو أغصان أشجار بين أفخاذهم مقلدين راكبي الخيول.

هناك أيضاً ممثلون شعبيون، وحكواتية يمثلون أدوار شخصيات حكاياتهم. ولكن هؤلاء الحكواتية ليسوا حكواتية أيام زمان، بل حكواتية معاصرون، فهم يبيعون صابوناً، وقطّاعات زجاج، وأجهزة تقشير بطاطا، وقتّالات ذباب، وأثناء بيعهم يؤدون حركات تضاهي حركات حكواتية أيام زمان. أحد الذين يبيعون الأغاني المطبوعة على أوراق يردد كلمات الأغاني التي يبيعها على إيقاعاتها.

والصبيان المنحرفون وهم بلبوس النساء يتراقصون مثل الداعرات، ملونين وجوههم، على رأسهم شعر مستعار يبحثون عن زبائن. وهؤلاء يرقّصون وسطهم بحركات مائعة، وإذا ماتهيجوا بتأثير الموسيقى يرقصون رقصاً جنسياً. لم تغب استعراضات فاللوس في مهرجانات جمع الموسم لدى الإغريق، فيجسد هؤلاء الصبيان فاللوس بالتلويح بأيديهم، وأذرعهم، وطقطقة رسوغهم في كفوفهم.

لم يغب باعة الأفيون والحشيشة والهيروييين. اشترى المساطيل، وشربوا سجائرهم، وملؤوا رؤوسهم، ومنهم من اختار من يناسبه ليتبادل الحديث معه، ومنهم من وجد صديقاً، ومنهم من يعزف على الطنبور، ويردد كلمات أغنية.

أب فقير اغتنم فرصة الاحتفال فهُرع إلى البيت، وجلب ابنه الذي سيختنه، وأب آخر يتأوه لأنه لو عرف أن هذا الاحتفال سيكون بكل هذه الطنطنة لجعل عرس ابنه في هذا اليوم، وهكذا كان سيقيم عرس ابنه مجاناً، ولكنه أقام العرس مع الأسف، وفوّت الفرصة.

الشباب وجدوا فتيات بمقدار مايتمنون، والفتيات وجدن بقدر مايحلمن شباناً، وتعارفوا، وتبادلوا الكلام الحلو، وتعانقوا، وشمشموا بعضهم البعض ووجدوا دماً طازجاً.

أحد القادمين لرؤية شد المحكوم على حبل المشنقة متقاعد عجوز، يقول لصديقه إنه سيذهب إلى القهوة بعد الفرجة على الشنق، للعب عدة أدوار بالورق، بعد ذلك سيذهب لأداء صلاة الجمعة المباركة في جامع السلطان أحمد.

على الرغم من وجود كل هذه التسليات، والاحتفالات، والرقصات، فإن البعض متضايقون، يقولون لأنفسهم: «ليجلبوه إذا كانوا سيجلبونه، ليشنقوه»، «متى سيشنقونه ياعزيزي، هاقد أصبح الصبح».

خيري الحلاق يعيش في المنفردة، حالة لايستطيع التمييز فيها بين الحلم والحقيقة، لاعلم له باجتماع هؤلاء الآلاف من البشر، وتحملهم كل هذه المشقة والأرق من أجله. على الأكثر كان مجتمعاً بذاك المعلم المسن الذي تعرّف عليه في سجن باب الباشا، متذكراً كلماته. لاهذا ليس تذكراً، إنه يسمع مرة أخرى، ومرات، هذه الكلمات من لسان المعلم راغب. وهاهو صوت المعلم راغب يقول له:

«الإنسان مزبلة حيّة ضخمة جداً، ومايميز هذه المزبلة المدعوة إنساناً عن أية مزبلة أخرى أن في داخله الأقذر، والأكثر قرفاً، في داخله في الأعماق غير المعروفة جوهر بقيمة العالم، ولايمكن تقديره، إنه الجوهر الإنساني. بعضهم سعداء يلتمعون لأن جوهرهم هذا ظاهر، أو يستطيعون إظهاره بسهولة، أو لتوافر الإمكانيات لديهم يستطيعون تنظيفه وإخراجه، ولكن جواهر بعضهم الآخر في الأعماق السحيقة، ولعدم وجود من يساعدهم على إخراجه يموتون مع جوهرهم دون أن يبرق، أو يلتمع.

لايمكن أن يكون الإنسان إنساناً دون جوهر الإنسانية. المهمة الإنسانية التي تقع على عاتق الذين يبرق جوهرهم تلقائياً، أو بمساعدة الآخرين، هي إخراج جوهر الناس الآخرين الباقي في أعمق الأعماق، وجعله يبرق، وإنارة ظلمة العالم بنور تلك الجواهر، وهتك ستره، وخلق عالم مضيء جديد جداً.

أيها الصديق خيري يمكن أن يكون هناك كثير ممن يقول لك ماقلته أنا حتى الآن. لأن صعوبة هذا العمل ليست هنا. ومهمتنا الإنسانية الأهم من هذه هي تخليص الإنسان الذي خُرِّب على مدى قرون، ولم يحصل على نتيجة، أو على الأصح الإيمان بأن إنقاذ إنسان لايعني إنقاذ الإنسانية، وإذا لم يُنقذ كل الناس فلن يُنقذ أحد، ولابد من خلق ظروف تجعل جوهر كل إنسان يبرق.

أيها الصديق خيري! إنه جوهر الإنسان فقط، وكل إنسان جوهره مختلف ومتميز، وهذا الجوهر ليس نفسه في كل مكان كالذهب والبلاتين والماس».

لم يتهيأ لخيري أنه يسمع صوت المعلم راغب في المنفردة، لقد سمعه، أو اعتقد أنه سمعه. إنه يبكي بشكل لم يبك مثله حتى الآن. لقد أدخلوه السجن وهو في الحادية والعشرين من عمره، وهو الآن في الخامسة والعشرين. حتى ذلك اليوم لم يخاطبه أحد بكلمة «صديق». كان أول من ناداه «أيها الصديق خيري» هو المعلم راغب. كان أولئك الذين في مهجع السياسيين يتخاطبون بكلمة «صديق». كان خيري يبكي. خيري يبكي، والمعلم راغب يتحدث:

«أنت دائماً تسألني أيها الصديق خيري: ماهي جريمتك، ولماذا ألقوا بك هنا؟... هذه هي جريمتي، ماشرحته لك...».

لم يكن خيري يتحرّق لأنه دخل السجن أو الزنزانة، أو المنفردة، أو لأنه حكم بالإعدام. إن الأمر الوحيد الذي يجعله يتحرق هو عدم معرفته بالمعلم راغب منذ زمن طويل.

عندما أُلقي في المنفردة كان بداخله إحساس يدفعه لكتابة الشعر. كان يؤمن أنه سيكتب شعراً أجمل بكثير مما كتبه على صفحات دفترين. ولكن المكان هنا مظلم إلى حد... فوق هذا لم يكن لديه قلم أو ورقة. بدأ يردد الشعر المتكون في رأسه، أو يغنيه بصوت مرتفع ليبقى في ذاكرته، ويكتبه فيما بعد.

كان خيري يبكي، وأثناء ترديده الشعر والأغاني يقول له المعلم راغب: «أيها الصديق خيري، كل شيء بالتغيير...».

لقد غاص في تفكيره إلى درجة أنه لم يسمع وقع الأقدام أمام باب المنفردة. وخلال ترديده القصائد غناءً، وبصوت مرتفع، فجأة قرقعت السلاسل، وسحب المزلاج، وامتلأ المكان بوقع الأقدام. مجيئُهم هذه المرة لايشبه مجيئهم كل مرة. كان خيري يمسح دموعه بكمه كيلا يدركوا أنه يبكي، وعندما أضاء المنفردة فجأة مصباح يدوي. لم يعرف خيري القادمين لأنهم بقوا في الظلمة. مع إضاءة المصباح الكهربائي أمسكه الرجال بقوة من ذراعيه. عندئذ عرف أحدهم. إنه رئيس الحرس.

نفد صبر المجتمعين في ساحة الشنق. وبالتدريج تحول لون الجو الكحلي إلى الأزرق، ثم فتح أزرقه متحولاً إلى لون زهري، ثم بدأ الفجر بالبزوغ. أصبح بالإمكان تمييز الأبيض من الأسود. شوهدت عربة السجن الحمراء قادمة من بعيد. وإذا كانت قوات الأمن والجندرمة قد حققت الانضباط جيداً، فالسيارة تشق بصعوبة طريقها وسط الزحام، وتتقدم ببطء شديد نحو المشنقة. ثمة سيارة خاصة، وسيارتا أجرة وقفت أمام المشنقة في اللحظة نفسها. نزل من هذه السيارات أعضاء هيئة الشنق.

وقفت سيارة السجن الحمراء جانب المشنقة. في البداية نزل من السيارة اثنان من رجال الجندرمة. وهذان ساعدا خيري الحلاق على النزول من السيارة، ثم نزل خلف خيري عنصران مسلحان آخران من الجندرمة.

تماوج الزحام المالئ الساحة كعملاق زاحف له آلاف الأرجل، وتحرك إلى هذه الجهة، وتلك، وتمتم بلغة العمالقة ثم تحولت التمتمة العملاقية إلى شخير، ثم ضجيج، ثم قرقعة. بعد ذلك بدأ التدافع. كان الجميع يعمل على قراءة قطعة الكرتون الكبيرة المكتوب عليها بحروف كبيرة، والمعلّقة على صدر خيري. استطاعت قوات الأمن أن توقف التدافع لأنها اتخذت التدابير اللازمة مسبقاً، ولكن الذين في المقدمة استطاعوا قراءة قطعة الكرتون المعلقة من صدره حتى ركبتيه.

ملخص حكم

«إن حكم الإعدام الصادر بحق خيري.... ابن..... أمه..... المقيد في سجل نفوس شهرمين في محافظة اسطنبول عن محكمة العقوبات الثقيلة الـ..... بجريمة الاعتداء على عرض....البالغ السادسة من عمره، وقتل الولد خنقاً لإزالة آثار جريمته حسب المادة 450/9 من القانون، صادقت عليه محكمة التمييز، وغدا مبرماً، ونشرت الجريدة الرسمية قرار مجلس الأمة التركية الكبير حول تنفيذ العقوبة».

راح القريبون من خيري يحاولون قراءة ماتفيد به عينا خيري. هل هو خائف، أم أنه ينظر دون معنى لأنه فقد صوابه؟ أم أنه نادم؟ أم أنه يبكي؟ أم أنه يتوسل؟ أم يشتم؟ ولأنهم لم يستطيعوا استخراج أي معنى من عينيه راح كل منهم يلفق معنى لذاته.

وقف أعضاء هيئة مراسم الشنق كافة أسفل المشنقة، في البداية القاضي الممثل للمحكمة التي أصدرت قرار حكم الإعدام، بجانبه وكيل النيابة الجمهوري، ثم الطبيب الشرعي، فمدير السجن، وقائد الجندرمة، وبجانبه مفتش شرطة، وأمام كل هؤلاء الجلاد علي الغجري. ووقف خيري الحلاق ويداه مقيدتان من معصميه إلى الخلف على يمين علي الجلاد صامتاً، خجولاً كتلميذ خرج لاستلام جائزة. أحياناً ينظر إلى الازدحام الذي ملأ الساحة بدهشة حقيقية،

لم يخطر بباله مطلقاً أن هؤلاء اجتمعوا من أجله. وإذا كنا لانعرف مايفكّر به، ومايمرّ في خاطره فإن خيريٍ الحلاق في تلك اللحظة يبدو من خلال مظهره عاقلاً، وديعاً، جاهزاً لتحمل ماسيحل به، وهو راضخ.

لأن المادة الثامنة والستين من نظام تنفيذ العقوبات تفرض على القاضي في هيئة الشنق أن يقرأ ملخص الحكم بصوت مرتفع أمام المتواجدين هناك، بحيث يسمع الشخص الذي سيعدم، بدأ القاضي بقراءة ملخص الحكم المعلق في رقبة خيري الحلاق بصوت رخيم، دون تعثر، إذ قام بعدد من التدريبات على قراءته من قبل. أثناء قراءة القاضي ملخص الحكم انقطع ضجيج الزحام فجأة ثم عاد بعد انتهاء القاضي من القراءة.

وضع الجلاد علي الغجري حلقة حبل المشنقة المشبع بالماء وذي العقدة، في رقبة خيري الحلاق بحيث تركب العقدة على حفرة الرقبة من الخلف. طأطأة خيري الحلاق رأسه، وتحريكه من أجل مساعدة علي الغجري بوضع الحلقة في رقبته، أدهش من رآه. أحد شهود هذه الحادثة قال لمن بجانبه إن أي شخص سيشنق لن يكون طبيعياً في تلك اللحظة، وتصرف خيري الحلاق بمساعدته لإدخال الحلقة في رقبته كأنه يجلس على كرسي الحلاق، ويساعد في ربط غطاء الحلاقة، يدل على كونه غير طبيعي. والشخص القائل هذا، على الرغم من عدم شنقه قبل هذه المرة يفهم نفسية كل إنسان، في كل وضع، لأنه باحث هاوٍ في علم النفس.

لعل الأرق، والتعب، وتأثير الحشيش الكثير الذي قُدم لعلي الغجري في السجن جعله يتلخبط، وهذا ماانتبه إليه المتفرجون في الصفوف الأمامية. حتى إن بعضهم قال: «لم يعد هذا الرجل يستطيع القيام بعمل الجلّاد» أي لولا أن خيري الحلاق حنى رأسه، وحركه للمساعدة فلن يكون من السهل على علي الغجري وضع الحلقة في رقبته.

قال وكيل النيابة الجمهوري للسيد الإمام: «تفضل ياسيدنا الشيخ» فسأل السيد الإمام خيري الحلاق، حسب العادة، عن كلمته الأخيرة. قال خيري الحلاق: «ماالفائدة من قولها؟.. لن تفهموها..». وكيل النيابة الذي أرهقت أعصابه نتيجة قيامِه بإجراءات الشنق منذ أيام حتى الآن، وإزاء قلة أدب الرجل الذي لُف الحبل على رقبته، قال بصوت ساخر غير واضح تماماً، لعله جاء بدافع الفضول: «قل لنسمع، ربما نفهم».

قال خيري الحلاق: «أنتم لاتؤمنون بما أؤمن، ولاأنا أؤمن بما تؤمنون».

أمر مدهش. كل حرف خرج من فم خيري من مخرجه، وبشكل مشبع.

بعد عدة ثوانٍ أدرك النائب العام أنه ليس من الصحيح مناقشة رجل سيشنق من تحت المشنقة. خاصة وأن هذا لايليق بموقعه الرسمي أبداً، ففضل السكوت. لكن هذه المرة، وانطلاقاً من فكرة ضرورة قول الشخص الذي سيشنق كلمته الأخيرة، قال القاضي بصوت مليّن:

ـ ما الذي تؤمن به أنت؟

قال خيري الحلاق:

ـ أنا أؤمن بالتغيير اللامتناهي، كل شيء، كل شيء يتغير دون توقف.

ولأن هذا الكلام لايحمل أي جانب غير مفهوم، لم يهتم أعضاء الهيئة به في البداية، ولكن خيم عليهم الصمت عندما أضاف خيري الحلاق:

ـ أنا أيضاً تغيرت، وأتغيّر.. ارتكبت جريمة كبيرة جداً قبل أربع سنين، وكنت مجرماً. ولكن خلال السنوات الأربع هذه تغيّرت كثيراً، وأصبحت خيري آخر، وإنساناً آخر. أنا الآن غير ذاك الإنسان الذي

ارتكب تلك الجريمة. أنتم الآن تشنقون إنساناً آخر، وخيري آخر على أنه مجرم. ولحظةَ أصبحت إنساناً آخر...

على وكيل النيابة الجمهوري أن يضيف هذه الرؤية إلى الكتاب الذي سيؤلفه. نعم، على الرغم من إيمانه بضرورة حكم الإعدام من أجل وعي الفرد، وانضباط المجتمع، لكنه يؤيد مناقشة كل فكرة، وهذه فكرة يمكن مناقشتها.

قال السيد الإمام لخيري الحلاق:

ـ ليغفر الله لك سيئاتك.

وبمعنى الشكر رد خيري الحلاق قائلاً:

ـ ولكم.

كان الجلاد علي الغجري أكثر المندهشين. دهشته ليست من فهمه لكلمات خيري الحلاق. لقد شنق عدداً كبيراً من الناس، ولكنه حتى الآن لم ير مثل هذا. إنه لايبكي، ولايتوسل، ولايتحدى، ولايتخبّط، ولايصيح، ولايشتم. أغلب الذين جُلبوا إلى تحت المشنقة وعلى صدورهم ملخص حكم مكتوب على قطعة كرتون عملوها تحتهم، وكلهم تقريباً تبولوا بثيابهم، ومن لم يتبول بكى، كذلك ثمة من عملها تحته وتقيأ في آن واحد. ولكنها المرة الأولى التي يرى فيها مثل خيري الحلاق هذا. لقد كفاه أن يعمل طوال حياته جلاداً من أجل رؤية رجل كهذا تحت المشنقة. حنّ قلبه على خيري الحلاق. سيشنقه بحيث يجعل عقدة الحلقة تركب على حفرة الرقبة ليختنق خيري دون أن يتخبط. فكر بذلك، ونظر إلى خيري الحلاق، وقال بينه وبين نفسه: «حسنة الجلاد علي الغجري لايمكن أن تكون غير هذه. هذا الذي بيدي».

أعطى مدير السجن، أكثر أعضاء الهيئة تجربةً بالشنق، إشارة لعلي الغجري. ساعد علي الغجري خيري الحلاق المقيدة يداه إلى الخلف بالصعود على الكرسي. في تلك اللحظة ظهر تعب الجلاد علي،

وأرقه، وإفراطه بالحشيشة. سيرفس الكرسي ويقلبه. وعندما يسقط الكرسي من تحت رجلي خيري الحلاق، سيبقى معلقاً في الهواء بالحبل من رقبته. ولكن لأن علي الغَجري لم يستطع تحديد وجهة قدمه بأي شكل، اعتقد أنه يركل الكرسي كما تُركل الكرة، فلاحت قدمه في الهواء. جرب مرة أخرى فلم يصب الهدف. في المرة الثالثة فقد توازنه، فتدحرج ساقطاً في حضن الإمام الواقف خلفه، وهذا ما أنقذه من السقوط على مؤخرته. غضب وكيل النيابة من فشل الجلاد علي الغجري حتى كاد أن يرفس الكرسي هو بنفسه. ولكن الجلاد علي الغجري نجح في النهاية، وركل ركلة قوية أسقطت الكرسي.

بعد أن تخبط خيري الحلاق قليلاً وهو معلق بالحبل من رقبته، امتد لسانه الخارج من فمه وتدلى. سُمع من داخل الزحام صراخ: «عاشت العدالة الإلهية».

كانت فلاشات الكاميرات تبرق.

ترتب على الطبيب عضو الهيئة تقديم كتاب يفيد أن خيري الحلاق قد مات من الناحية الطبية. بعد ذلك ركب القاضي، والنائب العام والطبيب في السيارة التي كانت تنتظرهم، وذهبوا إلى غرفة النيابة لإكمال الأعمال اللازمة. وتحت ملخص الحكم الذي سيوقعونهُ كان النص التالي:

«حسب المادة 43 من قانون العقوبات التركي فقد نُظمت أربع نسخ من ملخص الحكم هذا حول تنفيذ العقوبة بالشنق لتُعلّق إحداها على المشنوق، وترسل النسخ الثلاث الأخرى إلى حيث ارتكب الجرم، وحيث نفذت الجريمة، وحيث صدر الحكم، لتعلق هناك.

توقيع توقيع توقيع

القاضي ممثل المحكمة، وكيل النيابة الجمهوري، الطبيب الشرعي».

يُعلّق هذا الإعلان في أمكنة ثلاثة مختلفة من أجل أن يصبح

عبرة لمن لم يأت بسبب انشغاله، أو بسبب مرضه، أو بسبب عذر آخر.

حسب المادة 69 من النظام تعطى جثة المشنوق لورثته من أجل الدفن، على ألا تقام لها أية مراسم. ولكن لعدم وجودورثة لخيري الحلاق، أو كانوا موجودين ولم يستطيعوا إيجادهم، أو رفضوا وراثتهم، ستسلّم جثة خيري إلى البلدية لتدفنها في المقبرة.

شُنق خيري الحلاق، ولكن أعمال وكيل النيابة المتعلقة به لم تنته بعد. سيرسل إلى إدارة النفوس المسجل فيها بلاغ بإعدام خيري الحلاق لمحو هويته من قائمة الأحياء. وبعد إنهاء هذه الأعمال كلها سيعاد ملفّ خيري الحلاق إلى المحكمة التي أصدرت حكم الإعدام بحقه.

بعد ذهاب أعضاء الهيئة بدأ المزدحمون في الساحة بالدوران حول المشنقة، وراحت تصدر عنهم عبارات من قبيل: «كفى، ابعد قليلاً لنتفرج نحن أيضاً»، «أرجوكم لاتدفعوا هكذا»، «لاتستند عليّ من الخلف..»، «قف جانباً وافسح مجالاً للولد لكي يرى»، وبينما كانت المناقشات، والصراعات الكلامية تدور، راحت جثة خيري الحلاق على المشنقة تهتز بتأثير رياح الصباح كما راية العدالة.

اجتمع بعض الأشخاص الذين لايعرفون القراءة والكتابة مقابل الجثة وراحوا يتحدثون فيما بينهم عن السبب المحتمل الذي أدى إلى شنق هذا الرجل، لأنهم لايستطيعون قراءة ملخص الحكم. كل منهم يقدم تفسيراً حسب حياته الخاصة. فالذي كان يتوق لقطع الطرق، بعد ذلك خاف وتراجع، قال:

ـ لابد أنهم عملوه قاطع طرق.

أما الشاب فقال:

ـ من الواضح أنه خطف فتاة، وعندما جاؤوا لتخليص البنت منه، أطلق المسكين النار عليهم.

ـ هذه قضية ثأر ياشباب. لقد أطلق النار على الذي أطلقها على أبيه.. لو كنت مكانه لأطلقت النار عليه أيضاً.

رجل يلحق الأولاد بشذوذ وجد ولداً يناسبه في هذا الزحام، سأل الولد عما كتب على صدر الجثة، فرد الولد الصغير الذي لايعرف القراءة والكتابة:

ـ اطلب لي كباباً بابا..

منذ الصباح الباكر أشرقت شمس حارة. بدأ بيع الجرائد بكثرة. فالذين يريدون حماية أنفسهم من الشمس يشترون جريدة، ويعملونها طاقية لوضعها على رؤوسهم. والذين تفرجوا مطولاً، ومطولاً على جثة خيري الحلاق المتأرجحة على المشنقة أخذوا درس العبرة الذي عليهم أن يأخذوه، وبقولهم المعبر عن فرحهم: «أوه. نقص من بيننا عدو عرض وشرف آخر، ونحن نفدنا» انسحبوا تاركين ساحة الشنق ببطء .

استمر الاحتفال في ساحة الشنق ست ساعات. بعد ذلك نُقلت جثة خيري الحلاق إلى المقبرة بسيارة الجنازة التابعة للبلدية.

جرى ذلك لعدم وجود من يتبرع أو يتصدق أو يوزع النقود من أجل خيري الحلاق، لم يكن هنالك أحد من الداعين والمتسولين، والحَفَظة، والشيوخ الذين يتطايرون مثل الذباب الوحشي حول قبر كل ميت يدفن، وذلك لعدم وجود من يتبرع أو يتصدق أو يوزع النقود من أجل خيري الحلاق.

خاتمة

أيها القراء، سلام عليكم، وعليكم كل السلامات التي قيلت، والتي قدّمت، والتي تلقيت! سلام على الذين في البر والبحر والجو، وفي الفرش، وفي المشافي، وفي الفضاء، وفي القمر وفي الكواكب كلها، وعلى الذين سيأتون بعد الآن.

يقول كاتب سرنامة الجمهورية هذه، الهدف الأول للقانون منذ وجد وسميّ تغيير الإنسان المعاقب، وجعله حسناً وسوياً. ولكن شنق مجرم هو عدم الاعتراف بحق التغيير الذي يعتبر أكثر الحقوق طبيعية. الأسوأ من هذا هو عدم الإيمان بدستور الطبيعة والمجتمع المتغير، وهو قانون التغيير اللامتناهي، أي عدم الإيمان بالعالم الذي ندوس على أرضه، ونستنشق هواءه، ونشرب ماءه، وإنكار ذواتنا التي لانؤمن بها.

خيري الحلاق الذي قرأتم قصته، كان آخر من أعدم في تركيا على مرأى من عيون الناس لأخذ درس وعبرة.

ولأننا نرى أن شنق خيري الحلاق هام جداً، كونه آخر شنق أمام أعين الشعب، أردنا أن نحكي عنه بقدر ماساعدنا لساننا، وأن نقدم وثيقةً من أجل تاريخنا الثقافي.

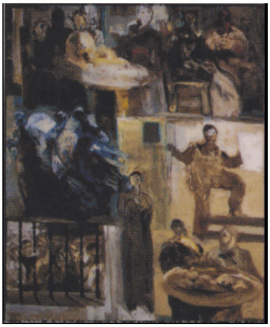
بدأتُ بكتابة سرنامة الجمهورية هذه في ناحية (كمر) التي تدعى الآن (برهانية) في حي (أوران) في غرفة بيت من أبنية

(صونار) في الليلة الفاصلة بين يومي الجمعة والسبت، الفاصلة بين الثالث عشر من شباط والرابع عشر منه عام 1973 . كتبت فيها أحياناً، وانقطعت عن الكتابة في أحايين، وأنهيتها في إحدى غرف إدارة وقف نسين الذي ينشأ حالياً على مبعدة أربعة كيلومترات من مفرق الطريق المتجهة نحو ناحية (تشاطلجا)، في هذه الليلة التي تربط الجمعة المصادفة 19 أيلول بالسبت المصادف 20 أيلول من عام 1975 في الساعة الثالثة صباحاً.

مع السلامة، وتمنياتي بكتابة أكثر من هذا، وأفضل، وبقدر مايتيحه عمري لي، وتمنياتي لكم بقراءة هذه الأعمال، وأعمال كثيرة جداً لكتّاب آخرين، ولنعش مغيّرين أنفسنا، ومَنْ حولنا! سامحوني على هفواتي، ومازِدْت به.

عزيز نسين

تشاطلجا 20 أيلول 1975



سرنامة

من النادر في الروايات أن نقرأ عن السجن، كمؤسسة عقاب، وفضح وقائع مايجري داخلها على نحو مأساوي، كما في هذه السرنامة.

عزيز نسين لا يكتفي بتحليل الانعكاس المرضي للسجن، والصراعات الداخلية فيه، ومناخات الانحراف والشذوذ والجريمة داخل الأفراد. إنّه يشرّح، كما في مختبر، مجتمعاً مهيّأً للإدانة وضرورة العقاب، ومؤسسات حكومية معادية للحرية وحقوق الإنسان.

الأعمق في سرنامةِ عزيز نسين، ذلك الإحساس بكراهية السجن كمؤسسة عقاب، ولاجدوى هذه المؤسسة الفاسدة، المعادية للجوهر الإنساني بما هي خالقة ومؤصّلة للفساد والشذوذ والجريمة داخلها.

ويقول عزيز نسين: «المكان المدعو زنزانة رطب، وساكن إلى حد أن هواءه عفن وصدئ. لو قبضت بكفك على هواء المكان المدعو زنزانة، والذي لم يجف في أي وقت وعصرته لقطر ماء. إذا استنشق الإنسان هواء هذا المكان المدعو زنزانة، المختلطة قذارته مع صدئه، ومايشربه مع ما يتبوله، ومايأكله مع مايتبرزه، فلا بد أن يختنق تسمماً. البقاء في هذا المكان المدعو زنزانة أكثر من شهر يحوّل دم الإنسان من الأحمر إلى الأصفر، ومن الأصفر إلى بياض القيح، وفي النهاية تسقط على وجهه شِباك الموت».

الناشر